
السير هاملتون آ. ر. جب
حرّرها
د. يوسف ايبش
صلاح الدين
الأيّوبي
دراسات في التاريخ الإسلامي
Bibliotheca Alexandrina
0017485

صلاح الدين الأيوبي

دراسات في التاريخ الإسلامي

السير هاملتون . آ . ر . جب

صلاح الدين الأيوبي

دراسات في التاريخ الاسلامي

حررها :
يوسف ايبش



بيسان

* صلاح الدين الأيوبي (دراسات في التاريخ الإسلامي).
* تأليف: السير هاملتون أ. ر.جب.
* تحرير: د. يوسف إيبش.
* الطبعة الثانية، 1996.

* الناشر: بيسان للنشر والتوزيع والإعلام.
□ ص.ب 5261-13 بيروت ـ لبنان
□ هاتف: 351269.

قائمة المحتويات

كلمة المحرر

الطبعة الثانية

قام السير هاملتون أ.ر. جب بكتابة المقالات والدراسات التي يضمها هذا المجلد على امتداد عقود عديدة من السنين، وقد ظهرت في منشورات على اختلاف أنواعها. ومما لا ريب فيه أن القارىء اليقظ لن تفوته ملاحظة الفوارق في الأسلوب والتشديد والعمق. لكنها تؤلّف مع ذلك مجموعة كليّة متماسكة، وهي جديرة بالجمع في مجلّد واحد كمساهمة في دراسة التاريخ الإسلامي. ولم يقم المحرّر في محاولة لتوحيد طرق كتابة الأسماء ونقل الألفاظ بحروفها، رغبة منه في الحفاظ على الأمانة للنصوص الأصليّة.

ويطيب للمحرّر أن يعرب عن شكره وامتنانه للمحرّرين والناشرين من أصحاب الدوريات والكتب المستلّة منها هذه الأبحاث، لتلطّفهم بالسماح في إعادة طبع ونشر المقالات والدراسات التي يضمّها هذا المجلد والمشار إليها بعلامة النجمة *.

ويطيب لي كذلك أن أتقدّم بالشكر من المرحوم الدكتور عبد الوهاب الكيالي لما أبداه من اقتراحات قيّمة وللمراسلات التي قام بها مع محرري وناشري المقالات الواردة في الكتاب، كما أشكر الدكتور يوسف ق خوري على مساعدته في استخراج النصوص واستنساخها وفي ترتيب الفهرس.

بيروت ـ لبنان/ ١٩٩٥

د. يوسف إيبش

BEO *Bulletin d'études Orientales.*

BGA *Bibl. Geographerum Arabicorum.*

BSOS *Bulletin of the School of Oriental Studies.*

BSOAS *Bulletin of the School of Oriental and African Studies.*

GJ *Geographical Journal.*

IA *International Affairs.*

IC *Islamic Culture.*

JAOS *Journal of the American. Oriental Society.*

JCAS *Journal of the Central Asian Society.*

JNES *Journal of the Near Eastern Studies.*

JRAS *Journal of the Royal Asiatic Society.*

JRCAS *Journal of the Royal Central Asiatic Society.*

JTS *Journal of Theological Studies.*

MEJ *Middle East Journal.*

MSOS *Mitteilungen des Seminars fur Orientalische Sprachen.*

MW *Muslim World.*

RAAD *Revue de l'Academie Arabe de Damas.*

REI *Revue des etudes islamiques.*

RMM *Revue du monde musulman*

RSO *Rivista degli Studi Orientali.*

SI *Studia Islamica.*

WI *Welt des Islams.*

WZKM *Wiener Zeitschrift fur die Kunde des Morgenlandes.*

ZDMG *Zeitschrift der Deutschen morgenlandischen Gesellschaft.*

الفصل الاول

الخلافة والدول العربية *

كانت قبائل البدو العربيّة التي انتظمت في جيوش الإسلام قد اجتاحت ، في ظلّ حكم الخلفاء الراشدين أو الذين « خلفوا » النبي محمّد بالمدينة ، بلاد الشام والعراق وغربي فارس ومصر بسرعة فائقة ، فتوطّدت أقدامها في مدن للحاميات أو الأجناد داخل الأقاليم المُفتتحة . ثم أدّت الخلافات بين رجال

---

* — الفصل الثالث من « تاريخ الحرب الصليبية » ، الجزء الأ ل ، تحرير ك.م. . ستون ، مطبعة جامعة بنسلفانيا ، فيلادلفيا ١٩٥٨ ، وتعود حقوق الطبع إلى أوصياء جامعة ديسكونسن ، ص ٨١-٨٩

ملاحظة : بالنسبة لتاريخ العرب العام انظر هذين المصدرين :

Sir William Muir, **The Caliphate, its Rise, Decline, and Fall** (Edinburgh, 1915 ; reprinted 1924)

P. K. Hitti, **History of the Arabs** (5th ed., New York, 1951)

فيما يتعلق بمصر الفاطميين ، راجع ما يلي :

G. Wiet. L'Egypte arabe, de la conquête arabe à la conquête Ottomane (Paris, 1937 ; Vol IV (مصر العربية من الفتح العربي إلى الغزو العثماني) of Histoire de la nation égyptienne, ed. G. Hanotaux)

⇐

القبائل وحكامهم إلى مقتل الخليفة الثالث عثمان في سنة ٦٥٦ م ، وإلى فتنة أهلية انتهت بتشكيل خلافة جديدة في دمشق(٦٦١ م)تقوم على الوراثة في بيت آل أميّة المكي وتعتمد في سلطانها إلى حدّ كبير على رجال القبائل العربيّة في بلاد الشام . وتابعت الامبراطورية العربيّة توسّعها في ظلّ الخلفاء الأمويين إلى شرقي فارس وتركستان وشمال غربي افريقيا وإسبانيا ، على الرغم من انتفاضات العصيان المتكرّرة بين رجال القبائل في العراق ومن السخط المتزايد بين قطاعات عديدة من عامّة السكان . وكان عبء الدفاع عن مثل هذه الامبراطورية الشاسعة قد أنهك في نهاية الأمر قوى العرب الشاميين ، فتمزقت

وانظر أسماء المصادر الملائمة التي أدرجها المؤلف في القائمة البيبليوغرافية الملحقة بالفصل الرابع من كتابه .

إن « موسوعة الإسلام » Encyclopedia of Islam (التي صدر منها أربعة مجلدات وملحق ، ليدن – لندن ١٩٠٨ – ١٩٣٨ ، وهي الآن قيد التنقيح) تحوي مقالات مفيدة عن السلالات والحكام والطوائف الدينية . وفيما يتعلق بسورية خلال القرن العاشر ، انظر

M. Canard, Histoire de la dynastie des Hamdanides de Jezira et de la Syrie, Vol I (Algiers, 1951).

أما المصادر الرئيسية عن القرن الحادي عشر فهي التالية :

ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق (تحرير H.F. Amedroz ، طبعة ليدن ١٩٠٨)

كمال الدين ابن العديم : بغية الطلب في تاريخ حلب ، المجلد الأول ، (حرره سامي الدهان دمشق ١٩٥١)

يحيى الانطاكي – تكملة تاريخ اوطيخيوس (حرره وترجمه المستشرقان إ. كراتشوفسكي وأ.أ. فاسيليف ، ونشراه في

Patrologia **Orientalis**, Vols. XVIII & XXIII. Paris, 1924, 1932.)

والمعلومات العائدة لمصادر الأخيرة ، إلى جانب المواد الا غريقية والأرمنية المعاصرة والمتصلة بشمال سورية ، يلخصها E. Honig mann في دراسته عن الحدود الشرقية للامبراطورية البيزنطية :

Die Ostgrenze des byzantinischen Reiches (Vol. III of A.A. Vasiliev, **Byzance et les Arabes**, Brussels, 1935).

بالإضافة إلى ذلك وحدة هؤلاء على غرار ما حدث لوحدة المستوطنات العربيّة في كل إقليم يمتدّ من اسبانيا إلى خراسان ، وذلك بسبب النزاعات العنيفة التي نشبت بين الأحزاب والفئات المتنافسة والمنقسمة إلى مضريّة ويمانيّة ، أو إلى عرب « شماليين » وعرب « جنوبيين » . واستسلمت الخلافة الأمويّة في ٧٥٠ إلى ثورة عامّة شنّها الجناح اليمني بموآزرة عناصر أخرى ساخطة ، تضم العرب والموالي ، فحلّت محلّها سلالة ثالثة من الخلفاء المتحدّرين من العبّاس ، عم النبيّ ، وشيّد العباسيّون لانفسهم عاصمة جديدة في بغداد .

استندت قوة الخلافة العبّاسية من الناحية السياسيّة إلى سكان العراق من عرب و « متأسلمين » (مع استثناء هام سوف ترد الإشارة لم إليه فيما بعد) وإلى المعمرين العرب والارستقراطيّة الايرانيّة في خراسان . واعتمدت من الناحية العسكريّة على جيش دائم تمّ تجنيده من خراسان وكان يضمّ العناصر المختلطة إنما طغى عليها العنصر العربي . فتمركز هذا الجيش في العراق وكان قادراً على تلقّي التعزيزات من موطنه الأصلي فيما لو دعت الحاجة . أمـــا عناصر المعارضة التي كانت موجودة في سورية ومصر فقد أضعفها استمرار النزاع المضري — اليمني وجرى قمعها في الشمال الغربي من افريقيا بتوطين حامية خراسانيّة في القيروان . ثم تحوّل الفاتحون العرب في مدن الحاميات السابقة بالعراق مع نمو المدنيّة الحضرية وتطوّر التجارة إلى سكان مدن وتوقّفوا عن تشكيل وحدات عسكريّة ذات فعاليّة . أما عرب الشام وأعالي ما بين النهرين فقد تابعوا السير تحت أمرة العباسيين على وتيرتهم الراسخة في شن الحروب الحدوديّة ضد الروم في الأناضول . ومن جهة ثانية ، فقد أخذ رجال القبائل في أواسط الجزيرة العربيّة وشمالها وفي البادية الشاميّة ، حين لم تعد تصدّهم الجيوش الامبراطوريّة المنتمية إلى نسبهم ، أو حين عجزوا عن إيجاد متنفّس لروحهم العسكريّة بالانخراط في القوات المأجورة للامبراطورية : في الارتداد

الى تمرّدهم السابق ضد السلطات المدنيّة في العراق وإلى حرفتهم التقليديـة في الغزو .

وتفجّر النزاع الكامن بين العراق وخراسان ، من جهة ، وبين سكان العراق الحضريين والبدو (إن لفظة « بدوي » العربيّة تعني ساكن الصحراء) ، من جهة ثانية ، على الصعيد العملي بمناسبة نشوب فتنة أهلية اخرى بين عامي ٨١٢ — ٨١٣ ونتيجةً للمحاولة غير الحكيمة من جانب هارون الرشيد لإعطاء ابنه المأمون مركزاً مستقلاً في خراسان ، خارج سيطرة اخيه الأكبر ، الخليفة الأمين . وكان انتصار المأمون هو بفضل جيش خراساني جديد ، أشد وضوحاً في تركيبه الفارسي وقيادته ، فاستولى بواسطته من جديد على العراق وما بين النهرين والشام ومصر ، واستعاد شيئاً من شبه السيطرة على رجال القبائل . أما الثمن الذي دفعه لقاء ذلك فكان التخلّي الفعلي عن حكم الخلافة المباشر على فارس والأقاليم الشرقية . وعُهد بحكم خراسان إلى القائد الأعلى للجيش ، طاهر ، فأصبح هذا الأمر مع منصب القيادة العسكرية العليا في بغداد متوارثاً في أسرته .

ولكي يعادلوا قوة الطاهريين جزئيّاً ، عمد الخلفاء الآن إلى تشكيل حرس خاص من العبيد الاتراك الذين وقعوا في الأسر خلال القتال الحدودي الناشب في السهوب ، وسرعان ما غلب عنصُرهم . فأقيم معسكر جديد لهذه القوّات في سامّراء عام ٨٣٥ على مسافة ستين ميلاً شمالي بغداد وحلّت سامرّاء مكان بغداد مقرّاً للإدارة طيلة ما يقارب ستين عاماً . ثم أخذ الخليفة ، في عزلته بين حراسه الاتراك ، يخضع لسيطرتهم على نحو متزايد ، حتى انه قُضي على ما لا يقل عن أربعة من الخلفاء بين عامي ٨٦١ — ٨٧٠ إمّا بواسطة الاغتيال أو في نزاع مسلّح مع الاتراك . ولم تستطع مكانة العباسيين وسلطتهم ، وهي التي كانت قد زعزعتها الحرب الأهليّة في سنة ٨١٢ وهزّها مقتل الأمين على يد الخرسانيين ، ان تصمد في وجه هذه الكوارث إلا بشقّ النفس.

فقامت الأمثولة القائلة بأن حيازة السلطة تجتذب الأقوياء والمحنّكين وهي من نصيبيهم ، في إطلاق العنان داخل كل صقع من أصقاع امبراطوريتهم السابقة للأطماع التي وجدت تأييداً بين ضحايا سوء الحكم والظلم المالي وهمـــا ناجمان عن الفوضى السائدة في مركز الخلافة . وأطاحت بالطاهريين ثورات محليّة في بلاد فارس : بينما كان المستفيدون في الولايات العربية هم الولاة الاتراك وقبائل البدو .

وجاء التنافس بين الأتراك والبدو في الصراع الذي أعقب ذلك مصحوباً أو مشوباً ، كما هو شأن القوى السياسية في الشرق الأدنى ، بفوارق الولاء الديني . فقد كانت ثورات البدو ، خلال الخلافة الأموية ، في شمالي الجزيرة العربية وفي بلاد ما بين النهرين تنضوي كقاعدة تحت راية « البدعـــة » الخوارجية ، واعتنق الخوارج عقيدة متشدّدة في التزمّت والدعوة إلى المساواة مثلما انهم وجدوا صدى متعاطفاً مع عقيدتهم في الديمقراطيّة العشائرية وفي مقاومة السيطرة الاجنبية . وفي الطرف الآخر ، قام رجال قبائل الكوفة في أسفل العراق بتنصيب انفسهم مدافعين عن الحق المتوارث لبيت عليّ في الخلافة ، وعليّ هو صهر النبي وأبو المتحدّرين الوحيدين منه والذين بقوا بعد وفاته ، وهو الخليفة الرابع الذي نقل عاصمة الخلافة من المدينة إلى الكوفة إبان الفتنة الأهليّة الأولى .

لم تحظَ الدعوة الشيعيّة أو « حزب » علي طيلة قرن من الزمن أو ما يقارب ذلك سوى بالقبول الضئيل خارج الكوفة والمناطق التابعة لها ، باستثناء اليمن ، وكذريعة تستّرت وراءها الشلل الثورية . ثم بدأت في ظلّ الخلفاء العباسيين تحلّ محل الخوارجيّة ؟ للاختمار الديني أو بمثابة رمز للثورة . وبعد الحرب الأهليّة بين الأمين والمأمون حظيت ثورة شيعيّة في الكوفة سنة ٨١٥ بتأييد عام بين البدو في شمالي الجزيرة العربيّة واطراف العراق الصحراويّة . فأصبحت

تحركات البدو منذ البداية فصاعداً على ارتباط متزايد بالدعوة الشيعية في صيغة أو أخرى من صيغ شيعها المتنوعة ، وبنوع خاص مع الجناح النشط المعروف بالاسماعيلية[1] — ويعتبر هذا الجناح بأنه صاحب بدعة من وجهة نظر الشيعة المعتدلين . كذلك اكتسبت الشيعية اتباعاً لها بين العبيد السود وانضم العبيد من البدو إلى الزنج في ثورة الزنج الكبرى التي زلزلت المنطقة السفلى من العراق بين عامي ٨٦٩ و ٨٨٣ . فلم تكد هذه الثورة ان تخمد حتى هب رجال القبائل الاسماعيلية في الشمال الشرقي من الجزيرة العربية والبادية الشامية تحت راية « القرامطة » ناشرين النار والدمار من البصرة إلى انطاكية ، ولم يتسن اخلادهم إلى السكينة بصورة مؤقتة إلا في سنة ٩٠٧ .

أما الولايات التركية في الأقاليم العربية ، من جهة ثانية ، فقد أسسها قادة جمعوا بين الاستقلال المطواع والارثوذكسية السنية الصارمة . ومنذ حكم المعتصم ، خلف المأمون ، تمت العادة في تعيين أقاليم بكاملها كإقطاعات للقادة الاتراك في العاصمة . فالمقطع كان يجبي الخراج من ممتلكات الخلافة في الأقاليم ويمثله نائب له في حكمها الفعلي . فاستحصل المملوك التركي (والمملوك عسكري أصله عبد) أحمد ابن طولون ، الذي جرى تعيينه والياً على مصر في العام ٨٦٨ ، بهذه الطريقة على القوة التي استطاع بواسطتها ان يقيم هناك دولة مستقلة في الواقع ، مع انه بقي رسمياً حتى نهاية حياته في منصب الوالي . وليس هذا فحسب ، بل انه أضاف بلاد الشام إلى ممتلكاته وأسس سلالة دامت حتى ٩٠٥ . غير ان الحفاظ على هذه السلطة المستقلة لم يتم بواسطة انتزاع التأييد

---

١ — سمي الاسماعيليون بهذا الاسم من اعتقادهم بامامة اسماعيل ، الابن الأكبر للإمام السادس جعفر الصادق . وشملت التسمية في هذا الوقت خليطاً من الجماعات المحلية ، كان «القرامطة» يؤلفون إحداها ، وعليه فلا ينبغي معادلتها كلياً مع الاسماعيلية المنهجية لدى الفاطميين . انظر الفصل الرابع في المصدر الذي ورد ذكره عن تاريخ الحروب الصليبية ، ج ١ .

من السكان المحليين ، بل تمّ في خلق جيش خاص من المماليك الاتراك له من القوّة ما يكفي لإيقاف قوات الخلافة عند حدّها .

وحتى عندما استولى القادة الاتراك لأنفسهم على مقاطعات ، كما فعلوا في ما بين النهرين وارمينيا وغيرها من الأماكن ، فإنهم لم يتخلّوا بذلك عن ولائهم للخليفة . بل على العكس من ذلك ، تقدّموا بالتماس رسمي للحصول على براءات الإقطاع وتسلمّوها في حينه ، فجاءت احياناً مرفقة بمنح الحقوق الوراثيّة إلى جانب ذلك . فقد خدمت تلك البراءات ، رغم كونها زائفة بمعنى ما ، غرضين حقيقيين . أحدهما غرض النظام الداخلي : لإضفاء الشرعيّة على دعاوى المحاكم القضائيّة واحكام القضاة وغيرهم من المسؤولين الدينيين الذين يعيّنهم الحكام المحليّون ، وعلى الزيجات والمواريث ووصايا الإرث وكان الغرض الثاني سياسياً : من أجل وقف انتشار الشيعيّة والحدّ من تمرّد البدو في تلك المناطق حيث كانت قوات الخليفة عاجزة عن التدخّل .

لكن مثل هذا النظام القائم على التحالفات المتقلقلة والمريبة ضدّ عدو مشترك لم يكن بمقدوره إيقاف جميع الصدوع في النسيج المهترىء . وقبل نهاية القرن التاسع كانت الشيعيّة قد اكتسبت قاعدة قويّة ودائمة في بلاد فارس وفي التلال الواقعة إلى الجنوب الغربي من بحر قزوين والمعروفة بالدّيلم ، كما احرزت قاعدة دائمة اخرى في مرتفعات اليمن . بيد ان الشيعيّة لم تتابع تقدّمها في تلك المناطق النائية نسبيّاً فحسب ، ولا بين البدو فقط . فالسخط من جرّاء سوء الحكم السائد وانتشار الفوضى ، والتطلّعات الألفيّة التي انفجرت في ثورات القرامطة لاقت كلّها صدى حسناً بين أهل العلم والاتقياء من المواطنين والفلاسفة والادباء ، وحتّى عندما كان هؤلاء يشمئزّون من العنف الفظّ والإفراطات لدى الفلاحين ورجال القبائل . وقام زعماء الدعوة الإسماعيلية باغتنام الفرصة التي اتاحها هذا الاستياء الواسع الانتشار من الحالة السائدة

للأمور بعد أن أعيد تنظيم الدعوة وتنسيقها لصالح « إمام خفيّ » ، وكان مقرّها الرئيسي في السلميّة ، شرقي حمص ، وعلى أطراف الرقعة الطولونيّة . هنا جرى رسم الخطّة الجريئة التي كرّرت الطريقة التي استولى بها العباسيّون على الخلافة ، لكنّها سارت في الاتجاه المعاكس واستهدفت الإطاحة بهم . وتمكّن اسماعيلي نشيط قدم من اليمن من اكتساب موطىء قدم بين قبائل البربر الجبليين في تونس . ومن هذه القاعدة ، وعن طريق استخدام احتياطي الطاقة البشريّة لدى البربر واعتبار مصر نقطة للوثوب منها ، وبمساعدة فعلية أو سلبيّة من الأنصار في كافة الاقاليم ، كانت امبراطورية شيعيّة جامعة ستدشّن مملكة العدالة في ظل آل البيت .

لقد تمّ إنجاز الخطوات الأولى بنجاح . فالإمام الخفي فرّ من السلميّة قبل وصول القرامطة المخرّبين وتملّص من عملاء الحكم العبّاسي المستعاد بمصر ، فشقّ طريقه إلى الشمال الغربي من افريقيا . وقام هناك ، في سنة ٩٠٩ ، وبعد انتصار جيش داعيته البربري ، بتدشين الخلافة الفاطمية في تونس ثم اتخذ لنفسه اللقب الألفي « المهدي » . لكن الخطوة التالية اجهضت . فالجيوش العباسية طردت الغزاة الفاطميين من مصر مرتين ، في سنة ٩١٥ وسنة ٩٢١ ، في انتفاضة اخيرة للسلطة الامبراطورية ، وقبل ان يتسنّى تجديد المحاولة كان الفاطميون منهمكين في إخماد تمرد طويل وشديد الخطورة قام به البربر داخل البلاد . ولم يتحقّق احتلال مصر في نهاية المطاف إلا في سنة ٩٦٩ ، دون معارضة تقريباً ، وعلى يد قائد فاطمي ، لكي تصبح على مدى المائتي سنة القادمة مقرّاً لخلافتهم المنافسة .

جرت أحداث كثيرة في تلك الاثناء ، بالطبع ، فلم يكن توزيع القوى الذي واجه الفاطميين الآن في آسيا مشابهاً أبداً للوضع في سنة ٩٠٩ . فالخلافةالعباسية لم تعد قائمة كقوّة سياسية . لقد أنهكها المجهود العسكري المبذول لصدّ

القرامطة واستعادة مصر والإبقاء عليها ، وأضعفتها الاضطرابات الحاليّة وتناحر الفئات داخل القوات الامبراطورية ، ممّا جعلها عاجزة عن الحيلولة دون إعادة ظهور السلالات الحاكمة المحليّة وإحياء الاطماع العسكرية . وأضحت مصر من جديد مقرّاً لسلالة تركيّة تتمتع باستقلال واقعي ، أسسها أحد القادة في القوات الطولونية السابقة ، محمد بن طُغج ، الملقّب بالاخشيدي فامتدّ حكمه إلى دمشق والحجاز . وانضوت القبائل العربية في شمالي سورية وما بين النهرين تحت راية أمراء آل حمدان الذين انشأوا دويلتين قاعدتهما الموصل وحلب ، وارتبطت هاتان الدويلتان بروابط أخوية . وفي الشمال الشرقي من الجزيرة العربية كانت الدولة القرمطيّة في البحرين (شاطىء الحسا) لا تزال تقيم علاقات مع قبائل بادية الشام . وفي غربي فارس كان الديلم ، الذين انطلقوا من جبالهم ونهبوا الولايات المأهولة ، قد أخضعوا اخيراً للسيطرة المنظمّة من جانب إخوة ثلاثة ينتمون إلى آل بويه . فقد تمركز البويهيون ، وهم الذين تميّزت علاقاتهم ببعضهم بعضاً في الجيل الأول والثاني بروح نادرة من التوافق ، في مجموعة من الدويلات (الإمارات) الممتدة على طول الحدود الشرقيّة للعراق من بحر قزوين إلى الخليج الفارسي ، وبذلك قطعوا الخلافة عن الاتصال بالقوّة السنيّة الرئيسيّة الوحيدة في آسيا : السامانيون في خراسان وما وراء نهر جيحون(٢) .

تميّز هذا التفكك الثاني للامبراطورية العباسية في القرن العاشر عن تمزّقها الأسبق في النصف الثاني من القرن التاسع بخاصيتين . الخاصيّة الأولى كانت في القوة الأكبر نسبياً والطابع الأكثر تنظيماً للدويلات الجديدة . فتركت هذه الحقيقة ، إلى جانب الانقسامات في جيوش الخليفة ، أثرها على مواقف

---

٢ — انظر عن البويهيين والسامانيين الفصل الخامس من
A History of the Crusades, Vol. I.

الدويلات من الخلافة بالذات ، وأدّت إلى نشوب صراع بين الإمارات المتنافسة لبسط سيطرتها على الخلفاء . وكسب الديلم الجولة عندما دخل أمير خوزستان معز الدولة إلى بغداد فضمّ العراق إلى إمارته في سنة ٩٤٦ . وفي المقام الثاني ، فقد كانت جميع السلالات الحاكمة الجديدة شيعية — باستثناء الاخشيديين في مصر والأكراد في ديار بكر وشمال غربي فارس . فامتناع البويهيين عن الإطاحة بعرش الخلفاء العباسيين كان مردّه على الأرجح إلى حسابات سياسية .

ولقد تعذّر عليهم ان يدفعوا لقاء ذلك ثمناً مرتفعاً للغاية ، وكان ممكناً أن يأتي هذا الثمن على صعيد التمرد السنّي والفوضى الإداريّة ؛ بما ان الطبقات الرسميّة كانت سنيّة في غالبيتها الساحقة . فلم تكن لديهم الرغبة في إقامة سلطة روحية جديدة عليهم ان يقاسموها سلطانهم ، رغم انه لم يكن أي احترام للسلطة العباسية رادعاً لهم عن ذلك .

لذا لم يجد الفاطميون انفسهم ؛ عقب فتحهم لمصر ، وجهاً لوجه في آسيا أمام حكم ضعيف الثقة للخلفاء السنيين وبأنه في استطاعتهم ان يحشدوا قوى الشيعة ضدّ هذا الحكم ، بل وجدوا صفوفاً متلاحقة من الإمارات الشيعيّة الممتدة دون انقطاع حتى حدود خراسان . ومع ان الحمدانيين في حلب والقرامطة في البحرين لم يكونوا معارضين من حيث المبدأ للاعتراف بالسلطة الروحية للخلفاء الفاطميين ، فإنهم لم يكونوا ايضاً على استعداد البتة للخضوع إلى سيطرتهم الزمنيّة ، بينما وجد البويهيون الآن ، وهم الذين ينتمون إلى طائفة شيعيّة منافسة أنكرت على الفاطميين مزاعمهم الروحيّة حتى ان الشكوك قد ساورتها بشأن ادعائهم للنسب ، بان رعايتهم المتساهلة للخلافة العبّاسية تعود عليهم بفائدة سياسية وتتخذ هذه الفائدة شكل التأييد ضد التقدّم المتوقّع للجيوش الفاطميّة .

لكن الفاطميين لم يبادروا إطلاقاً في الواقع إلى توجيه التحدّي للسيطرة البويهيّة في العراق . فانهمكوا طيلة القرن كلّه الذي أعقب فتحهم لمصر في بذل مجهود متواصل لم يكلّل بالنجاح في آخر الأمر لبسط سيطرتهم على سورية . وبما ان هذا الصراع – مع التعقيدات التي أضيفت إليه في الهجرات التركمانيّة والإمارات السلجوقيّة ، وهذا ما سيأتي وصفه في فصل لاحق(٣)– هو الذي حدّد الملامح العامّة للحياة السياسية الداخلية في بلاد الشام خلال القرن السابق للحملات الصليبيّة وابّان فترتها ، يصبح من الضروري ان نصف هنا بشيء من التفصيل مجرى الصراع ونتائجه .

كان العامل الرئيسي الكامن وراء التاريخ السياسي المشوّش لبلاد الشام خلال هذه الفترة هو إبلال القبائل العربية من السيطرة الصارمة التي مارسها عليها الحكام العباسيون وعملاؤهم بعد سقوط الخلافة الأموية . لكن التحالفات العشائرية الكبرى بقيت سليمة . وهي الآن : الجماعات اليمانيّة أو العربيّة « الجنوبيّة » من بني طيّء في فلسطين ومن بني كلب في سورية الوسطى ، والقيسيّون أو الجماعات « الشماليّة » من بني كلاب في شمالي سورية ومن بني نُمير وعُقيل في بلاد ما بين النهرين . كانت هذه الجماعات كلّها على صلات مع القرامطة ، مثلما اشترك بنو طيء وبنو كلب في الثورات القرمطيّة عند بداية القرن العاشر . استولى سيف الدولة الحمداني ، وهو المتحدّر من قبيلة تغلب الراسخة في بلاد ما بين النهرين ، على حلب من الاخشيديين في سنة ٩٤٤ وأقام دولة (إمارة) مستقلّة تضمّ الشام والعراق . فنال بعد صراع طويل مع القبائل القيسيّة تأييدَ بني كلب وبني عُقيل ، واستطاع ايضاً الاعتماد على رجال القبائل الأخرى لكي يشارك بدوره ضد الحكم التركي في مصر ، هذا الحكم الذي لم يحتفظ بقبضته على الشام إلا بتصالحه مع القبائل المحليّة .

٣ – المصدر نفسه .

لكن سيف الدولة كرّس معظم طاقاته للتحارب مع الروم ، وأحرز لفترة ما قدراً من النجاح الذي لم يؤدّ إلى تعزيز شهرته فحسب بل ذهب إلى حدّ تقوية الثقة بالنفس والشعور بالاستقلال لدى العرب . ومن جهة ثانية ، فقد استفزّ نجاحه البيزنطيين في نهاية الأمر وقاموا بشنّ هجوم مضاد بدأ في سنة ٩٦٢ وأخذ يخترق خطوط الدفاع الإسلاميّة اكثر فأكثر في العمق حتى اجتاح شمالي سورية كلّه في العام ٩٦٨ . أما الفاطميون فقد جاءتهم هجمات الروم في الوقت المناسب تماماً ، إذ جاءت في أعقاب خروجهم من انتصارهم على الروم في صقليّة وبينما كانوا في تلك اللحظة يعدّون العدّة للانقضاض على مصر . فهي لم تؤدّ إلى إضعاف الحمدانيين في حلب فحسب ، بل زوّدت الدعاية الفاطميّة بالموضوع الذي بدا ان له ما يبرّره في بداهة متناهية، ومؤداه ان الفاطميين يشكلون القوّة المسلمة الوحيدة القادرة على إيقاف تقدّم الروم ودحرهم . كما ان الخليفة الفاطمي المُعزّ كان قد تفاوض مع قرامطة البحرين لكي يحبط تدخّلاً محتملاً تشنّه قوات معادية من الشرق ، ودخل في العام نفسه جيشٌ قرمطي إلى سورية فاستطاع بمساعدة حلفائه العرب المحليين ان يأخذ الجزية من حاكم دمشق الاخشيدي .

وهكذا تبدّى كل شيء وكأنه منتظم في سلسلة تنذر باحتلال فاطمي سريع لبلاد الشام حالما يتم افتتاح مصر . وفجأة ، بينما أخذت طليعة القوات الفاطميّة بالتقدّم صوب سورية ، بادر القائد القرمطي ، لأسباب لم تتضح تماماً على على الإطلاق ، إلى التفاهم مع القائد الإخشيدي . غير ان الجيوش الفاطميّة دخلت دمشق عند نهاية سنة ٩٦٩ وحاصرت الروم طيلة خمسة اشهر في معقلهم بانطاكية التي عاودوا الاستيلاء عليها من جديد ، لكي تواجه تحالفاً من القرامطة والقوات الإخشيديّة ورجال القبائل فقام هؤلاء بطردها من بلاد الشام وتعقّبوها حتى مصر (عام ٩١٧) . فلم يتمكّن الفاطميون من معاودة الكرة في حملتهم الشاميّة إلا بعد اندحار الهجوم القرمطي الثاني على القاهرة في سنة ٩٧٤ م .

وتجدّدت في تلك الاثناء غارات الروم فأخضعوا حلب الى مقطعيّة لهم . لكن الحملة النهائيّة التي قادها الامبراطور يوحنا تزيمسكس Tzimisces (الملقّب بابن الشمشقيق) إلى اواسط الشام في سنة ٩٧٥ تصدّت لهـا الجيوش الفاطميّة عند طرابلس . فلم تُضَم دمشق ولم ينسحب القرامطة نهائياً من جولة السباق إلا بعد مضيّ ثلاث سنوات اخرى من القتال الذي أدّى إلى هزيمة القائد التركي المستقلّ في دمشق ، افتكين ، وهزيمة حلفائه القرمطيين على يد الخليفة الفاطمي العزيز .

لم يكن أثر هذا الغزو في توطيد الحكم الفاطمي في سورية الجنوبيّة بقدر ما كان في تقسيم بلاد الشام إلى محميّتين : محميّة بيزنطية في الشمال تشمـل حلب والمناطق التابعة لها ، وقاعدتها المحصّنة بقوّة هي انطاكية ، ومحميّة مصريّة تضمّ دمشق والجنوب وقاعدتها الرئيسيّة في طرابلس الشام . ولقد تمركزت القوات البربريّة التابعة للجيش الفاطمي في دمشق ، على كره شديد مـن أهاليها ، وأُقيمت لها حاميات في المدن الساحليّة ، بينما كانت المناطق الريفية خارجة عن سيطرتها إلى حد بعيد . ويرجع هذا الضعف دون ريب ، إلى حدّ ما ، لمزايا قوات البربر التي لا تضاهي الفرسان الاتراك المنضبطين وتنحصر مقدرتها بالصمود في مواقعها أمام رجال القبائل العربيّة . لكنه يبدو محتمـلاً ان الخلفاء الفاطميين على العموم كانوا قد أناطوا ثقة مفرطة بتأثير الدعاية . فكان التنظيم الدقيق لـ « الدعوة » هو السّمة التي تميّز بها نظامهم الاداري بنوع خاص ، واحتلّ الداعي الأكبر منصباً من أعلى مناصب المسؤوليّة في البلاط . وجرى تأسيس الجامع الأزهر كمدرسة كليّة لأجل تعليم الدعوة ، وهو الأثر الأشد بقاءً لحكمهم . فالافتراض القائل بأن تسهيل الغزو يكون عن طريق حملة تمهيدية من الدعاية جاء وافياً لغرضهم على خير وجه في تونس وكذلك في مصر ، لكنّه لم يزد في بلاد الشام ابداً عن كونه قصبة مكسورة . ولم يرجع السبب إلى أن السوريين رفضوا مزاعمهم الدينيّة . بل على العكس من ذلك ،

وباستثناء دمشق التي لم يتصالح سكانها السنيّون المتصلّبون مع الحكم الفاطمي أبداً ، فإن المواطنين ورجال القبائل ، « الشماليين » منهم و«الجنوبيين» كانوا من حيث المبدأ اكثر تعلّقاً بالخلافة الفاطميّة من تعلّقهم بالخلافة العباسية ، وكان بعضهم في الشمال بنوع خاص من أنصارها المتحمسّين . ولقد اعتمد الحكم الفاطمي في أية عمليّة له كانت على نطاق أوسع من العمليّات المحليّة ، إلى درجة كبيرة على تعاون قبيلتي طيّ وكلب ، مثلما اعتمد الحمدانيون على قبيلة بني كلاب . غير ان تقسيم البلاد ، وانعدام السيطرة الفعّالة على رجال القبائل ، أدّيا إلى تعزيز الشهيّة الطبيعيّة للاستقلال بين صفوف القبائل ، وشجّعا غيرهما ايضاً على التطلّع صوب الاستقلال ، أو الحكم الذاتي على الأقلّ .

لذا يبتدىء تاريخ بلاد الشام منذ هذا الحين في اتخاذ التعقيد المحيّر الذي ميّزه حتى اواسط القرن الثاني عشر . ولم ينهمك ــ الولاة الفاطميون والحمدانيون والروم في انطاكية في سلسلة متعاقبة التنقّل بين العداوات والتحالفات فحسب ، بل ان الولاة الذين يصغرونهم شأناً في أنحاء مختلفة من البلاد زجّوا بأنفسهم في خضمّ هذه التناحرات وسعوا لإثارتها ضد بعضهم بعضاً في سبيل مصلحتهم الخاصّة . وكان ولاة دمشق يتعرضون لإغراء متواصل في ان يستغلّوا لمنفعتهم عداء المواطنين تجاه البربر والفاطميين . ومن جهة ثانية ، فقد أمّن الحمدانيون لأنفسهم في حلب التغطية ضد أسيادهم البيزنطيين بواسطة الانفتاح على الفاطميين. غير أنهم كانوا كلّما زحفت الجيوش الفاطميّة على حلب، يتوسلون العون من انطاكية . فقد قام الامبراطور باسيليوس الثاني في حملتين متعاقبتين (٩٩٢ و ٩٩٤) ومحاصرة حاكم دمشق للمدينة بالذات ، بتسليمها شخصياً في سنة ٩٩٥ . غير ان حملات باسيليوس اللاحقة في سورية فشلت في إضعاف دفاعات الفاطميين ، وتمّ في سنة ١٠٠١ ترتيب السلسلة الأولى من سلاسل الهدنة التي قامت لمدّة عشر سنوات بين الامبراطوريتين . وقام في سنة ١٠٠٩

جيشٌ فاطمي من طرابلس بتأييد ولاية حاكم جديد على حلب ضد الحاكم المحميّ من قبل باسيليوس . وبعد سنوات قليلة كان العرب الكلابيون الذين ازدادوا تململاً كلما ازدادت سلطة الحمدانيين ضعفاً ، قد هبّوا في تمرّد صريح تحت أمرة رئيسهم صالح بن مِرداس . ولكي يصل صالح إلى أهدافه قام بضمّ جهوده إلى مؤيّدي الفاطميين ، فخضعت حلب في سنة ١٠١٦ للمرّة الأولى إلى حكم والٍ فاطمي .

مما تجدر ملاحظتهُ هو ان هذه النجاحات في سورية قد جاءت مطابقة لولاية الحاكم بأمر الله ، الخليفة الفاطمي الغريب الأطوار (٩٩٦ — ١٠٢١) . فقد بدأ الحاكم بأمر الله في سنة ١٠٠٨ ، إلى جانب العديد من الإجراءات المغيظة لرعاياه المسلمين ، حملة اضطهاد دامت سبع سنوات ضد اليهود والمسيحيين ، وصادر ممتلكات الكنائس وأمر بهدمها . ومن بين الكنائس التي جرى تخريبها كنيسة القبر المقدّس (القيامة) في القدس التي جرى هدمها عام عام ١٠٠٩ . أما في سورية ، على الأقل ، حيث قاسى الأهالي من الهجمات الروميّة طيلة خمسين عاماً ، فإن هذا الاجراء كان اكثر الإجراءات حظوة بالشعبية في إدارة الحاكم ، رغم انه قد تبعه أمرٌ من باسيليوس يحظر التعامل التجاري بين الأراضي المصريّة والبيزنطيّة .

وسرعان ما تبدّت هشاشة الفتوحات الجديدة . فالحكومة الفاطميّة كان عليها منذ البداية ان تعالج ثورات عشائريّة مستمرة . وكان أشد رعاياها العرب هيجاناً هم بالذّات تلك القبيلة التي زوّدت الفاطميين بالقسم الاعظم من قواتهم الإضافية : قبيلة بني طيء في فلسطين وشرقي الاردن . فقد ثار هؤلاء الحلفاء السابقون للقرامطة في الأعوام التالية : ٩٨٠ و ٩٩٨ ، ١٠١١ . وتنصّب شيوخها المنتمون لآل جرّاح في كل مناسبة كأمراء مستقلّين على فلسطين ، ثم تخلّوا في المرّة الثالثة عن الفاطميين لصالح خلافة شريف مكّة . وعملوا في الوقت نفسه ، أو بعد ذلك ، ايضاً إلى فتح المفاوضات مع الروم

في انطاكية ، حتى ان ابن الجرّاح بدأ في سنة ١٠١١ م في إعادة بناء كنيسة القبر المقدّس (القيامة) .

واستاء الكلابيون ، من جهتهم ، من الاحتلال الفاطمي لحلب التي اعتبروها مكافأتهم العادلة . فقام زعيم الكلابيين صالح بن مرداس في سنة ١٠١٤ ، وبعد موت الحاكم بأمر الله، بتكوين رابطة من القبائل العربيّة على أساس اتفاق لاقتسام سورية بين الكلابيين في الشمال وبين كلب في الوسط وبني طي في الجنوب ، بينما احتلّ هو حلب . وهزّت الثورة العامة الحكم الفاطمي من خموله . فأرسل الفاطميون جيشاً قوياً من مصر بقيادة قائد تركي هو انوشتكين الدزبري ، لكي يهزم صالح بن مرداس وحلفاءه العرب في الأقحوانة على شاطىء بحيرة طبريا (١٠٢٩) ، وعكفوا على إعادة تنظيم إدارة مستقرّة في الجنوب . وفي تلك الاثناء أعاد الامبراطور البيزنطي فرض الجزية الروميّة على ابن صالح وخلفه في حلب (١٠٣٠) ، وانهمكت القوات الروميّة الخارجة من انطاكية ، يرافقها الطائي الهارب ابن الجرّاح ، في مناوشات مع رجال القبائل في الشمال . فاستولى جورج مانياسس ، قائد جبهة الفرات ، على مدينة الرها (أورفا) عام ١٠٣٢ من الأكراد المقيمين في أعالي ما بين النهرين ، ثم اخضع رجال قبائل نُمير الذين استولوا على حرّان وسروج . وأعاد انوشتكين في العام ذاته فتح المفاوضات مع انطاكية والقسطنطينية ، فتَمّ تعليق الاشتباكات ، لكن توقيع الصلح لم يتمّ إلاّ عام ١٠٣٨ ، وحصل الامبراطور بموجبه على السماح باعادة بناء كنيسة القيامة لقاء مبادرته إلى اطلاق سراح الاسرى المسلمين لديه . أما انوشتكين ، من طرفه ، فقد وافق على الاستمرار في دفع الجزية للروم ، وطرد بني كلب من حلب واعاد احتلال القسم المتبقي من الدولة الحمدانية السابقة .

كان هذا بمثابة الذروة التي بلغتها السلطة الفاطميّة ، وقد أيقظ آمالاً متهوّرة في القاهرة . فالبويهيون في العراق كانت قد أضعفتهم الآن النزاعات الداخليّة

وأوقعت الاختلال في صفوفهم . وأعيد تنظيم « الدعوة » من جديد واستحثّت لبذل جهود جديدة . وكانت بلاد فارس تعجّ بالعملاء (الدعاة) الفاطميين الذين كانوا يكسبون المهتدين للدعوة بين كافة الطبقات في الممالك الشرقيّة . أما التحالفات والأحلاف فلم تنشأ مع الامبراطور البيزنطي فقط ، بل مع امراء جورجيا (الكرج) والاتراك في آسيا الوسطى ، وحتى مع راجا الهندوس في دلهي . لكن عرب الشام تدخّلوا من جديد . وعندما توفي انوشتكين استرجع المرداسيّون حلب بدعم من الروم (١٠٤٢) ، وتمرّدت قبيلة بني طيّ مرّة اخرى في فلسطين فلم يتسنّ إخضاعها للنظام إلا بعد ان تمّ ترحيل العناصر الأشد هيجاناً بينها عقب سنوات قليلة إلى منطقة الدلتا . ولقد تجلّى انعدام التكافؤ بين أهداف الفاطميين الدعاويّة ومواردهم الحقيقية في هذه اللحظة من خلال حادثة البساسيري العجيبة في بغداد . والبساسيري ضابط تركي لدى آخر امراء بويه ، طرده السلاجقة من بغداد عام ١٠٥٥ ، فتوسّل الدعم من القاهرة . وبعد ان تلقّى هديّة كبيرة من المال والسلاح ، دخل بغداد من جديد في كانون الأول سنة ١٠٥٨ وأرغم الخليفة العبّاسي على الاعتراف بمنافسه الفاطمي . لكن الظروف السائدة حينذاك لم تسمح بإرسال الدعم العسكري له من مصر أو الشام ، فأعيد الخليفة العباسي إلى منصبه على يد السلاجقة . وكانت النتيجة الوحيدة التي أسفرت عنها هذه الحادثة هي تشجيع السلاجقة على عدائهم للفاطميين لكي يستغلّوا فرصة اندلاع الفوضى بعنف في مصر خلال هذه السنة ذاتها (١٠٦٠) ، ممّا وضع حدّاً للحكم الفاطمي في بلاد الشام وتركها مشرعة الأبواب أمام هجمات التركمان والسلاجقة(٤).

لم يبق سوى معقل واحد للسيطرة الفاطميّة في بلاد الشام ، إلى جانب المدن الساحليّة بين عسقلان وطرابلس . وكان هذا المعقل هو الطائفة الإسماعيليّة

---

٤ – انظر عن السلاجقة : الفصل الخامس من :
A History of the Crusades Vol. 1.

المنشقّة التي تعرف بالدروز نسبة إلى الداعية الفارسي الدَرَزي الذي أتمّ هدايتهم للمعتقد الجديد بألوهيّة الخليفة الفاطمي الحاكم (بأمر الله)(٥). إن أصول الطقس وأسباب انتشاره ما زال يكتنفها الغموض ، لكن الدعوة الدرزيّة تجذّرت بين الخليط السكاني في المرتفعات الواقعة جنوبي لبنان وانتشرت من هناك إلى المناطق الجبليّة الواقعة بين العاصي وحلب (والمعروفة بجبل السُّماق) ، على الرغم من المحاولات التي بذلها الحكام البيزنطيون واتباع الشيعيّة الفاطميّة « المستقيمة الرأي » لاستئصال شأفتها . فقد سبق للغلوّ الشيعي ان وطّد دعائمه بأشكال متعددة في شمالي سورية خلال القرن السابق . وكانت الطائفة الرئيسيّة بين هذه الطوائف الشيعيّة هي النصيرية التي اكتسب دعاتها ، بحظوة من الحمدانيين ، قاعدة قويّة بين القبائل اليمنيّة المقيمة في جبل بهراء (الذي يعرف الآن ، تبعاً للكتبة ، بجبل انصاريّة) الواقع إلى الجنوب من انطاكية . وربما كان القصد من وراء الطائفة الدرزيّة ان تخدم غرضاً سياسيّاً عن طريق الارتباط مع هذه الجماعات الشيعيّة المتطرّفة في الشمال . غير انه باستثناء الخلاف اللاهوتي فلا يُعرف سوى النزر اليسير أو لا شيء عن العلاقات فيما بينهم خلال هذه الفترة . وعلى أية حال ، فإن الدرزية تراجعت إلى موطنها الأصلي في لبنان ، ولم تلعب سوى دور ضئيل في تاريخ القرون التالية ، باستثناء كونها قد أضافت نوعاً آخر إلى انواع المعتقدات الدينيّة الممثّلة في سورية ، وجناحاً مستقلاً آخر إلى تركيبها السياسي .

وكان السبب الرئيسي للأزمة الداخليّة العصيبة التي لم تدم طويلاً في مصر هو اندلاع التنافس المسلّح بين الأقسام الثلاثة للجيش الفاطمي : البربر والمشاة السودانيون وكتائب الفرسان الاتراك الذين جنّدهم الخلفاء تدريجيّاً في خدمتهم ، وأصبح تعدادهم الآن حوالي ١٠,٠٠٠ . ولمّا كان الخلفاء في بغداد

---

٥ – انظر عن الاسماعيلية : الفصل الرابع من تاريخ الحملات الصليبية ج ١ ، المصدر نفسه .

قد بادروا في القرن التاسع إلى الأخذ بعادة تشكيل كتائب الحرس من اتراك آسيا الوسطى الذين جرى اقتنـاؤهم بالشراء أو كأسرى حرب ، فقـد جعلت الصفات العسكريّة المتفوّقة لهؤلاء الأتراك المماليك بمثابة امر ضروري لكلّ الذين أمسكوا بزمام الحكم المستقلّ أو تطلّعوا إليـه في غربي آسيا ان يحذوا حذوهم ، على الرغم من الأخطار السياسية التي غالباً ما أسفرت عنها هذه الممارسة . فقد توجّب على كل أمير أن يكون له « عسكره » أو فرقته الدائمة من الحراس الاتراك ، يختلف عددها تبعاً لموارده ، فيتراوح بين بضعة آلاف وبضع مئات . لكن « روح التضامن » التي كانت متطورة للغاية عندهم والتي جعلت منهم أداةً عسكرية قيّمة ، تحوّلت ايضاً في ظـلّ الحكام الضعفاء إلى مصدر للخطر ، ممّا أدّى إلى نزاعات مع كتائب من جنسيّات أخرى ، وإلى عصيانات وثورات علنية تحت أمرة القادة الطامحين . وأخذت السلالات الحاكمة والإمارات في غربي آسيا ، الواحدة منها بعد الأخرى ، تعاني خلال القرن العاشر والحادي عشر من هذا العنف لدى قوانّها التركيّة وقد رضخت له في نهاية المطاف .

ولقد أصبحت الخلافة الفاطميّة الآن متورّطة في نزاع من هذا القبيل . فقام الأتراك ، عقب سبع سنوات من القتال تحت أمرة ناصر الدولة الحمداني ، وتحالفوا مع كتائب البربر لكي يطردوا السودانيين إلى صعيد مصر . وتلت ذلك ست سنوات أخرى تعرّض خلالها الريف للخراب على يد الاتراك ، والسودانيين في الجنوب ، وقبائل البربر القادمة من ليبيا في الشمال ، فحوصرت القاهرة ونُهبت . ولجأ الخليفة المستنصر في حالة من اليأس بعد اغتيال ناصر الدولة على يد قواده الاتراك (١٠٧٣) إلى طلب المساعدة من قائده الأرمني بدر الجمالي ، حاكم عكا . فوصل هذا بطريق البحر مع حراسه الأرمن ليفاجىء الاتراك ، واستطاع ان يدخل القاهرة في شهر كانون الثاني سنة ١٠٧٤ وان يقمع القادة الهائجين وجنودهم بحدّ السيف وغير ذلك من الإجراءات العنيفة.

وتمّ على مدى ثلاث سنوات اخرى من الحملات المتواصلة إخضاع السودانيين والبدو والبربر الليبيين للسيطرة ، فتمكّن بدر مع حلول سنة ١٠٧٧ من إنجاز مهمّته في إعادة السلام والاستقرار داخل مصر(٦) .

كانت بلاد الشام خلال هذه الأعوام السبعة عشر متروكة بحكم الظروف لنزعاتها . وتحاربت في دمشق قوات الاتراك والبربر ، أو قاتلت ضد الجند المحليين أو عرب بني كلب ، ولم يستطع أي حاكم من الإبقاء على نفسه وسط الفئات المتنافسة . لقد حاول بدر أن يقوم بالمهمّة مرّتين ، في سنة ١٠٦٤ وسنة ١٠٦٨ ، فطُرد في المرّتين ، ثم انسحب إلى عكا حيث عكف على بناء الحرس الأرمني الذي كان سيحتّل القاهرة بواسطته فيما بعد . وقطع كل من والي طرابلس وصور صلاتهما مع الحكم الفاطمي عام ١٠٧٠ وأعلنا استقلالهما عنه — وذلك يعود من المرجّح إلى أسباب تجارية وسياسية على حدّ سواء ؛ وطغت على هذه الأحداث المحليّة نذائر أشد خطورة . فقد دخلت أول عصابة من التركمان إلى شمالي سورية في سنة ١٠٦٤ لكي تسهم بالنزاع بين الامراء المرداسيين المتنافسين على امتلاك حلب . وتلتها عصابات أخرى تحت أمرة زعماء آخرين . فلما قام بدر الجمالي بمحاصرة صور في سنة ١٠٧٠ ، بادر الوالي الجديد الى طلب النجدة من أحد اولئك الزعماء التركمان ، لكي يرغم المهاجمين على التراجع . وحذا حذوه بدر بالذات عقب زمن قصير . إذ عندما حاول ناصر الدولة ان يحرّض عرب بني طيّ ضدّه ، استدعى عصابة يقودها واحد اسمه أتسيز للوقوف بوجه نشاطاتهم . فكانت النتيجة ان احتلّ اتسيز فلسطين ونهب القدس ، وبعد ان جرى ابعاد بدر الى مصر ، قام اتسيز بمحاصرة دمشق والاستيلاء عليها (١٠٧٥) . وفي العام التالي حاول متابعة نجاحه بالهجوم على مصر ، لكن بدر الجمالي تصدّى له وهزمه في شهر شباط سنة ١٠٧٧ ؛

---

٦ — فيما يتعلق بالحكام اللاحقين لمصر انظر الفصل الرابع من
A History of the Crusades Vol. I, pp. 105 ff.

ثم زحف بدر الجمالي بدوره على دمشق لكنه اخفق في استرجاع المدينة خلال حملتين متعاقبتين . وبعد الحملة الثانية سلّمها اتسيز إلى الامير السلجوقي (تتش) ، لكي تصبح عاصمة الدولة السلجوقيّة في سورية (١٠٧٨) .

وتجنّب بدر منذ ذلك الحين الدخول في أي نزاع مع السلطة السلجوقيّة ، وكرّس نفسه لإعادة تنظيم مصر واسترجاع ازدهارها . فقد قامت الخلافة الفاطميّة طيلة قرن آخر . وذلك بفضل حكومته الحازمة والمنتظمة وحكم ابنه الأفضل شاهنشاه الذي جاء بعده . والحقّ يقال إن إنجازه كان اكثر جدارة بالملاحظة . فالمبادىء العامّة التي أعاد تنظيم الأدارة على أساسها كانت متصوّرة على نحو سليم إلى درجة انها بقيت سارية المفعول على امتداد قرون ، رغم الحروب والثورات والتغيّرات في السلالات الحاكمة . وكانت السمة الأكثر لفتاً للنظر في نظامه هي الجمع بين الحكومة العسكريّة والإدارة المدنيّة . فلم يعد الخلفاء الفاطميون منذ هذا الوقت فصاعداً أو انهم لم يكونوا إلاّ لفترات نادرة وقصيرة، بمثابة الحكام الفعليين للبلاد . فقد قبعت مقاليد السلطة الحاكمة بيد الدكتاتور العسكري المدعو بـ الوزير ، أو السلطان في أوقات لاحقة ، يدعمه جيش يتقاضى قادته أجورهم من الإقطاعات العسكريّة . غير انه بالرغم من بقاء الحكومة العسكريّة على رأس الحكم فقد انشئت إدارة مدنيّة قويّة ، وبسطت هذه الإدارة سيطرتها على التنظيم المالي برمّته ، ومن الجملة على دفع أجور العساكر ، كما ضبطت توزيع الإقطاعات .

وقلما تقلّ عن ذلك جدارة بالملاحظة تلك الثورة التي أحدثها بدر الجمالي وابنه في سياسة مصر الخارجيّة . فسواء تقبّلا الحقيقة القائلة بأن الدولة السلجوقية قضت على كافة أحلام التوسع الاقليمي أم لا ، فإن العمل العسكري الوحيد الذي قاما به خارج مصر كان استرجاع قواعدها البحريّة في عكا وصور وغيرهما من الموانىء (١٠٨٩) ، وإقامة رأس جسر دفاعي في فلسطين . ولدى

اقتراب الصليبيين أُعيد تحصين صور وصيدا مثلما تمّ الاستيلاء على القدس مجدّداً في سنة ١٠٩٨ من الزعماء التركمان الأرتقيين الذين تولّوها كإقطاعة سلجوقيّة . أما الافتراض القائل بأن الأفضل حاول التفاوض مع الصليبيين على تقسيم سورية فتدحضه الحقيقة القائلة إن مبعوثي الفرنجة الذين ذهبوا إلى القاهرة في تلك السنة قد أُلقي بهم في السجن . والاحتمال الأكثر ترجيحاً هو انه رأى في إقامتهم بشمالي سورية فعلاً موازياً ونافعاً للوقوف بوجه أطماع السلاجقة (٧) .

ولقد أُعيد تشكيل مصر في الواقع ، فأصبحت مملكة شديدة التماسك تتمتع باكتفاء ذاتي ، بعد أن كانت منصّة الوثوب المنشودة لإقامة امبراطوريّة شيعية جامعة . ومع ان الأحزاب المعارضة للسلاجقة في بلاد الشام قد استمرّت على اعترافها بالخلافة الفاطمية ، فلم تقم أي محاولة جدية للاستفادة من ولائها الديني من أجل غايات سياسية . والحقّ يقال إن بدر الجمالي والأفضل حاشا لهما هذا الأمر حتى انه ليبدو عليهما تقريباً انهما قد تعمّدا نسف تنظيم الدعوة الفاطميّة بكامله ، باستثناء اليمن . وكان مبدأً اساسياً من مبادىء العقيدة الاسماعيليّة في أن ينتقل المنصب الروحي الذي توارثه المتحدرون من علي في خطّ مباشر ، من الآباء إلى الأبناء بواسطة التعيين الصريح . فهو قد انتقل حتى الآن وعلى الدوام إلى الابن الأكبر أو إلى اكبر الابناء الذين على قيد الحياة . وهكذا فإن نزار ، الابن الأكبر للخليفة المستنصر ، جرى اعتباره في الدعوة بمثابة خليفته المُقَرَّر ، وربما تكون مبايعته قد تمّت بهذه الطريقة . كما سبق لدعاوة عنيفة في النضاليّة وبهذا المفهوم ان أحرزت نجاحاتها الأولى في بلاد فارس بتأسيس حركة « الحشاشين » الجديدة . غير ان الأفضل اعترف ، لدى وفاة

---

٧ – لكن راجع بشأن هذا الموضوع الفصل العاشر من

A History of the Crusades Vol. I, pp. 315 – 316

المستنصر سنة ١٠٩٤ ، بأصغر ابنائه خلفاً له ، وأعطي هذا لقب المستعلي ، بينما سُحقت ثورة نزار في الاسكندريّة .

ويكاد يتعذر الافتراض بأن حاكماً كان على هذا الجانب من الذكاء كالأفضل ولم يكن مدركاً بأن نتيجة هذا العمل سوف تؤدي إلى شق الدعوة الفاطميّة إلى قطاعين متنافسين ، وبأن القطاع الشرقي المتطرف في غلوّه سوف يؤيّد دعوى نزار . لذا لا يسعنا سوى الظنّ بأنه من بين الاسباب الكامنة وراء عمله كانت هناك رغبة في تنصيل الخلافة الفاطميّة بمصر من النشاطات الإرهابيّة التي سبق للحشاشين ان بدأوا يمارسونها ، وبالتالي تجنّب الدخول في نزاع مع السلطة السلجوقية ، التي لم يكن بمقدوره طبعاً التنبؤ مسبقاً بانهيارها الوشيك(٨). وسواء كان هو بالذات سنيّاً حنيفاً ، كما يؤكد المؤرخ الدمشقي المعاصر ، فمن الجلي ان العناصر الأكثر غلوّاً بين الاسماعيليين نظرت إليه بعداء مرير ، وهي التي دبّرت مكيدة موته في نهايـة الأمر . لكن يبدو ، من جهة ثانية ، انه أولى اهتمامه لتعزيز الجناح المستعلي والدعوة المستعلية في اليمن .

ويستطيع هذا التناقض الظاهر أن يقوم بإلقاء مزيد من الضوء على سياسة بدر الجمالي والأفضل . فالعلاقات بين الفاطميين واليمن ترجع ، كما سبقت الإشارة، إلى ما قبل إنشاء الخلافة الفاطميّة . لكنّها اكتسبت منذ اواسط القرن الحادي عشر أهميّة جديدة . فقد بدأت حوالي هذا الوقت التجارة البحريّة في المحيط الهندي — وهي التي سارت قبل الآن عموماً بطريق الخليج الفارسي — في أن تتخذ لنفسها على نحوٍ متزايد الطريق المارّة بعدن والبحر الأحمر ، حيث كان تفريغ البضائع يتم في مرفأ عيذاب على الشاطىء الافريقي ثم تُنقل الى النيل .

---

٨ — تجدر الملاحظة هنا بانه حتى في ظل الخلافة الفاطمية كان الإسلام السني لا يزال متمتعاً بتبعية قوية في مصر ، ولا سيما في الاسكندرية ، على ما يبدو .

ولقد حدث ذلك بفضل الوضع المضطرب في فارس والعراق ، والاستقرار النسبي في مصر (٩) . ثم يبدأ في هذه الفترة نفسها ، أي في النصف الثاني من القرن الحادي عشر ، التوثيق للعلاقات التجارية بين الاسكندرية وبين امالفي وجنوى . إن الصلة بين هذه الحقائق جليّة ، ومن المؤكّد أن ملاحظتها لم تفت على حكام مصر . فالشيء الأكيد أنهم نشطوا في تشجيع التجارة مع المدن التجارية الإيطالية بمنح براءات الحماية لتجار تلك المدن ، وهذا الأمر لا تؤيده الأدلّة المجتزأة التي ما زالت باقية عن السنوات الممتدة من ١٠٧٠ إلى ١١٢٠ فحسب ، بل تدعمه الوثائق العائدة للعقود التالية وهي وثائق لا تقبل الجدل . وهكذا فقد أسهم وجود تلك العلاقات التجارية كما أسهمت تنميتها في ازدهار مصر الاقتصادي واكتفائها الذاتي من جهة وأثبطت عزيمة حكامها عن القيام بنشاطات حربيّة من شأنها تعكير صفو العلاقات من جهة ثانية . ولم يحصل ذلك إلا في فترة متأخرة ، وعندما كانت التجارة المصريّة قد اصبحت مؤسّسة ثابتة الأركان ، إذ استطاع صلاح الدين — كما سنرى لاحقاً — ان يستغلّ تلك العلاقات كأداة في صراعه مع الفرنجة في بلاد الشام .

يجب ان يتضّح من هذا العرض بأن هناك تبريراً ضئيلاً للنظرة التي تصوّر النزاع بين الاسلام السنّي ، أو أنصار الخلافة العبّاسية ، وبين الشيعة الذين أيّدوا الخلافة الفاطميّة ، فتعتبر هذا النزاع بمثابة السبب الرئيسي أو الأوّلي للضعف أو الشقاق الذي ساد العالم الإسلامي زمن الحملة الصليبية الأولى. فمن الصحيح ان الانقسام كان موجوداً ، وان السلاجقة ، كما سنبيّن في فصل لاحق ، جعلوا هدفهم المُعلَن في إعادة توحيد الإسلام كلّه تحت راية الولاء للعباسيين(١٠) لكن الاختلاف الطائفي لم يكن ، حتى بعد استتباب الأمر للسلاجقة ، في

---

٩ — مما يسترعي الانتباه في هذا الصدد ان الفاطميين كانوا يسيطرون على اتباع لهم على شواطىء كرمان وبلوخستان ، كما في السند وشجرات .

١٠ انظر الفصل الخامس من المصدر السابق ، ج ١ .

الصميم من النزاعـــات السياسيّة والعسكريّـة التي استمرّت في تمزيق آسيا الغربية الى شبكة من الدويلات المستقلة،وأقلّ من ذلك كله في بلاد الشام. لقد كان السبب الأساسي هو الروح الاقليمية والتحاسد الشخصي والمحلي ، وهذا مما اتاح الفرصة أمام الامراء والحكام والقادة الطامحين لتحقيق التعظيم الشخصي ، وأدّى بالتالي إلى انعدام الاستقرار في كل بنيان سياسي وجعله محتوماً بالانتهاء إلى التمزّق ، بعد زوال العوامل الزمنيّة التي أخرجته إلى حيّز الوجود .

وعلاوة على ذلك ، لم تُعتبر مسألة الولاء السنّي أو الشيعي في هذا الجوّ من السياسة الواقعية (realpolitik) اكثر من مجرّد صيغة ديبلوماسيّة فحسب، بل حتّى ان التمييز بين الدين الإسلامي والمسيحي — في شمالي سورية ، على الأقلّ كان قد افتقد الكثير من حدّته السابقة . ويبدو على العلاقات بين المسلمين والمسيحيين في أعقاب الانفجار العـــابر للمشاعر على زمن الحاكم بأمر الله أنها قد أصبحت ليّنة بشكل ملحوظ ، وقد جرى في ظلّ حماية المعاهدات البيزنطيّة اقبال نشيط على التجارة والاختلاط بين الروم والسوريين . ثم أخذت الإمارات المسيحية مع إنشاء الحكومات البيزنطيّة في انطاكية والرها تحتلّ مكانها في الإطار السياسي العاديّ لكلّ من سورية وما بين النهرين ، ولم يقم التساهل حيال المحميّات المسيحيّة على حلب واجزاء من سورية الداخليّة فحسب ، بل جرت المطالبة بها فعلاً بين الفينة والفينة للوقوف ضد الأخصام المسلمين . لقد تخالط المسلمون والمسيحيون بعضهم مع بعض ، ولا سيّما بعد الهجرة الارمنية الكبرى إلى شمالي سورية . وبسط المسيحيون حكمهم على المسلمين ، كما بسط المسلمون حكمهم على المسيحيين ، دون حصول احتكاك جدّي من أي جانب . وخدم الروم والأرمن في الجيوش الإسلاميّة ، مثلما حارب المسلمون ضد المسلمين تحت أمرة قادة من الروم . كانت هذه هي الحقائق التي قرّرت اللامبالاة النسبيّة من جانب الأمراء المسملين تجـــاه الصليبيين اللاتين لدى وصولهم الأول إلى سورية . فاحتلالهم لكلّ مـــن

انطاكية والرها لم يفعل أكثر من مجرّد إرجاع الوضع إلى سابق عهده ؛ حتى ان فتح القدس وتنظيم المملكة اللاّتينيّة لم يثر سوى مخاوف قليلة ، إذ جاء ليقيم – كما أقام بالفعل – فاصلاً بين مصر وسورية الداخليّة .

لذا فقد كان القصد من الهجوم المصري المضاد هو في الدرجة الأولى الدفاع عن المدن الساحلية (الثغور) . مع ان الأفضل ربّما كان يأمل للوهلة الأولى في الحيلولة دون سقوط القدس بأيدي الفرنجة . وممّا تجدر ملاحظته ان يافا قد استولى عليها الجنويون حتّى قبل حصار القدس وان الهدف الرئيسي لسياسة « بالدوين » خلال السنوات الخمس الأولى من حكمه كان يقضي بالاستيلاء على الموانىء البحريّة ، ولا سيما على مرفأ عكّا اكثر من سواه . وكون هذا الأمر قد حدّد الهدف العسكري للمصريين يبدو واضحاً من استراتيجيّة حملاتهم ، كما كانت عليه تلك الاستراتيجيّة ، في الاعوام التالية : ١١٠١ و ١١٠٢ و ١١٠٣ و ١١٠٥ . لكن هنا ايضاً ، ينبغي لنا على الأرجح ألا نرى في هذا الهدف الرغبة في الدفاع عن ممتلكاتهم الاقليميّة بقدر ما هي الرغبة في الحفاظ على مزاياهم التجاريّة ، وقبل كل شيء في الحيلولة دون حصول الفرنجة على مدخل مباشر إلى تجارة البحر الأحمر المُربحة (١١) .

لم يحسب الأفضل حساباً لتدخل اساطيل جنوى والبندقيّة ، فجاء سقوط الموانىء البحريّة واحداً تلو الآخر ليرغمه بعد مدّة قصيرة على اتخاذ نظرة اكثر جديّة للوضع . وكان من الضروري الاحتفاظ بعسقلان ، على الأقلّ ، لأسباب استراتيجيّة وتجارية . فقد برزت أهميّتها كقاعدة تجارية للفرنجة من خلال الحقيقة القائلة ، فيما لو صدّقنا اكهارد ، بأن غودفرى سبق لـــه وعقد معها معاهدة تجاريّة ، كما فعل مع دمشق ايضاً . وبناء على ذلك ، فقد

---

١١ – فيما يتعلق بسياسة الفرنجة عند هذا الوقت ، انظر الفصلين العاشر والثاني عشر من المصدر نفسه ، ج ١ .

عمد الأفضل ، عقب فشل الحملات السابقة ، إلى فتح باب المفاوضات مع طغتكين صاحب دمشق من أجل القيام بعمليّات مشتركة عام ١١٠٥ . كما يبدو ان فشل هذه المحاولة قد أقنعه بعدم جدوى السير في سياسة هجوميّة تجاه الفرنجة ، فاكتفى منذ هذا الحين فصاعداً بتأمين الدفاع عن عسقلان برّاً وبحراً، باستثناء الغارات التي شنّها عساكر الحاميات بين الحين والحين . وحتى لأجل هذا الغرض ، فانه كانت للتحالف مع دمشق اكثر من مجرّد قيمة ديبلوماسية . ولذا فقد أذعن الأفضل لاحتلال صور على يد طغتكين ، وذلك عقب نجاته بمشقّة في عسقلان سنة ١١١١ وعندما راح أحد الولاة المتمرّدين يفاوض على تسليمها إلى بالدوين (بغدوين) . مثلما أذعن مرّة ثانية إثر الغارة الصليبيّة على مصر وهي الغارة التي توفي بغدوين خلالها (شهر نيسان ١١١٨) ، وذلك عندما اشترك الجيشان المصري والدمشقي في تظاهرة عسكرية بالحرب خارج عسقلان. غير انه لا هذه العمليات المتقطّعة ولا المحاولة الأكثر اندفاعاً من جانب حكومة مصر لتنظيم حملة مشتركة ضد الفرنجة بعد اغتيال الأفضل في سنة ١١٢١ ، لا هذه ولا تلك قد انطوت على أي تحطيم للحواجز الحائلة دون قيام التعاون . وكان على الهجوم المضاد للحملات الصليبيّة ان ينتظر ويعتمد على الخدمة التي يسديها إليه نموّ وحدة نفسيّة او روحيّة لها من القوّة ما يكفي للتغلّب على عقبات الإقليمية والمصلحة الفرديّة ، وللإبلال من الآثار المتبقيّة عن الانشقاق الديني .

***

الفصل الثاني

تاريخ دمشق *

لقد لاحظ المؤرخون عموماً غياب السجلات العربية المعاصرة للحملة الصليبيّة الأولى ونتيجتها المباشرة ، مع ان هناك إقراراً من جانبهم بأن ابن الأثير والمصنفين العرب اللاحقين لا بدّ وانهم قد استخدموا في أعمالهم مواداً معاصرة . غير انه تبيّن لبضع سنوات خلت ان إحدى المخطوطات العربيّة المحفوظة في مكتبة بودليان (Hunt. 125) تحتوي على مؤلّف ابن القلانسي الذي افترض ضياعه : « ذيل تاريخ دمشق » ، وهو أثر يقتبس منه كتّاب متأخرون مراراً ، لكنّه قد جرى اعتباره كتاباً يتناول فترة لاحقة للحملة الصليبيبة الثانية وأظهرت دراسة المخطوطة بأن ما يزيد على ثلثي الكتاب مكرّس لتاريخ السنوات الستين الأولى من الحروب الصليبيّة . فقام المستشرق الراحل ه.ف. امدروز ، إدراكاً منه لأهميّته ، بتحرير النص ونشره في سنة ١٩٠٨ ، مع تلخيص لمحتوياته ، وإضافة لحواشيه ، ومنتخبات مستخرجة من مصادر اخرى غير

---

* انظر المنتخبات التي استخرجها وترجمها كاتب هذه المقالات بالاستناد إلى كتاب المؤرخ الدمشقي ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق

Gibb, **The Damascus Chronicle of the Crusades,** (Luzac: London, 1932).

منشورة . ويبدو . بسبب انعدام الترجمة ، ان استعادة هذا التاريخ مرّت دون التفات من جانب المؤرخين الأوروبيين ، فالمنتخبات التي يضمّها المجلّد الحالي تولّف المحاولة الأولى لوضع الكتاب في متناول الباحثين الغربيين .

يتعذّر استخلاص أي شيء عن مؤلّف « ذيل تاريخ دمشق» من الأثر نفسه . غير انه لحسن الحظّ يمكن العثور على نبذات قصيرة ولكنها كافية عن حياته في كلٍّ من معجم السيرة الذي صنّفه معاصره الأصغر سنّاً ابن عساكر وأورد فيه تراجم أعيان دمشق (والمقصود هنا : تاريخ دمشق لابن عساكر الدمشقي) وفي الصفحات التي خطّها العديد من المؤرخين اللاحقين ، بفضل عادتهم الورعة في اختتام حوليّات كل سنة بتراجمات موجزة للأعيان المتوفين خلال مجراها .

هو حمزة بن أسد ، يُعرف بـ أبي يعلى ، وقد انتمى إلى أسرة دمشقيّة عريقة ومحترمة ، كانت تفاخر بنسبها المتحدّر من قبيلة تميم العربية وحملت كنية « القلانسي » (من القلنسوة) . تلقّى ، على غرار معظم ابناء الطبقة العليا ، ثقافة واسعة في الأدب والفقه وعلوم الدين والشريعة ، ودخل في سلك الخدمة العامّة كاتباً في ديوان الرسائل ، ثم ارتفع على ما يبدو الى منصب عميد في الديوان . وبالإضافة إلى ذلك ، تولّى أعلى منصب مدني في دمشق (رئاسة المدينة فكان رئيساً للمدينة أو محافظاً، علماً بأن الوظائف الدقيقة المنوطة بهذا المنصب ليست واضحة تماماً في نظرنا. كذلك تولّى المنصب نفسه ابن اخيه في سنوات لاحقة (عام ٥٤٨ هـ. وفي النص العربي ص ٣٢٥) . توفي ابن القلانسي يوم الجمعة في ٧ ربيع الأول ٥٥٥ هـ. (١٨ آذار ، ١١٦٠ م) ، وكان عمره يناهـز التسعين ، بينما توفي اخوه الأكبر محمد قبله في كانون الثاني سنة ١١٤٥ وله من العمر أربعة وثمانون عاماً (هذه الأعمار هي بالطبع محسوبة وفقاً للسنة القمرية) لذا فإنه كان قد بلغ سنّاً ناضجة عندما نزلت الحملة الصليبية الأولى على بلاد

الشام . ومع انه لا تبدو عليه المشاركة بأي دور في القتال الفعلي ، فإن كتابه « ذيل تاريخ دمشق » يستأثر باهتمام استثنائي لكونه يقدّم رواية معاصرة لمصائر الصليبيين ، بقدر ما وصلت أخبارهم إلى مسامع دمشق ، منذ بداية الحملات الصليبيّة حتى سنة وفاته .

ويبدو ان « تاريخ دمشق » هو الأثر الأدبي الوحيد الذي قام بتأليفه ابن القلانسي ، إلى جانب أشعاره التي يستشهد بكثير منها . كما يدلّ تأليف الكتاب وعنوانه — ذيل أو مُذَيَّل تاريخ دمشق — على ان المقصود به هو ان يكون تتمّة لتاريخ أسبق ، أي لكتاب المؤرّخ الشهير هلال بن المحسّن الصابي . بحيث يبدأ من النقطة التي انقطع عندها كتاب الصابي بوفاة مؤلّفه عام ٤٤٨ للهجرة (١٠٥٦ م) . ومن جهة ثانية ، فقد جاء تاريخ هلال الصابي جامعاً في نطاقه ، بينما تتركز تتمّة ابن القلانسي (بالإضافة إلى المنتخبات التي استخرجها من عمل أسبق وقدّم بها للذيل) على مدينة دمشق ولا تتناول الأحداث الجارية في مناطق أخرى إلاّ بصورة عرضية .

وعلى الأرجح ، فإن التسهيلات التي قدّمتها له صلاته الرسمية هي التي قادته إلى هذا العمل ، علماً بأن الفترة الكاملة التي يتناولها تغطّيها حياة ابيه وحياته هو . فالمعلومات التي يعطيها مستقاة من أخبار شفهيّة ومكتوبة ، ومأخوذة احياناً عن ألسنة المشتركين الفعليين . وربما يجدر بالملاحظة انه قلما يستشهد بالوثائق ، رغم ان العديد من رواياته يعطي دون شك زبدة المواد الوثائقيّة . لقد جرى تدوين معظمها على ما يبدو ساعة تلقّيها ثم أخضعت للتنقيح فيما بعد ، كما يتضّح ذلك من إشارات عديدة في النص ، مثل الاستعمال المتكرّر لصيغة المضارع ولا سيّما في الأقسام الأخيرة . ثمة حَسَنة جليّة ينطوي عليها كتابه بالتالي وهي الدقّة في تسلسله الزمني للأحداث . وفيما عدا ذلك ، فهو نفسه يشرح طريقته في التصنيف في ذيل يحمل تاريخ عام ٥٤٠ هجري (صفحة ٢٨٣ من النصّ العربي) ، بقوله :

« لقد أتممت رواية الأحداث المُبَينة في هذا التاريخ ، وقمت بترتيبها في تسلسل واحترزت ضد الخطأ والتسرّع في الحكم والهفوات الطائشة في المواد التي دوّنتها عن ألسنة اشخاص موثوقين ، ونقلتها بعد تكبيد النفس مشقّة القيام بتحرّيات واسعة لكي تتحقق صحتّها ، نزولاً حتى هذه السنة المباركة ٥٤٠ . ومنذ سنة ٥٣٥ وحتى هذا التاريخ كنت منهمكاً بمسائل شرّدت ذهني عن القيام بإجراء تحقيقات شاملة في تلك الأحداث الراهنة التي تطلّب تدوينها في هذا الكتاب ، وعن البحث عن الحقيقة المتصلة بها وكافة الظروف الملازمة لها . وعليه ، فقد تركت فراغاً بعد حوادث كل سنة ، لكي أضيف فيه تلك الروايات والأحداث التي ثبتت صحتّها .

وتتبدّى أهمية « تاريخ دمشق » بالنسبة لتاريخ الحملات الصليبية الباكرة في جلاء من حقيقة كونه قد شكّل مصدراً من المصادر الأوليّة لكافة المؤرخين العرب اللاحقين . فاستشهد به على نحو واسع كلٌ من سبط ابن الجوزي وابن الأثير في تواريخهما العامّة ، وابو شامة في كتاب سيرته عن نور الدين ، إلى جانب العديد من الكتاب المتأخرين . وبما ان أعمال جميع هؤلاء المصنّفين تُرجمت واستخدمت من قبل المؤرخين المحدثين للحروب الصليبيّة ، فهناك القليل من محتوياتها ممّا هو جديد كل الجدّة . ويقدم هذا الكتاب في حدّ ذاته أيضاً نظرةً من طرف واحد للحملات الصليبيّة ، لأن اهتمام الكاتب تركّز على دمشق ، ولذا فهو يكرّس اهتماماً لمملكة القدس المجاورة اكثر بكثير من اهتمامه بالصراع الدائر بين الدويلات الصليبيّة الشماليّة وبين إمارات حلب والموصل . فمن الضروري لهذه الناحية من الحروب الصليبيّة ان يصار إلى إلحاق تاريخه بـ « تاريخ حلب » لكمال الدين »[1] ، الذي يستشهد حرفياً

١ – ان الترجمات الفرنسية لذلك القسم من هذا الكتاب الذي يتناول الحملات الصليبية الأولى يمكن العثور عليها فيما يلي :

(a) **Receuil,** Hist. Or., III

(b)de Sacy in Rôhrichts **Beitrâge zur Geschichte der Kreuzzûge,** Vol. I (1874) ;

(c) Defrémery in **Mélanges d'histoire Orientale,** Paris, 1854

بابن القلانسي في بعض الأحيان ، لكنه استند في روايته إلى مصادر محليّة مستقلّة(٢).

ومع ذلك فإن العمل الأصلي لابن القلانسي ما زال يحوي الكثير من المادّة التي لم يستعن بها المصنفون المتأخرون ، كما ينطوي على العديد من المزايا الذاتية ، ممّا سيجعله مصدراً لا غنى عنه لجميع دارسي الحملات الصليبيّة الباكرة في المستقبل . فهو يجعل من الممكن ، مثلاً ، ان يجري للمرّة الأولى تتبّع للتصلب الذي اعترى الشعور الإسلامي ضد الصليبيين ، والمراحل التي تمّ بها قهر التحاسد المتبادل لدى أمراء المسلمين بواسطة الانفعال المتصاعد بين الشعب ، هذا الانفعال الذي وجد تعبيره في ظلّ حكم نور الدين وبلغ ذروته في الانتقام العظيم تحت راية صلاح الدين . ففي كتابات الجيل المعاصر لصلاح الدين ، وحتى لدى واحد مثل اسامة بن منقذ ، الذي عاش خلال الفترة الأسبق لكنّه دوّن « مذكراته » في مرحلة متأخرة من حياته ، نجد هذا التطور معمياً . وهذه الحقيقة هي التي تبرّر الإدراج في هذه المختارات لما يبدو بطريقة أخرى الحيزّ المفرطّ الذي يجري تخصيصه لسجلّ التاريخ الداخلي لمدينة دمشق وعلاقاتها مع الدول الإسلامية الأخرى . وعلاوة على ذلك، فهناك أحداث كثيرة يقدّم «تاريخ دمشق» بالنسبة لها مادّةً جديدة . وسوف يمكن العثور على أمثلة بارزة في الروايات الحيّة لحصار صور خلال شتاء(١١١١—١١١٢) (انظر الفصل الخامس) لنشاطات « الحشاشين » الباكرة (ص ١٨٧ وما بعدها) . فالعلاقات الوثيقة التي ما زالت قائمة ، كما يبيّن ابن القلانسي ، بين دمشق والبلاط الفاطمي في مصر أتاحت له ايضاً إعطاء روايات كاملة

---

٢ — ان الثقة المعاصرة لكمال الدين بالنسبة لتاريخ الحملات الصليبية الباكرة كانت في الأرجح كتاب حمدان بن عبد الرحيم الأثاريبي (توفي ١١٥٩م) : « سيرة الأفرنج الخارجين إلى بلاد الإسلام » .

وقد ذكره ابن ميسر . انظر :

Annales d'Egypte, ed. H. Massé (Cairo, 1919), p. 70, 6 – 7.

تقريباً للنشاطات المصريّة المتقطّعة ضد الصليبيين . وفضلاً عن ذلك ، فإن الرواة المتأخرين عادة ما اختصروا رواياته إلى درجة كبيرة ،فحذفوا بعملهم هذا العديد من التفاصيل التي تحظى بالقيمة لدى المؤرّخ الحديث . كانت التفاصيل التي حُذفت بتلك الطريقة هي ذكر اليوم المحدّد من الأسبوع ، وهو وهو ما يحرص ابن القلانسي عموماً على إدراجه إلى جانب تواريخه ، وله أهميّة خاصّة في تعيين التسلسل الزمني الدقيق إذ يزوّدنا بضابطٍ للتحقّق من أخطاء الناسخين .

ومن الجهة الثانية ، فإن « تاريخ دمشق » ينطوي على صعوبات بحدّ ذاته ، لا سيما بالنسبة لكل من اللغة والأسلوب . وفي النهج الديبلوماسي الصحيح غالباً ما يواري ابن القلانسي معانيه خلف مجموعة من الألفاظ والعبارات الغامضة ، مما يجعل من الصعب استخلاص المغزى الدقيق لكلماته . تتعزّز هذه الصعوبة بالنسبة للدارس الحديث عن طريق الغرائب في ذخيرته اللغويّة . فاستعمالات الكثير من الألفاظ هي على ما يبدو مميّزة للأسلوب الشامي في زمانه ، إذ بينما تُلقي « مذكرات » أسامة بن منقذ ، وهو المؤلّف السوري الوحيد غيره عن هذه الفترة والذي ما زال عمله موجوداً فعلاً ، شيئاً من الضوء عليها بين الحين والحين ، ففي معظم الحالات لا يمكن استخلاص معناها إلا بطريق استنتاجه من القرينة . ثمة عدد من هذه الألفاظ والعبارات العربيّة يؤتى على ذكره في الحواشي ، على أمل بأن يتمكّن آخرون من تصحيح التفسير الوارد في النصّ فيما لو تبيّن انه مغلوط . وفضلاً عن ذلك ، تنطوي إعادة بناء نص استناداً إلى مخطوطة مفردة ، كما هو معروف جيّداً ، على أخطار في جميع اللغات ، وفي اللغة العربيّة اكثر من اية لغة أخرى . هناك قراءات عديدة محرّفة على ما يبدو بجلاء ، والمنتخبات المستخرجة من « التاريخ » في الآثار اللاحقة لا تقدّم مساعدةً ذات بال في تصحيحها ، لأن معظم الفقرات المعنيّة قد حذفها المصنّفون . فلو ظهرت تصرّفات غير

ملائمة بالنصّ ، لما تسنّى الدفاع عنها إلا بالقول إن النصّ بدون مثل هذه التنقيحات إمّا انه لا ينطوي على أي معنى أو انه انطوى على معنى خاطىء بصورة جليّة ، وحيثما أمكن إخضاع التنقيحات لامتحان في مقارنتها بالمنتخبات التي يوردها الكتاب المتأخرون ، فقد تبيّن على العموم ان لهـا ما يبرّرها .

وبما ان هذه الصيغة يُقصد بها في المقام الأول ان تكون كتاباً للدارسين ، فقد جعل المترجم هدفه ان ينقل النصّ العربي بحرفيّته على قدر الإمكان ، دون ان يضيف إلى كلمات المؤلّف وترتيبه أو ينقص منها . وللسبب نفسه ، فقد جرى الاقتصار على الحدّ الأدنى من تعليق الحواشي ، ولم تجرِ محاولة للربط بين روايات القلانسي وروايات التواريخ العربيّة الأخرى أو المصادر الغربيّة . فالذين يألفون اكثر من غيرهم العثرات التي تكتنف طريق ترجمة أولى لنصّ عربي سوف يكونون عـلى الأرجح هم الأكثر استعـداداً للنظر إلى نواقصها بعين التساهل ، وأيّة تصحيحات أو ملاحظات قد يتفضّلون بنقلها وإبلاغها سوف تلقى الترحيب .

بلاد الشام على زمن الحملة الصليبية الأولى :

ثمة حقيقة يتقبّلها جميع المؤرخين المحدثين وهي ان الفضل في نجاح الحملة الصليبيّة الأولى يرجع بمقدار كبير إلى ضعف المعارضة التي واجهتها . فالتعقيد الذي اكتنف الوضع السياسي في بلاد الشام عند نهاية القرن الحادي عشر وخلال العقود الأولى من القرن الثاني عشر ، وهو تعقيد كاد يصل إلى شفير الفوضى تقريبـاً، يؤلّف عنصراً ذا أهميّة رئيسيّة في تاريـخ الحملات الصليبيّة. وهو لم يجعل مهمة الغزاة أقلّ هولاً بكثير مما كان مقدّراً لها قبل بضع سنوات سابقاً فحسب ، بل اسهم ايضاً ، إلى حدّ بعيد في إذعان الامراء الشاميين لقيام الدويلات الصليبيّة ، بما ان الانقسامات السياسيّة الناتجة عن ذلك سارت

على العموم في خطوط تقليديّة . إن التقدير التام لهذه الظروف يضع الدارس الحديث أمام صعوبات بالطبع ، لا سيما متى كان هذا الدارس غير ملمّ بخلفيّة التاريخ الشرقي التي عُرضت إزاءها دراما الحروب الصليبيّة . ويؤلف التحليل المفصّل للاوضاع في بلاد الشام عند هذه الفترة تمهيداً ضرورياً لدراسة المصادر العربيّة .

كانت هناك حينئذ ستّ قوى مميّزة ومشتبكة في نزاع الواحدة منها مع الأخرى في بلاد الشام . هذه القوى هي التالية : ١ ـ الامبراطورية الفاطميّة ، ٢ـ القبائل العربيّة المحليّة والأمراء العرب المحليّون ، ٣ ـ الامراء التركمان السلاجقة ، ٤ ـ الأمراء أو القادة العسكريون الأتراك ، ٥ ـ القبائل التركمانيّة المستقلة أو غير السلجوقيّة ، و ٦ ـ الهيئة العامّة من السكان . وسوف يكون في الأرجح اكثر عوناً أن يجري تناول كل من هذه العناصر على حدة ، ثم اتّباع تسلسل زمني صارم للأحداث .

(١) ـ كانت الخلافة الفاطمية ، التي أقامت نفسها في شمال افريقيا وغربيها عام ٩٠٩ ثم نقلت مقرّها إلى مصر عام ٩٧٢ ، تؤلف تحدّياً متعمداً للرئاسة الدينيّة في العالم الإسلامي والتي ادّعاها الخلفاء العبّاسيون في بغداد . ولكي يؤكد الفاطميون على ادعائهم في بغداد بالذّات ، لزمهم ان يحتفظوا بسورية ، فعملوا منذ استيلائهم على مصر إلى جعل هذا الأمر بمثابة هدفهم الرئيسي ، وحاولوا تحقيقه بمساعدة قوات البربر من اقاليمهم الافريقيّة أولاً ، وفي وقت لاحق بواسطة جيوش الاتراك المماليك . غير انهم واجهوا مقاومة مريرة في بلاد الشام ، لأسباب لا تعود إلى العقيدة الدينيّة(٣) بقدر عودتها إلى طموح

---

٣ ـ كانت عقيدة الفاطميين الشيعية الباطنية للاستهلاك الخاص. فالممارسة الرسمية لدى امبراطوريتهم لم تختلف كثيراً عن ممارسة السنيين الحنيفين ، وفي المسائل الدينية كانوا كقاعدة شديدي التساهل . إن النقطة الرئيسية المتنازع حولها كانت سياسية ، أي انها تناولت حق بيت علي في الخلافة ضد حق آل العباس .

الامراء العرب الشاميين في المحافظة على استقلالهم . وبين عامي ١٠٣٨ و١٠٥٨ أصبح سلطانهم نافذ المفعول اخيراً في كافة انحاء بلاد الشام (ما عدا انطاكية التي تولاّها الروم) وجرى الاعتراف به ايضاً في غربي ما بين النهرين . حتى انه في السنة الثانية (١٠٥٨) حظي سلطانهم بالاعتراف من جانب بغداد ، وذلك بفضل النجاح المؤقت الذي أحرزه تابع متمرّد من اتباع الحكومة العبّاسية . لكن نفوذهم منذ هذه اللحظة أخذ ينهار باستمرار ، ولا سيما عقب أزمة اقتصادية وعسكريّة طويلة الأمد في مصر (١٠٦٢—١٠٧٣) إذ جرّدتهم هذه الأزمة من وسائل الحفاظ على سلطتهم . فضاعت حلب أخيراً عام ١٠٦٠ ، وسقطت كل من طرابلس وصور بأيدي حكام محليين ، ولم يتمكن حكام دمشق من الحفاظ على انفسهم بوجه اللاّانضباط العسكري ، كما أدّى ظهور الجيوش التركمانيّة في بلاد الشام سنة ١٠٧٠ ليس فقط إلى ضياع دمشق نهائياً ، بل وإلى ضياع القسم الأكبر من فلسطين (ومن جملتها القدس) ايضاً .

وتسبّب سوء حكم القائد التركماني الأول في إحداث تحوّل عام مفاجىء في الشعور الشعبي لصالح الفاطميين ، لكن الفرصة السانحة لم يتبعها عمل عسكريّ فعال . جرى شنّ حملات متقطعة ضد الداخل ، لكنها لم تسفر عن أية نتائج . ومن جهة ثانية ، كان المصريون لا يزالون أقوياء في البحر ، لذا نجحوا في استرجاع المدن الساحلية (١٠٨٩) حتى جبيل شمالاً ، وفي الاحتفاظ بها إلى حين مقدم الصليبيين . وسوف نرى في صفحات ابن القلانسي بأن نصيب الدولة الفاطميّة في العمليات الحربيّة داخل بلاد الشام قد انحصر برمّته تقريباً ، بالإضافة إلى إعادة الاستيلاء على القدس عام ١٠٩٨ وبضع حملات إلى جنوبي فلسطين خلال حكم الوزير الأرمني العظيم ،الأفضل، في النشاطات البحريّة . وتلهّت الجيوش الفاطميّة في السنوات اللاحقة بمنازعات داخليّة مريرة ، مثلما انها شكلت خطراً على حكامها أشدّ منه على أعدائها .

إلا انه من الخطأ الفادح ان نفترض بأن نفوذ الفاطميين في بلاد الشام تبدّد كلياً بواسطة محناتهم وضعفهم المتزايد . فالروايات التي بين أيدينا تبيّن بوضوح انهم كانوا حينذاك يتمتعون بتبعية قويّة في كل من المدن الرئيسية والمناطق الواقعة خارجها . وانه حتى الامراء السلاجقة وخلفاؤهم كانوا قد وجدوا أن من النافع اكتساب عطفهم . فلم يقع الصراع الحاسم بين الفاطميين والامراء المسلمين في بلاد الشام كما يبدو إلا على زمن نور الدين وبتحريض من جانبه .

(٢) — صدرت المعارضة الرئيسية للفاطميين في محاولاتهم الرامية إلى إقامة حكمهم في بلاد الشام عن شيوخ القبائل العربيّة شبه البدوية ، إذ أوجد هؤلاء الشيوخ لأنفسهم دويلات صغيرة في أنحاء مختلفة من البلاد أو استولوا على تلك الانحاء . فكانت شرقي الاردن والأطراف الغربيّة لبادية الشام خاضعة لسلطة قبيلة بني طيّ ، وهي القبيلة التي كانت شوكة دائمة في جنبهم بفلسطين وبقيت تلعب دوراً صغيراً في تاريخ الحروب الصليبية . بينما حظيت قبائل ما بين النهرين بأهميّة سياسيّة اكبر ، ولا سيما التحالفات التي قامت بين قبيلتي عقيل وكلاب . فقد نجح بنو كلاب اخيراً ، تحت زعامة آل مرداس وبعد نصف قرن من الصراع في شمالي سورية ، في الاستيلاء على حلب عام ١٠٦٠ ، لكي يخسروها عام ١٠٧٩ لصالح منافسيهم العقيليين ، الذين كانوا في ذلك الوقت يؤيدون دعوى السلاجقة . غير ان التوسع الخاطف للممتلكات العقيليّة من حلب إلى الموصل جرّهم بدوره إلى نزاع مع الأمير السلجوقي على سورية . وتمّ في النتيجة إهلاك القسم الاعظم منهم وجرى طردهم من حلب وممتلكاتهم في ما بين النهرين ، لكن فرعين من أصولهم نجحا في الحفاظ على مواقعهم بقلعة جَعْبَر وعند اواسط نهر الفرات حتى عهد آل زنكي ونور الدين .

بيد ان رؤساء الجماعات العشائرية الكبيرة لم يكونوا وحدهم من الناجحين في خلق إمارات لمنفعتهم داخل الأراضي الشاميّة . فقد كان العديد من المدن والقلاع الهامة على زمن الحملة الصليبية الأولى بأيدي الحكام العرب المحليين . واستطاع هؤلاء أن يحافظوا على استقلالهم بفضل الديبلوماسيّة اللّينة والشقاقات بين جيرانهم الأشدّ قوة منهم . ولدى انهيار الحكومة الفاطميّة عام ١٠٧٠ استقلّ قاضي صور ، ابن ابي عقيل ، واحتفظ بسيطرته على المدينة إلى أن استرجعها المصريون عام ١٠٨٩ . أما قاضي طرابلس ، حسن بن عمّار ، الذي ثار في السنة نفسها ، فقد كان أوفر حظّاً وبقيت طرابلس بأيدي أعضاء متعاقبين من الأسرة ذاتها ، حتى استيلاء الصليبيين عليها (٤) حتى ان واحداً من بني عمّار قام سنة ١٠٨٠ بتوسيع حكمه إلى جبلة على حساب الروم . ومما تجدر ملاحظته ان السلطان الروحي للخليفة الفاطمي لم يلقَ الرفض لا في صور ولا طرابلس ، مع ان حاكمي هاتين المدينتين قد سعيا للحصول على مساعدة الغزاة التركمان ضد المحاولات الفاطميّة الرامية إلى معاودة الاستيلاء على مدينتيهم ، وزعم ابن عمّار في طرابلس انه يمتلك براءة تنصيب نظاميّة من السلطان السلجوقي في بغداد .

وثمة إمارة عربيّة اكثر لفتاً للنظر تأسست في شيزر عام ١٠٨١ على يد شخص اسمه علي بن منقذ ، وهو الذي اشترى البلدة وحصّنها في تلك السنة من مطرانها المسيحي . فالسياسة المتسامحة التي انتهجها نحو رعاياه المسيحيين عادت على أسرته بالفائدة الجمّة في أوقات الحاجة ، وغالباً ما يظهر أمراء شيزر في حوليات شمالي سورية حتى اضمحلّت الأسرة بكاملها في حطام القلعة خلال الهزّات الأرضيّة عام ١١٥٧ . وكان أسامة بن منقذ ، مؤلّف

٤ – انظر حول تاريخ هذه الأسرة : « Inscription d'un Prince de Tripoli de la dynastie des Banû Ammâr », by G. Wiet, in **Mémorial Henri Basset** (Paris, 1928), 279 – 284

تلك اليوميات (٥) المفعمة بالحيوية والتي تسلط ذلك الفيض من الضوء على التاريخ الاجتماعي للفترة الصليبية ، هو أحد ابناء أحفاد علي .

وهناك مغامر يقل عنه كثيراً في الصيت الحسن ، هو خلف بن مُلاعب ، الذي نجح في اقتطاع إمارة مستقلة . لقد ولاه أمير حلب العقيلي على حمص أصلاً في سنة ١٠٨٢ ، لكي يشكل فاصلاً بينه وبين الأمير السلجوقي بدمشق ، لكنه طُرد من هناك عام ١٠٩١ ، ومن أفاميا التي كان قد استولى عليها بنفسه ، في العام ١٠٩١ . وبعد بضع سنوات من السجن في اصفهان ، قعد في مصر وأرجعه الخليفة الفاطمي في العام ١٠٩٦ او ١٠٩٧ إلى حكم أفاميا التي قام سكانها ، في ثورتهم ضد السلاجقة ، بإرسال وفد منهم للمطالبة بحاكم . أما مصير خلف لاحقاً فسوف يكون العثور عليه في المنتخبات المترجمة عن ابن القلانسي .

(٣) — شهد القرن الحادي عشر هجرةً واسعة النطاق لقبائل التركمان ، المعروفة عامة بـ « الغز » ، من حدود السهوب الآسيوية عبر غربي آسيا : فالسلاجقة كانوا رؤساء لواحدة من هذه القبائل ، ونجحوا في بناء قوة عسكرية كبرى ، لكي يبسطوا بها سلطانهم على التوالي في كل من خراسان وفارس والعراق وارمينيا والاناضول . وباعتبارهم من السنيين الحنيفين المتشددين فقد نصبوا انفسهم كمدافعين عن الخلافة العباسية في بغداد ، وجرى إعلانهم بالتالي كأعداء للخلفاء الفاطميين في القاهرة . ظهرت أولى عصابات الغز في سورية قبل عام ١٠٧٠ بزمن قصير . ففي تلك السنة استولى أحد زعمائهم ، آتسيز ، على فلسطين لصالح السلطان السلجوقي ألب ارسلان الذي جعل أمير حلب العقيلي

---

٥ — انظر الكتاب الذي ترجمه فيليب ك. حتي ونشره عام ١٩٢٩ في مطبعة جامعة كولومبيا :
An Arab-Syrian Gentleman and Warrior in the Period of the Crusades.

تابعاً له في العام نفسه. وفي ١٠٧٥ استولى اتسيز على دمشق من قائد حامية البربر، لكنه مُني بالهزيمة في السنة التالية خلال هجوم شنّه على مواقع مصر الأماميّة — ففرح الدمشقيّون فرحاً عظيماً لأنّهم كانوا يمقتون طغيانه.

ربّما كان فشل اتسيز مسؤولاً إلى حدّ جزئي عن القرار الذي اتخذه ملكشاه، خليفة الب أرسلان، بإيفاد اخيه تُتُش إلى سورية على رأس جيش سلجوقي عام ١٠٧٧، وتخويله في الوقت نفسه بامتلاك «كل ما استطاع الاستيلاء عليه في سورية». فلم يواجه تُتُش صعوبة ذات بال في الاستيلاء على دمشق واسترجاع فلسطين من الفاطميين، لكن حلب قاومت هجماته. والحقّ ان ملكشاه تدخّل مرّتين شخصياً لكي يحمي حلب، على ما يبدو تقريباً، ضدّ اخيه. ففي المناسبة الأولى حاول الامير العقيلي ان يعقد تحالفاً مع الفاطميين ضدّ تُتُش. ممّا حدا بملكشاه لأن يحتلّ المدينة عند نهاية ١٠٨٢، لكنّه أرجعها إلى العقيلي كتابع له. وعقب انقضاء عامين، قام السلطان السلجوقي في الاناضول، سليمان بن قتلمش، باجتياح شمالي سورية. فاستعاد حلب، وقتل العقيلي في وقت لاحق خلال المعركة، لكنّه اخفق في الاستيلاء على حلب. ثم نشب عند ذاك نزاع بين سليمان وتتش (١٠٨٦)، فقُتل سليمان خلاله واستولى تُتُش على حلب. وهنا تدخّل ملكشاه مرّة اخرى، فاحتلّ حلب وانطاكية والرها، وسلّمها كاقطاعات الى القادة الاتراك، لكي تأتي حلب من نصيب آق سُنُقر، وهو ابو زنكي.

خلال السنوات القليلة التالية عمد هؤلاء القادة إلى مؤازرة جهود تُتُش في إخلاص لتوسيع الممتلكات السلجوقية في بلاد الشام والإطاحة بسلطة العقيليين في ما بين النهرين وديار بكر. وفي تلك الاثناء توفي ملكشاه (تشرين الثاني ١٠٩٢) وخلفه في السلطنة ابنه بركياروق. لكن تُتُش كان يطمع لنفسه في في اللقب السلطاني، فزحف على خراسان. غير ان محاولته الأولى أحبطها قرار آق — سُنُقر في حلب والعديد من قادته بتأييد بركياروق، فاضطُر على

الرجوع إلى بلاد الشام لكي يعالج أمرهم . وفي شهر أيار سنة ١٠٩٤ هـزم القوات المجتمعة لكل من حلب والرها والموصل . وأعدم آق- سُنْقر وحلفاءه ثم استولى على مدنهم وشنّ حملة ثانية ضد خراسان . ولقد جرى إعلانه كسلطان رسمياً لبضع شهور . حتى استأنف بركياروق الهجوم وهزم قوّاته يوم ٢٦ شباط ١٠٩٥ بالقرب من الرَّي (طهران) . أما تُتُش نفسه فقد قُضي عليه في ميدان القتال ، ويقال ان ذلك تمّ على أيدي قوّات آق-سُنْقر . وكانت هذه المعركة هي التي قرّرت مصير الحملة الصليبية الأولى . فلو ان الصليبيين قوبلوا بالموارد المشتركة للمملكة الواحدة التي أقامها تُتُش ، لكان من المؤكّد ان التاريخ ستُعاد كتابته . وكما كانت الحال ، فإن ممتلكاته السوريّة التي نالها بصعوبة قد تحطّمت من جديد على مذبح التناحر بين ولديه : رضوان ودُقاق، والتحاسد والانانيّة لدى قادته السابقين .

٤ ـ كانت الإدارة البيروقراطيّة القديمة للخلافة والدويلات التي قامت على انقاضها قد افسحت المجال تدريجياً أمام قيام نظام عسكري للحكم ، وذلك في مجرى القرن العاشر . فالحكام على المدن والأقاليم قد جرى اختيارهم من بين القادة العسكريين أو الامراء ، الذين كانوا في معظم الأحيان من العبيد الاتراك السابقين . ولم يتمتّع هؤلاء الحكام بسيطرة غير مقيّدة تقريباً على إقطاعاتهم فحسب ، بل أقاموا لأنفسهم جيوشاً دائمة تضمّ عبيدهم الأتراك . وتعزّز الإغراء بالتوكيد على استقلالهم من خلال الطريقة التعسفيّة التي اعتاد اسيادهم بها على إلغاء اوامرهم وتجريدهم من ممتلكاتهم ، وحتّى القيام باعدامهم لمجرّد الشبهة . فمجيء حاكم ضعيف لتولّي الحكم أو نشوب خلاف بصدد الولاية كان بالتالي إيذاناً بتقطيع مملكة إلى عدد من الإمارات الصغيرة ، حيث ينهمك حكامها ـ الذين كانوا مجرّد «بارونات لصوص» ـ بالاقتتال المتواصل واحدهم مع الآخر حتّى يستتب النظام بحدّ سيف الأقوى بينهم . ولم يكن نادراً انتقال أحد الأمراء بصحبة قواته الخاصّة إلى إحدى المناطق النائيّة والاستيلاء عليها وامتلاكها بالقوّة ، والبقاء فيها إلى ان يُطاح به أو يُمنح براءة إقطاع رسمية .

ولم يُدخل السلاجقة أي تغيير مادّي على هذا النظام ، لو جاز لنا إطلاق مثل هذه اللفظة عليه . فقد تألّف تنظيمهم الامبراطوري من تجمّع مفكك من الممالك تحت سيطرة أعضاء مختلفين من البيت السلجوقي (« ملوك ») ، يمنح كل واحد منهم ولاءه لرأس الأسره أو « السلجوق الأكبر » في فارس وبغداد وكان هذا يحمل لقب « السلطان» . حتّى ان الحكام الاتراك المرؤوسين كانوا مطالبين بالإبقاء على جيوش دائمة كشرط للاحتفاظ بامتيازاتهم. لقد عَمِل هذا التنظيم بنجاح كافٍ في ظل السلاطين الثلاثة الأوائل ، لكن الضعف القديم أخذ يبرز من جديد منذ وفاة ملكشاه عام ١٠٩٢ وأدت أطماع القادة والامراء المتناحرة إلى قيام حالة من الاقتتال الدائم في أنحاء مختلفة من الامبراطورية (وفي سورية اكثر من أي مكان آخر) ورأينا فيما سبق ان تُتُش كان قد واجه ثورة من جانب الحكام في شمالي سورية ، ومع انه نجح في إخمادها لساعتها ، فقد عادت روح الثورة إلى الظهور لدى وفاته . كان أقوى الحكّام عقب إعدام آق ــ سُنقُر هو ياغي ــ سيان ، الذي جرى تعيينه على انطاكية حوالي ١٠٩٠ وامتدت ممتلكاته في زمن لاحق (على يد تُتُش في الظاهر) الى منبج وتل بشير . ومنذ اللحظة التي جرى فيها احتلال حلب على يد رضوان ابن تُتُش ، انهمك ياغي ــ سيان في اشتباكات مكشوفة معه ، وسرعان ما عثرت مبادرته هذه على المقلّدين لها .

ثمة عامل آخر أسهم في نشوء الإمارات التركيّة المستقلّة ، ألا وهو الاتابكة كمؤسسة مختصّة بالسلاجقة . لقد رأينا بانه في النظرية السلجوقية للإدارة يوجد لكل إقليم مَن يحكمه من أعضاء الأسرة الحاكمة . ثم جرى إلحاق قائد تركي بكلّ واحد من هؤلاء الأمراء ، كان يحمل لقب « اتابك » ، أو « الأب » و « المرشد » ، ويتحمّل مسؤولية تربيتهم العسكريّة وحكم اقاليمهم . وبما ان الاتابك كان على علاقة أبويّة بـ « الملك » السلجوقي ، فقد تمتّع بسلطة تفوق سلطة القادة العاديين إلى حدّ كبير . فمن البادي ايضاً انه كان من

عادة الاتابك التزوج من أمّ عهدته وتزويج إحدى بناته منه . وتمشياً مع العادة المألوفة قام تُتُش بتعيين الأمير جناح الدولة الحسين بمثابة اتابك لإبنه رضوان والأمير ظهير الدين طغتكين بمثابة اتابك لابنه دقاق . فعقب هزيمة تُتُش وموته ، وعندما احتلّ رضوان حلب وادّعى امتلاك سورية ، قام جناح الدولة باستلام السيطرة على أراضيه دون جدال . أما دقاق، الابن الثاني لِتُتُش ، فاقتعد حلب ايضاً . لكنّه هرب الى دمشق بناء على دعوة سِريّة تلقّاها من واليها لكي يقيم حكمه هناك .

وكان طغتكين في تلك الاثناء قيد الأسر في فارس ، بعد ان تمّ أسره في معركة الرّي ، لكنّه انتقل في الحال إلى دمشق عقب إطلاق سراحه بوقت قصير ، واستعاد منصبه كأتابك بمساعدة زوجته ، أمّ دقاق ، وهي الأميرة صفوة المُلك التي اشتهرت بحيويّتها ودسائسها .

كان محتّماً للأتابكة في الوقت المناسب مع انهيار التضامن السلجوقي ان يحلّوا سلالاتهم الحاكمة محلّ سلالات محميّيهم . غير ان هذا الأمر لم ينطوِ ، كما قد يكون متوقّعاً ، على قطيعة محدّدة مع اسيادهم ، السلاجقة الكبار . بل على العكس من ذلك ، استمرّوا في الحفاظ على موقف من الخضوع سليماً للغاية تجاه السلاطين ، وتقبّل هؤلاء من جانبهم مجرى الأحداث دونما اي احتجاج يثير الدهشة . وأصبحت الاتابكة مجرّد شكل. وعندما تقرّر في سنة ١١٢٧ مثلاً تعيين اتابك لإبني السلطان الأصغرين ، فإن أحداً منهما لم يشارك بأي دور على الإطلاق ، ولم يكن متوقعاً له ان يشارك ، في حكم الإقليم . وعليه ، فإن قيام طغتكين بالتخلّص من « ملوك » السلاجقة في دمشق بعد وفاة دقاق كان يتمشّى كلياً مع ممارسة العصر .

٥ - ودخل عنصر جديد من عناصر اللّااستقرار السياسي ، إلى جانب الأمراء العرب المحليين ، والسلاجقة واتابكتهم ، والأمراء الاتراك ، على يدّ الغُزّ في بلاد ما بين النهرين وديار بكر . فقد كان توفّق هؤلاء التركمان الرُّحل ،

الذين عاشوا على تربية الخيل والنهب ، في حدّ ذاته مصدراً دائماً للاضطرابات والقلاقل ، ثم جاء نفاد صبر التحفّظ والاطماع السياسية لزعمائهم لكي تزيد من حدّة ذلك . كان اتسيز مثل هذا الشخص ، وهو سلف السلاجقة في بلاد الشام ، لكن سلطة ملكشاه وتُتُش أبقتهم خاضعين للمراقبة مدّة من الزمن ، وخدم كثيرون من الزعماء ، على الأقلّ ، في الجيوش السلجوقية . فانحلال المملكة التي اوجدها تُتُش أعاد لهم حرّيتهم ، وفي غضون عامين أو ثلاثة أعوام نجح العديد منهم في تأسيس إمارات مستقلة .

وكان الغازي وسُقمان من أوسع هؤلاء الزعماء التركمان شهرةً في الشؤون السورية ، وهما من أبناء أرتُق ، وهو ضابط تركماني عيّنه تُتُش حاكماً للقدس . فالغازي خلف أباه في منصبه ، بينما تفرّق إخوته للبحث عن حظوظهم في أمكنة أخرى . وتحالف سقمان في البدء مع رضوان اثناء الصراع ضد دقاق ، فكوفىء بتمليك معرّة النعمان ، لكنّه حاول توطيد نفسه في الرها عقب استيلاء الجيوش الفاطميّة على القدس عام ١٠٩٨ . وأسس فيما بعد إمارة أشدّ ثباتاً في حصن كيفا ، كما استولى على ماردين ، ثم انتقلت ماردين إلى الغازي حوالي ١١٠٨ ، وأقيمت هناك سلالة ارتقيّة ثانية . أما سليمان ابن الغازي فقد سبق له ان استقلّ على سُميساط قبل مقدم الصليبيين ، وأسس أعضاء آخرون من الاسرة إمارات سريعة الزوال خلال هذه الفترة . وثار زعيم تركماني آخر ، هو إينال ، ضد دقاق حوالي ١٠٩٦ ، فاستولى على آمِد وانشأ سلالة هناك ما لبثت فيما بعد ان تحالفت عن طريق الزواج مع الارتقيين في ماردين .

٦ — يبدو ان المجال المتروك لمبادرة الأهالي أنفسهم كان ضئيلا للغاية وسط هذه الصراعات كلها بين الامراء المتنافسين والزعماء والقادة . وبينما بطل ان يكون لهم شأن في المسائل السياسيّة في أنحاء عديدة من العالم الإسلامي ، وأبرزها مصر والعراق ، نجد انّهم قد احتفظوا في بلاد الشام من جهة ثانية بشيء من صفاتهم العسكريّة وما فتئوا يمارسون نفوذاً هاماً على سير الأحداث . من

الصحيح ان سلطان الفاطميين والسلاجقة والقادة الاتراك استند إلى جيوشهم من العبيد ، لكن وجود إمارات أهليّة مثل إمارة بني منقذ في شيزر لم يكن ممكناً إلاّ بفضل التأييد الذي نالوه من السكان المحليين . وحتى في المدن الرئيسيّة ، ولا سيما في حلب ودمشق ، فإن القوة العسكريّة للمواطنين كانت كافية لكبح جماح النزعات التعسفيّة لدى حكامها . فقد تخوّف الولاة الأتراك على وجه العموم من روحهم الحربيّة ، وكانوا اشدّ ميلاً إلى اتخاذ اجراءات قمعيّة ضدها من ميلهم الى توجيهها صوب مسالك معافاة . فكانت النتيجة ان الأحداث أو عصابات المواطنين المسلّحين نزعت نحو التحوّل إلى غوغاء غير منضبطة بدلاً من كونها قوّة انضباطية ، واشتهر سكان دمشق في ظل الفاطميين بعصيانهم لحكّام المدينة . برهن السكان المدنيون في الدفاع عن منازلهم ضد الصليبيين على امتلاكهم صفات عسكرية كان من شأنها لو نالت تأييداً أفضل أن تكون دون ريب اكثر فعالية في صدّ موجة الغزو ، ويجب ألا نغفل بأن التقلّبات السياسية وويلات الحرب قد أثرت على السكان المواطنين بدرجة لا تقل عن تأثيرها على المزارعين البائسين . فهذا سبط بن الجوزي يخبرنا بأن الاضطرابات العنيفة التي رافقت انحلال الإدارة الفاطميّة وسوء حكم اتسيز قد أسفرت عن قدر من الضيق الاقتصادي حتى ان سكان دمشق في العام ١٠٧٥ تقلصوا من نصف مليون إلى ثلاثة آلاف نسمة . ومن جهة ثانية ، فإن الإدارة المستنيرة والسياسة التجارية التي اتّبعها آق — سُنقُر جلبت انتعاشاً مفاجئاً للازدهار في حلب ، وكذلك في ظل طغتكين فإن دمشق قد تعافت بسرعة مذهلة من آثار الحكم السّيء الأسبق .

غير انه يمكن استكشاف قوّة الحركات الشعبيّة في ذلك العمود الفقري من المناطق الجبليّة التي تفصل الداخل عن الساحل اكثر منه في المدن وفي الأراضي الزراعيّة الغنيّة من بلاد الشام. فلم تكن سلاسل جبال لبنان وامتدادها الشمالي، في جبل السّماق التابع للعرب ، موطن الموارنة المسيحيين فحسب ، بل كانت

ايضاً ملجأ المتمردين والمنشقين ، حيث استطاعوا فيها إقامة تنظيمات قويّة تحدّت كافة قوى الامراء المسلمين . وخلال القرنين اللذين سبقا الحملات الصليبيّة نجح فرعان من فروع الشيعة ، التي كانت في بعض نواحيها السابقة تحمل طابع الحركة الشعبيّة الثورية ، في توطيد انفسهما بهذه المعاقل المنعزلة : كان النصيريون قد توطدوا في جبل السماق إلى الشمال وفي الجنوب حول جبل حرمون كانت مستوطنات اخصامهم الألدّاء ، الدروز أو الدَرَزيون . وقبع بينهما تجمّع الموارنة المسيحيين . ولقد أضاف تداخل هذه الجماعات المستقلّة ، والمعادية في غالب الأحيان ، إلى صعوبات الاتصال بين الساحل والداخل ، وأسهم كثيراً في الحيلولة دون إمكانية العمل المشترك . وفضلاً عن ذلك ، فإن تنظيماتهم العسكريّة جرت تقويتها مؤخراً لصدّ هجمات السلاجقة الذين باعتبار كونهم مسلمين حنيفين وبناة امبراطوريّة تضايقوا بصورة مماثلة من بدعهم واستقلالهم . ولدى ظهور الصليبيين تبنّوا سياسات مختلفة . فلا نعرف عن النصيريين سوى النزر اليسير ، باستثناء الحقيقة القائلة بأن أعداداً كبيرة منهم ذُبحت على أيدي الفرنجة . أما الدروز فقد ألقوا بقَدَرهم مع المسلمين بإخلاص وصدق . ووقف الموارنة إلى جانب الصليبيين بالطبع ، كما حارب الكثيرون منهم في صفوفهم .

وكانت هناك بالإضافة إلى النصيريين والدروز ، حركة شيعيّة ثالثة ، ثوريّة في طابعها ايضاً ، قيد التنظيم في شمالي سورية عند زمن الحملة الصليبية الأولى . هذه هي الحركة الباطنيّة الشهيرة التي كانت بمثابة فرع منشقّ عن الفاطميين ، حيث عُرف اتباعها بتسميتهم الشائعة : الحشاشون . فلم تبدأ نشاطاتهم العلنية إلاّ عقب مضي بضع سنوات ، لكن هناك ما يبرّر الإتيان على ذكرهم عند هذه النقطة نظراً للدليل الذي تقدّمه حركتهم على استمرار وجود النشاط السياسي بين عامّة السكان ، ولا سيما على وجود شعور قوي بالعداء ضد الحكام الاتراك وغيرهم من الأمراء المحليين .

واخيراً ، فإن سكان سورية لم يكونوا كلّهم على تركيب مطّرد ، او حتى على لغة مطّردة . فقد تألف السواد الاعظم من السكان المستقرّين والرُحّل دون ريب من العرب والعناصر المستعربة ، وكان يتكلّم العربيّة . وينبغي ان يدرج بين صفوف هؤلاء أعداد كبيرة من السكان المسيحيين الأصليين في الشمال ، والمنتمين إلى الكنائس اليونانيّة والنسطورية واليعقوبيّة. فقد شكّل الموارنة الذين يبدو انهم ما زالوا يستخدمون اللغة السريانية إلى حد بعيد ، الأكثرية الكبرى على الأرجح . والى جانب هؤلاء والمهاجرين التركمان الناطقين بالتركيّة ، كانت هناك ايضاً طوائف كبيرة من الأكراد ولا سيما الأرمن ، تقيم في الشمـــال بصورة رئيسيّة . ففـــي المرتفعات القـــائمة عند أقدام جبال طوروس وعلى ضفاف الفرات نجح كل من الأكراد والأرمن في تأسيس عدّة « بارونيات » وحتّى إمارات أوسع نطاقاً ، لكن هذه كانت آخذة في الزوال قبل انقضاض التركمان . وفي عدد من المدن الشمالية ، إن لم يكن في معظمها ، شكل الأرمن اكثرية السكان ، ولا يبدو ان المعاملة التي لاقوها كانت بأية حال أسوأ من المعاملة التي نالها الرعايا الآخرون .

إن التحليل السابق للوضع في سورية يلقي ضوءاً أسطع على الأحداث التي سبقت وصول طلائع الصليبيين مباشرة . فالحقيقة المحورية للوضع كانت العداء بين ابني تُتُش ، رضوان ودقاق . لقد عمل رضوان كنائب لوالده في بلاد الشام خلال حملات تُتُش في ما بين النهرين وخراسان ، بينما يبدو ان دقاق تسلّم ديار بكر كاقطاعة له . وحين وصلت أخبار معركة الريّ كان رضوان في طريقه للالتحاق بتُتُش مع تعزيزات من بلاد الشام ، فتراجع على الفور إلى حلب بهدف الحصول على ميراثه كملك على بلاد الشام . وقبل ان يتمكّن من إتمام إجراءاته ، كان دقاق قد وصل إلى حلب ايضاً ، فهرب بناء على دعوة سريّة من حاكم دمشق من مراقبة اخيه واستولى عـــلى دمشق ، بينما احتفظ باقطاعاته السابقة في ديار بكر وما بين النهرين . فأخذ رضوان

بالطبع يعدّ العدة لإثبات حقوقه بالقوّة ، وفي بحثهما عن حلفاء في الصراع الوشيك التفت كلٌ من الاميرين إلى القادة الاتراك والزعماء الترّكمان . وكان الأقوى بين هؤلاء ياغي – سيان في انطاكية ، الذي كان سيؤيّد رضوان على الأرجح لولا شعوره بنفور شخصي قوي من جناح الدولة ، اتابك رضوان . لذا فقد أصبح حاكم القدس هو الحليف الطبيعي لدقاق ، الذي انضم إليـه الغازي كذلك ، . فالتفت رضوان الآن صوب سقمان بحثاً عن المساعدة ، وسقمان هو أخو الغازي (الموجود آنذاك في سروج) مع تركمانه ، وإلى قبيلة بني كلاب العربية .

بدأت الاشتباكات في سنة ١٠٩٦ بهجوم ناجح شنّه رضوان وحلفاؤه على الممتلكات الشرقيّة لياغي – سيان . ويبدو ان دقاق والغازي ذهبا لمساعدة ياغي– سيان ، وفي أثناء غيابهما قام رضوان بمحاصرة دمشق . لقد أحبطت المحاولة على يد السكان ، لكن رضوان نشر الدمار والخراب في جزء كبير من الإقليم قبل انسحابه إلى انطاكية . في تلك الأثناء كان النفور المؤقت بين دقاق والغازي وسجن هذا الأخير قد اتاحا لسقمان فرصة الاستيلاء على القدس . وفي العام التالي (١٠٩٧) لجأ دقاق وياغي– سيان إلى شن الهجوم فاستّرجعا بعض المدن في شمالي سورية . وحوالي الوقت نفسه رجع الغازي إلى القدس وانضم سقمان الى رضوان من جديد ، لكي يطردهما الثاني بمساعدة من الأول وابن الغازي الذي جعل نفسه سيّداً على سُمَيساط . عقب ذلك بزمن قصير تشاجر رضوان مع اتابكه ، جناح الدولة الذي غادر حلب على رأس قواته كلها واستولى على حمص . فبادر ياغي– سيان على الفور إلى عرض خدماته على رضوان ، وجعل نفسه بمثابة اتابك له ، ثم زوجه من ابنته . واتخذت استعدادات فورية لشن حملة ضد حمص ودمشق . وفي الوقت نفسه ، وصلت إلى حلب سفارة من مصر ، واغتنم رضوان الفرصة لاقتّراح القيام بهجوم مشتّرك عـلى دمشق لقاء تعهّده في الاعتّراف بالسيادة الروحية للخليفة الفاطمي . غير ان

هذا المشروع جرى العدول عنه بناء على اعتراضات من جانب ياغي– سيان وسقمان . فتقدم الحلفاء الثلاثة بقواتهم على شيزر . عند هذه النقطة وردتهم الانباء عن وصول الفرنجة الى حدود سورية الشمالية . فألقاهم التقرير في حالة من التخبط وتخلّوا عن الحملة . وبدلاً من البقاء سوية بوجه العدو الجديد ، فإن الجيش تفرق . وتراجع رضوان على جناح السرعة إلى حلب ، بينما توجه ياغي – سيان إلى انطاكية لكي يدافع عنها ضد الفرنجة . وحتى عند هـذه هذه المرحلة فإن سقمان لا يبدو عليه بأنه أولى أي تفكير للدفاع عن بلاد الشام ضد الصليبيين . فقد كان طموحه موجّهاً كلّه إلى غزو ديار بكر التي استقل حكامها عن دقاق ، حتى انه حاول إقناع ياغي– سيان ورضوان بالسير معه عليها وعدم الاكتراث لأمر الغزاة الفرنجة . وعندما فشلت توسلاته ، خرج بصحبة ياغي– سيان ، لكنّه انضم إلى رضوان لاحقاً . وهكذا بقي ياغي – سيان متروكاً ليواجه الهجمة الأولى لجيوش الصليبيين بقواته وحدها فحسب ، وبما استطاع الحصول عليه من مساعدة متقطّعة عن طريق توسّلاته للامـراء الآخرين .

جيوش الدول الاسلاميّة

يحتاج القليلون من دارسي الحروب الصليبية إلى تذكيرهم بأن الأمّة الإسلامية – تحت– السلاح لم تعد قائمة منذ زمن بعيد . فتنظيم الميليشيا القديم ، عندما كان كل رجل في السجّلات العشائريّة يتلقّى معاشاً من الخزانة العامّة ويُطلب منه ان يكون على اهبة استعداد دائم للحملات العسكريّة ، جرى تعديله تدريجياً بخلق الجيوش الدائمة ، وخلال القرن التاسع تبدّلت القاعدة العسكريّة للدول الإسلاميّة الشرقيّة تبدلاً عميقاً . وعليه ، فقد تألّفت نواة قوّاتها من سلك الحرّاس المكافئين بمعاش ، وتألّف السواد الأعظم لهذا السلك من العبيد الذين

تم شراؤهم أو تمت جبايتهم كجزية ، أو توارثهم الامير الحاكم . لقد شكل هؤلاء الحرّاس جيشاً دائماً وكانت تكاليف هذا الجيش عبئاً على واردات الدولة في المقام الأول . وتألفت اكثريتهم من الاتراك القادمين من آسيا الوسطى ، لكن اعدادهم تزايدت بواسطة السلافيين المنقولين من اوروبا الشرقيّة ، والروم وسواهم من الأسرى المجلوبين من بلاد الأناضول وارمينيا وجورجيا(الكرج) لقد كانوا منتظمين في أفواج ، قام أحدها بتشكيل الحرس الخاص وتزويد المراسم الاحتفاليّة بالرجال . كانوا جميعاً من الراكبين ، ومن الماهرين بنوع خاص في إطلاق القوس من على صهوات الخيل . وقد تسلّحوا بالرماح والسيوف من أجل القتال عن كثب . دعي هذا الجيش الدائم من الحراس الراكبين بـ « العسكر » » ، وسُمّي الجندي الفرد بـ « العسكري » أو « غلام » ومن هذه التسمية الأخيرة جاءت على الأرجح لفظة «Angulani» في المجموعـــة المعروفة بـ «أعمال الفرنجة» Gesta Francorum. ويبدو انه وُجد هناك نظام مطّرد للتربية تبعاً لطول مدّة الخدمة ، حيث تميّزت كل رتبة من الرتب بسمة ما في الزيّ . فقائد الفوج كان يلقّب بـ « الأمير » (وهي لفظة تجري ترجمتها غالباً بكلمة Prince ، لكنّها ليست بالترجمة الصحيحة) ، وكبير الضباط أو القائد الأعلى كان يدعى بـ « الحاجب » . وجرى اختيار القادة عادة من الحرس الخاص للحاكم ، كما شغلوا في كثير من الأحيان مناصب هامّة في البلاط بالإضافة إلى قياداتهم العسكريّة . فالضباط الذين ارتفعوا إلى تلك المراكز العليا كان يُسمح لهم ، ويتوقع منهم ، ان يشتروا ويقيموا لأنفسهم جيشاً خاصاً من عبيدهم ، حيث انخرط هؤلاء العبيد لدى وفاة سيدهم في السلك العـــام للعسكر ، عادةً كفوج مستقلّ دُعي باسم مالكه الأسبق .

تطلّب الامراء الرئيسيون بالطبع مبالغ ضخمة لصيانة قواتهم الخاصّة، ولهذا الغرض فقد خُصّصت لكل منهم كافة الموارد العائدة لمنطقة معيّنة أو جزء من مواردها ، فأصبح الأمير حاكماً لتلك المنطقة وأنيطت به في المقام الأول

مسؤولية الدفاع عنها . هذا هو « الإقطاع » بالمعنى الإسلامي . والاصطلاح ملائم للغاية حتّى انه يتعذّر تحاشيه ، لكن يجب ان نتذكّر التمييز الحادّ بين تلك « الإقطاعات » والنظام الإقطاعي . فقد أعطى الإضعاف التدريجي للبيروقراطيّة ، الّتي كانت تسيطر في البداية على الإدارة الماليّة للأقاليم الأمبراطوريّة وشكلت ضابطاً لكبح الحكام العسكريين ، لهؤلاء الحكّام حريّة التصرّف عمليـاً في إدارة « إقطاعاتهم » . وكانت النتائج الطبيعيّة الّتي أسفر عنها هذا النظام هي سوء حكم مزمن وتنافسات لا حدّ لها بين الأمراء للحصول على امتياز استنزاف المناطق ذات الانتاجيّة القصوى ، بالإضافة إلى التشجيع الدائر الذي قدّمه ، كما رأينا سابقاً ، للتمرّد ولتأسيس الإمارات المستقلة . فقلما كان هناك حكامٌ لم تضايقهم باستمرار ، رغم شهرتهم ، محاولات متكرّرة من ذلك النوع ومن جانب امرائهم . ومما يفسر ضعف السلطنة السلجوقيّة بنوع خاص ، وإخفاقها في دعم الأمراء السوريين ضد الصليبيين ، سواء أكان ذلك في البداية أم في السنوات اللاّحقة ، هو خوفها الدائم من تلك الثورات وانهماكها بها في كافة انحاء ممتلكاتها .

تنوّعت القوّة العدديّة للعسكر بالطبع حسب تنوّع قوّة الحاكم وموارده ، ولا تزوّدنا المصادر العربيّة بأية أرقام عن قوى الامراء السوريين ومواردهم ومن الحملة الصليبية الأولى . غير انه من المؤكد بأن قوات رضوان ودقاق ، زهما الاميران الرئيسيان في سورية ، لا يمكنها ان تكون قد تجاوزت بضعة آلاف لكل واحد منهما ، وان قوات الحكام الذين يقلّونهم شأناً كانت أصغر من ذلك بالتالي . والالفان من «صفوة الجند» (optimi milites) الذين ينسبهم مصدر غربي(٦) إلى ياغي– سيان هم عسكره على الأرجح . ومما يؤيد ضآلة

---

٦ – ذكر ريموند الآجيلي في (Migne, Vol. CLV), 598 D ما يلي : « ٢,٠٠٠ من صـفوة المليشيا (optimi milites) ، و ٤,٠٠٠ إلى ٥,٠٠٠ من عامـة الجنـد (milites grezarû) و ١٠,٠٠٠ من المشاة (pedites) ». انظر أدناه بالنسبة للفئتين الأخيرتين.

هذه الأرقام هو الوجود المستمرّ لتلك الإمارات الصغيرة مثل إمارة شيزر ، والّتي كان أسيادها يتصرّفون ببضع مئات من الرجال فحسب ، كما تؤيّدكما العبارات المفرطة الّتي يستخدمها ابن القلانسي بصدد القوات الّتي كان تعدادها في أقصى حدّ حوالي اربعة أو خمسة آلاف . غير ان اتابكة ما بين النهرين ، من الجهة الثانية ، كانوا يملكون جيوشاً دائمة أقوى بكثير ،ومما لا ريب فيه ان الدور البارز الذي لعبوه في التاريخ اللاّحق للحروب الصليبية كان مرده إلى هذه الحقيقة بمقدار كبير .

ومع ان نواة العسكر تشكّلت من قوات العبيد ، فغالباً ما تعزّزت أعدادها بمجموعات من المرتزقة بالمعنى الأشد حصراً . وكانت توجد في خدمة معظم الأمراء افواج من الديلم ، سكان المناطق الجبليّة إلى الجنوب الغربي من بحر قزوين ، كما ان الأرمن خدموا على الأقل في عسكر دمشق ومصر . كذلك نسمع في سورية عن أحرار انخرطوا في سلك العسكر وتلقّوا ،على غرار الجنود النظاميين ، **ديواناً** أو معاشاً معيّناً من رئيس يتعهّد الإيراد(٧) . وفي مناسبات عديدة جرى تعزيز عساكر الأمراء الدائمين برجال قبائل الترّكمان ، وهؤلاء كانوا ايضاً من رماة السهم الراكبين ، ويرد ذكرهم على العموم كعسكر . فعندما يُقال لنا بأن الجيش الدائم للسلطان السلجوقي ملكشاه بلغ تعداده ٤٠٠,٠٠٠ رجل ، يجب علينا اعتبار هذا الرقم شاملاً للترّكمان الخاضعين لأمرته بالإضافة إلى الحرس الكبير جدّاً من العبيد الأتراك (حوالي ٤٦,٠٠٠ رجل) والـــذي احتفظ به . إلا ان الترّكمان ، رغم شجاعتهم الفرديّة ومزاياهم الحربيّة ، أعوزهم استقرار القوات النظاميّة وانضباطيتها ، وغالباً ما برهنوا عن كونهم

---

٧ – مثال ذلك ، اسامة بن منقذ ، الذي خدم بالتتابع في عسكر كل من زنكي ودمشق ومصر ونور الدين . انظر ايضاً قصته عن المفاوضات بين رضوان بن الولاخشي ومعين الدين اونور (تحرير حتي ، ٣٠–٣١)

An Arab-Syrian Gentleman. 56 – 57

حلفاء خطرين . كذلك قدّم رجال القبائل الأكراد قواتاً إضافيّة من الفرسان ، وانخرطت علاوة على ذلك أعداد كبيرة من الأكراد في العساكر النظاميّة .

كان القسم الأكبر من القتال العادي بين الأمراء السوريين وبينهم والصليبيين يشنّه العساكر وحدهم ، مع عدد معيّن من الاتباع الملحقين . وجرى في مناسبات اكثر أهمية استدعاء خطّ ثانٍ من القوات (٨) . فالتسمية المعطاة لهذه القوات ، جُنُد وجمعها أجناد ، هي التسمية ذاتها التي أطلقت في السابق على الميليشيا العربيّة القديمة . ولقد استمرّ نظام الميليشيا هذا بالواقع قائماً في سورية وما بين النهرين حتّى تاريخ متأخر جداً اكثر من أي مكان سواهما في الشرق ، بفضل استمرار التنظيمات العشائريّة العربية وبسبب النزاع المتواصل مع البيزنطيين . لكنه من الخطأ على الأرجح إجراء مطابقة كلية بين أجناد القرن الحادي عشر والمليشيا السابقة . كذلك من الواضح تماماً من المصادر السوريّة انه كانت لا تزال هناك قوات اقليميّة من نوع المليشيا ، مقابل العساكر . فالقوات العسكريّة للإمارات العربيّة الصغرى ، كالدروز ، وغيرها من التنظيمات المحليّة كانت تتألّف كليّاً من مثل تلك القوات الاقليميّة . وأمراء شيزر مثلاً ، كان لهم عسكر صغير فقط. فنحن نعلم من روايات أسامة بن منقذ بأن اجنادهم قد تألفت في معظمها من مختلف القبائل المحليّة ، بالاضافة إلى الوافدين عليهم من المغرب (الشمال الغربي من افريقيا) وإلى عدد معيّن من الأكراد(٩) . ولذا يمكن الافتراض بأن أجناد دمشق والمدن السورية الأخرى كانت مؤلّفة من عناصر مماثلة ، بصورة جزئية على الأقلّ . لأن نظام العسكر

---

٨ – انظر على سبيل المثال والمقارنة النص العربي لابن القلانسي ١٣٢ ، ٦–٧ : « اندفع إليهم (العسكرية) جماعة من الأجناد » . وربما كان هؤلاء ما عناه ريموند الآجيلي بـ « عامة الجند » milites grezarû

٩ – انظر طبعة حتي : ٣٨ ، ١٣ ، ٤٦ II . ٣٨ ، ٣ من الحاشية ، ٤٩ ، ١٢ ، ٧٠ ، ٢ الخ .

أدّى ايضاً بدوره إلى تشكيل قوّة من رجال الاحتياط الاقليمي ، دعيت كذلك بالأجناد ، وتألّفت من اولئك الجنود الذين لم يُستنفروا بشكل دائم وأعيلوا بمنحهم الأراضي . وبما ان هذه القوات الاحتياطيّة الإقليميّة تشهد عليها المصادر بالنسبة لوجودها في مصر خلال القرن الثاني عشر(١٠) ، فقد تكون قائمة في سورية على زمن الحملات الصليبية الباكرة . فسواء كان رجال القبائل الرُّحل من العرب يُحسَبون عادة من بين الأجناد أم لا ، هذا ما يبقى عرضة للشك . ومن المحتمل انهم شكّلوا جنداً مستقلا . يماثل عسكر التركمان .

وكان الجنود الذين تألّفت منهم الأجناد ، على غرار العساكر من الراكبين ، وقد ميّزهم هذا الشيء اكثر من أي فارق في التنظيم عن الخطّ الثالث من القوات ، أي جنود المشاة . ومن جهة اخرى ، فإن الأجناد لم يكونوا كقاعدة من رماة السهام ، بل حاربوا بالرمح والسيف . وتألّف الراجلون من عناصر مختلفة : القوات المجنّدة من المدن ، ورجال الأرياف المُكرهين على الخدمة ؛ والمتطوعون الساعون وراء المكافآت الزمنيّة والروحية للمشاركة في الحرب المقدسة (الجهاد) والتابعون الملحقون من كافة الأجناس والأديان . وكان تدريبهم العسكري وانضباطهم ، على غرار تجهيزاتهم ، تحت رحمة الحظّ ؛ ورغم انه لا حاجة إلى التشكيك بشجاعتهم ، فإن قيمتهم العسكرية كانت ضئيلة عموماً . أمّا دورهم في سير العمليّات ، فيبدو انه انحصر بوظائف فرعية مثل إقامة المنشآت والدفاعات العسكريّة وعمليات زرع الألغام اثناء الحصار ، وحماية المعسكرات والمرابطة كحاميات في القلاع والحصون .

تألفت الدروع التي لبسها الفرسان المسلمون في العادة من سترة زرديّة تتدلّى منهـا « تنوّرة » على العموم ، وخوذة مستديرة لها قنـاع من

١٠ – قارن بالسطر الأخير ، ص ٣٣١ من ابن القلانسي .

لكنها بدون جزء أمامي متحرّك لتغطية الوجه ، كما تمنطقوا معها ترساً دائرياً خفيفاً . أما رجال الخيّالة ذو الأسلحة الخفيفة فقد ارتدوا جركينات جلديّة (والجركينة هي السترة الطويلة الضيّقة لاكمّين لها) أو سترات مضرّبة ومحشوة (الكزاغند) بدلاً من السترات الزرديّة . وخلال سير الحروب الصليبية تبنى المسلمون خصائص متنوعة من سلاح الفرنجة ، مثل الأجزاء الأماميّة المتحركة في الخوذات واللفائف الواقية للسواعد الخ . فالخيول تبدو على العموم انها كانت بلا حماية . والأسلحة الرئيسيّة لراكبي الخيل المسلمين كانت القوس والرمح والسيف . إن رماحهم الخفيفة والقصيرة نسبياً قد وضعتهم في البداية بوضع غير موآت أثناء مقاتلة الفرنجة ، لكن هذا النقص جرى تلافيه بواسطة ربط قصبتين للرمح سويّة(١١) ؛ وبالتالي في تبنّيهم للرمح الفرنجي الثقيل . واحتُفظ بمعظم الدروع والأسلحة ، حين لم تكن قيد الاستعمال ، في مستودع الحاكم (دار الصناعة) القائم داخل قلعته وتحت أمرة واحد من ضبـــاط عسكره الموثوق بهم إلى أقصى درجة . فعندما كانت الأوامر تصدر للعسكر بأن يستعدّوا لحملة ما ، يتمّ توزيع المعدّات اللازمة على القوات ، وقد أعيدت الأسلحة إلى مخزنها لدى عودتهم . أما الأجناد فقد زُودوا بالسلاح أحياناً من المستودع ايضاً ، لكن المتوقّع منهم على ما يبدو هو ان يقوموا على تزويد انفسهـم بأسلحتهم وخيولهم . والمخزون الإضافي من الأسلحة والدروع جرى حمله في قوافل التموين . كما قام المشاة على تزويد انفسهم بأسلحتهم ، مثل الاقواس والسيوف والخناجر ، أو على الأقلّ بتلك السنابك الحادّة التي تقسّيها النار وتستعمل كجرائد (ج جريد) أو رماح .

أثناء الحملات كانت ترافق العسكر قافلة كبيرة للتموين ، محمولة عموماً

---

١١ — انظر اسامة بن منقذ ، طبعة حتي ، ١٠١ ، ١١ — ١٢ .
(**An Arab-Syrian Gentleman**, 131).

على ظهور الجمال والبغال ، ممّا ألزم بتحرّكات بطيئة كقاعدة . إلا انه تعوزنا التفصيلات عن نظام تزويد الجيش بالطعام (« الميرة ») ، ومن الجليّ أن نوعاً من التنظيم كان موجوداً لنقل المؤن والعلف ، وان جمع العلف دون تمييز ، وعلى الأقل في الأراضي الصديقة ، كان أمراً غير مستحسن . لقد كانت صعوبة الحصول على مؤن محليّة كافية ، من جهة أخرى ، هي أحد الاسباب الّتي جعلت من النادر القيام بحملات خلال الشتاء ، وحتّى في الأوقات الأخرى من السنة كانت الحملات تنحصر عادة بالهجمات السريعة الّتي لا تستغرق اكثر من شهرين أو ثلاثة أشهر في كل مرّة . ويبدو ان الصليبيين قد اعطوا القدوة في إنشاء معسكرات خاصّة لتنفيذ حملات الشتاء .

كانت الصيغة العادية للهجوم تقضي باتّخاذ موقع مقابل للعدو والدخول اولاً في مبارزة برمي السهام . فاذا ما أظهر العدو بوادر ضعف ، كان الفرسان يتقدّمون برماحهم ويشتبكون في قتال بالسيف على نحو ملتحم . ويبدو ان الهجوم على خطّ غير منقطع كان متجنّباً على العموم ، بالإضافة إلى التهوّر غير الملائم في منازلة العدو . لقد حافظ الفرسان العرب على تكتيكهم التقليدي في التقدّم والانعطاف (الكرّ والفرّ) بحركة تحفزيّة قبل وصولهم إلى الخطّ المعادي ، ثم حين تحرّك العدو في تعقّبهم كانوا ينعطفون من جديد عند نقطة متفق عليها مسبقاً ويكرّون عليه . إن النقد يوجّه غالباً للصليبيين على حذرهم المفرط ، لكن « هجمتهم الشهيرة » كانت تُقابل بخوف جامع . فالمشاة لم يلعبوا دوراً يذكر في المعركة الفعليّة ، ومصائر اليوم كانت تقرّرها هجمة الفرسان ، بينما جرى تقطيع مشاة القوّة المهزومة إرباً إرباً دون رحمة ، وأخذهم كأسرى بواسطة الخيّالة المنتصرين .

كان فنّ التحصين وعمليّات الحصار قبل مقدم الصليبيين بسيطاً نسبيّاً . وعلى سبيل القاعدة ، كانت تجري في البدء محاولة للاستيلاء على المدينة أو

القلعة بواسطة الهجوم المباشر ، ومن الأفضل ان يكون الهجوم مفاجئاً . فلو أخفق هذا الأمر ، كان الجيش المهاجم غالباً ما يتراجع إلى الوراء بدون مزيد من الضجة الصاخبة ، أو أنه يكتفي بمجرّد محاصرة المكان على أمل تجويعه حتى الاستسلام . وكان السلاح الرئيسي للحصار هو المنجنيق ، يضاف اليه احياناً ويؤازره الكَبش ، إذ يرجع استخدام هاتين الآلتين إلى الرومان في نهاية المطاف . أما الطريقة الأشد فعاليّة لإحداث الثغرات فكانت تقضي بحفر خندق عميق ضيّق تحت برج من الأبراج أو قسم من الجدار ، وإشعال نار تحته لكي تتسبّب في انهيار الأرض وتقويض دعائم البنيان . لكن هذه الطرق كانت بدون جدوى ضد حصن مشيّد على الصخر ، خصوصاً متى كانت أسسه ، كما هي الحال في بلاد الشام غالباً ، من المعمار القديم الصلب ، وقد استطاع الحاكم المصمّم ان يصمد على العموم ضد الهجمات لفترة غير محدّدة من الزمن . إن قسماً لا يستهان به من نجاح الصليبيين كان يرجع حقاً إلى طرقهم الأكثر شمولا في الحصار وإلى متانة تحصيناتهم .

* * *

الفصل الثالث

المصادرُ العربيةِ عن حياة صلاح الدّين*

لقد أحلّ جميع المؤرخين الذين قاموا بدراسة حياة صلاح الدين مصدرين عربيين في المنزلة الأولى : المصدر الأول هو سيرة حياة صلاح الدين في كتاب بهاء الدين يوسف ابن شدّاد («النوادر السلطانيّة والمحاسن اليوسفيّة ») وقد نشرت ترجمة لها في المجلد الثالث من Receuil des Historiens des Croisades : Historiens Orientaux ، والثاني هو كتاب التاريخ العـام « الكامل » لعزّ الدين ابن الأثير (وتوجد ترجمة جزئيّة منه في المجلدين الأول والثاني من السلسلة المذكورة آنفاً) . أما بالنسبة لموثوقيّة المصدر الأول وامكان التعويل عليه فلا يمكننا الآن ان نضيف شيئاً يُذكر إلى شهادة ستانلي لين — بول في مقدّمته (ص vi) لكتاب صلاح الدين ، الصادر في سلسلة « أبطال الأمم » (لندن ونيويورك ، ١٨٩٨) . ويكتب بهاء الدين (١١٤٥ — ١٢٣٤) في حسّ سليم وصدق هما على غاية الرزانة ، وانا لا أستطيع العثور في كتابه على شيء حتى من ذلك « التحيّز الشخصي والإغراق في الغلو الشرقي » اللذين

---

* راجع مقالة هـ.أ.جب عن « المصادر العربية لحياة صلاح الدين » في مجلة **Speculum** ، (XXV) ، ص ٥٨ ، ٧٢ .

وجد لين – بول انه من الضروري الاعتذار عنهما . لكنّه لم يتصل مع صلاح الدين مباشرة الا في سنة ١١٨٤ ، كواحد من سفراء الموصل ، ولم يلتحق به أخيراً كقاضٍ للجيش حتّى كانت سنة ١١٨٨ . ومنذ ذلك الحين فصاعداً ، أي خلال فترة الحملة الصليبية الثالثة بأكملها ، فهو لا يقدّم سجلاً اميناً للأحداث كما رآها فحسب ، بل يعطينا كذلك ، عبر مركزه كمؤتمن على أسرار صلاح الدين وصديق حميم له ، تبصّراً ثاقباً (كما ليس بوسع أي تاريخ عادي ان يفعل) في الدوافع التي حركت صلاح الدين على اتخاذ العديد من القرارات الحاسمة . أما بالنسبة للتسعة عشر عاماً الممتدة بين عامي ١١٦٩– ١١٨٨ ، فإن بهاء الدين لا يستطيع الرواية ، من جهة أخرى ، إلا بطريقة غير مباشرة ، وغالباً ما يكون على خطأ بالنسبة للتفصيلات الوقائعية والتسلسل الزمني. ولقد تمتّع ابن الأثير (١١٦٠ – ١٢٣٤) ، وهو زميل بهاء الدين في الانتماء إلى الموصل ، طيلة قرون عديدة بشهرة كونه واحداً من أعظم مؤرخي الاسلام ، حتّى انه ليبدو من نافل القول تقريباً أن يصار إلى البحث في مؤهلاته وجدارته بالاعتماد والقبول ، لا سيما وانه قد عاصر صلاح الدين وكان على اتصال شخصي بادارة الموصل وبالتالي في وضع يسمح على الأقل بمعرفة الوقائع الخارجيّة . ومع انه قد شاهد صلاح الدين دون ريب ، في كل من الموصل وبلاد الشام على السواء ، فلا يوجد أي دليل هناك على انه اتصل بصلاح الدين اتصالاً شخصياً البتة . إن تحامله على صلاح الدين ذائع الشهرة ، لكن رواياته للأخبار قد حظيت بالقبول عموماً ، مع التماس الاعتذار لواقعة التحامل ، فجرى اعتبارها صادرةً عن مؤرخ معاصر للأحداث وحسن الإطلاع عليها. والنتيجة الرئيسية التي سوف تتوصل اليها مقالتنا هذه ، مؤداها ان هذه النظرة لا يمكن الاحتفاظ بها بعد الآن .

من المعلوم انه كان يوجد ايضاً مصدران معاصران هامّان ، وقد جرى وضعهما جزئيّاً في متناول دارسي الحروب الصليبيّة من خلال المنتخبات أو

التلخيصات التي قام بها ابو شامة (١٢٠٣–١٢٦٧) في عمله المعروف بـ كتاب الروضتين (والمترجم جزئياً في الجزئين الرابع والخامس من R. H. C. Or.). كان أحد أولئك الكتّاب مؤرخاً في حلب ، هو ابن ابي طيّء (حوالي ١١٦٠ – ١٢٣٥ لذا فقد كان معاصراً تماماً لابن الأثير (، الذي يمتاز وحده بين المؤرخين اللاحقين بكونه شيعياً(١) ، ولربما أسهمت هذه الحقيقة في اختفاء النص الأصلي لمؤلفاته . فالمنتخبات الباقية تظهره بانه كان كاتباً أصيلاً ، على اهتمام خاص بالتفاصيل الاجتماعية والطوبوغرافية ، لكنه يضمر شيئاً من التحامل على نور الدين الذي نفى أباه من حلب . كما توجد أقسام لا يستهان بها من تاريخه في تاريخ عربي عام ومتأخر ، هو تاريخ ابن الفرات (توفي ١٤٠٥) ، لكن الجزء الذي يتناول السنوات الممتدة من ١١٧٢ إلى ١١٩٠ هو مفقود .

أما الكاتب الثاني والأشد أهميّة الذي استعان ابو شامة بمؤلفاته فهو عماد الدين الاصفهاني « الكاتب » (١١٢٥–١٢٠٠) . والحق يقال إن القسم الأعظم من كتاب **الروضتين** يمكن وصفه بأنه تلخيص للأثرين اللذين كرسّهما عماد الدين لحياة صلاح الدين ، مع مواد إضافية مستقاة من مصادر اخرى . إن الأثر الأوسع شهرة بين هذين الأثرين ، وعنوانه **الفتح القسي في الفتح القدسي** ، يبتدىء بالاستعدادات لمعركة حطّين عام ١١٨٧ وينتهي بوفاة صلاح الدين واقتسام امبراطوريته عام ١١٩٣ ، فهو يغطّي إلى حدّ بعيد الفترة ذاتها على غرار القسم الأول والمباشر من سيرة صلاح الدين لبهاء الدين ابن شدّاد. وتوجد هناك عدّة مخطوطات لهذا الأثر وصلت إلينا ، ولقد نُشر النصّ عام ١٨٨٨ على يد الكونت كارلو لاندبرغ . وبما ان العماد الاصفهاني كان كاتباً شخصياً

---

١ – انظر مقالة كلود كاهن :

« Une Chronique Chiite au temps des Croisades » :

المنشورة في **C.R. de l'Acad. des Inscriptions et Belles Lettres**

(Paris 1935). pp. 258 – 269

لدى صلاح الدين منذ ١١٧٥ . فإن جدارة كتابه بالقبول والاعتماد لا تقلّ عن مؤلّف بهاء الدين : غير ان القلّة من المؤرخين الذين استعانوا مباشرة بالنصّ تذمّروا بصوت واحد مما دعاه لين - بول بـ « خطابيّته التي لاتحتمل». ذلك ان العماد « الكاتب » ، كما يسمّى عموماً ، كان واحداً من أشهر المؤيّدين الكلاسيكيين لذلك الاسلوب النثري في الانشاء المتميّز بشدة الزخرفة والسجع البلاغي ، وهو الأسلوب المستخدم في ديوان الرسائل في الممالك الإسلاميّة القروسطيّة ، وليس له في زمانه من يجاريه في ذلك سوى رئيسه الرسمي القاضي الفاضل الذي كان وزيراً للدولة عند صلاح الدين وتولّى عنه إدارة الدواوين .

يتكشف كتاب « الفتح » عن كل ميزات هذا الاسلوب الدواويني ، باشتماله على فقرات خطابيّة منشأة حول الفصول وغيرها من الموضوعات ، وبمقدّماته الطنّانة لروايات الأحداث ، والمنتخبات المتكرّرة من مكاتبات المؤلّف ورسائله . ويعلّل هذا التنميق في اللغة - وهو الذي يوازي عموماً لدى القراء الغربيين فراغاً في المحتوى وإطراءً مقيتاً - إلى حدّ كبير الإهمال النسبي لعمله ، مع العلم بأن خصائصه الاسلوبية لا تقرّر في حدّ ذاتها على ما يبدو جلياً نوعيّته كمصدر تاريخي . كذلك فان قراءته صعبة (حتى بالنسبة للقراء العرب ، كما يشير ابو شامة بنفسه) . وليس هناك ما يدعو إلى الدهشة بأن القليلين هم الذين ردّدوا أصداء حكم محرّره :

« وكنت كلّما تقدّمت في عملي ، ازددت وقوعاً تحت سحر كلام الكاتب الشهير . فلم أقرأ البتة شيئاً نظيره ، كذلك لم يقع نظري على ما هو أصعب منه من وجهة النظر المعجميّة ... لقد رجعت ... مليئاً بالحماسة لمؤلّفي » .

غير ان « الفتح القدسي » لم يكن العمل الرئيسي الذي كرسّه عماد الدين لتاريخ صلاح الدين . فهذا العمل الرئيسي كان تأريخاً لاحقاً وشاملاً في سبع مجلّدات بعنوان « البرق الشامي » ؛ يشمل الفترة كلّها من ملازمة المؤلّف لصلاح الدين ، ومن جملتها السنوات الباكرة عندما كان الإثنان ما زالا يعملان

في خدمة نور الدين . وعلى غرار معظم التواريخ العربيّة الضخمة للقـــرون الوسطى ، فإن « البرق الشامي » سرعان ما سقط من التداول لصالح التلخيص الذي قام به ابو شامة . فلا تعدو الأقسام الّتي يُعرف عن وجودها ، إلى جانب إشارة غامضة لوجود مخطوطة له أو مخطوطات في ليننغراد ، سوى مجلّدين في مكتبة بودليان بأكسفورد : المجلّد الثالث وهو يتناول السنوات الهجريّة الممتدة من ٥٧٣ إلى ٥٧٥ (تموز ١١٧٧ – أيار ١١٨٠) ، والمجلّد الخامس ، وهذا يتناول سنة ٥٧٨ هجريّة حتى بداية ٥٨٠ (أيار ١١٨٢ – تموز ١١٨٤) . فالحديث المفصل عن هذين المجلّدين ومحتوياتهما سوف يأتي في مكان آخر من هذه الدراسة . والشيء الأكثر أهميّة هنا يتعلّق بتبيان نوعية الضوء الذي يلقيه هذان المجلّدان على قيمة « البرق الشامي » كمصدر تاريخي وعلى علاقته بالمصادر الأخرى المعروفة .

يوضح النص الأصلي لكتاب « البرق الشامي » (كما قد يمكن استنتاجه من منتخبات ابي شامة ومن « الفتح القسّي ») بأن تاريخ عماد الدين ليس في أي معنىً تاريخاً عادياً لرواية الأحداث . بل هو اكثر منه في طبيعة المفكرة المهنيّة أو السجّل لنشاطات المؤلّف الكتابيّة ، وقد جرى تزويده بوفرة من نسخ رسائله أو مقتطفات منها ، وبمراسلاته شبه الخاصة مع القاضي الفاضل ، وشهادات التعيين لمختلف المناصب ، والّتي كانت من إنشائه ، بالإضافة إلى مناسباته الادبيّة والشعريّة ، و(أقل تكراراً) لتفصيلات شؤونه الخاصة . لكن بما ان عماد الدين لازم صلاح الدين بدون انقطاع تقريباً منذ صيف سنة ١١٧٥ وحتى وفاته ، فالكتاب هو ايضاً عرضٌ زمني للأحداث، يتسّم بميزة تسترعي الانتباه وهي ان سرد الأحداث وروايتها يتمّان عـــادة بصيغة جمع المتكلّم ، وهذه ممارسة يتحتّم لها ان تعطي انطباعاً (ولكن عن خطأ في غالب الأحيان ، على ما اعتقد) بالخيلاء والاعتداد بالنفس من جانب المؤلّف . بيد انه يشمل روايات الأحداث القليلة الّتي لم يشهدها ، ويعمد

في بعض الأحيان إلى رواية الأحداث بإيراد رسالة أو أكثر من رسائله أو رسائل القاضي الفاضل بدلاً من اعتماد السرد المباشر .

إن الخصائص الاسلوبيّة للكتاب ليست مطّردة ، بل تتنوّع أيما تنوّع من قسم إلى قسم . ففي بعض الفقرات يأتي التّركيب البلاغي موسّعاً للغاية ، وفي البعض الآخر لا يتجاوز كونه عادةً في التعبير عن كل شيء بالنثر المسجّع ، وهو نثر مباشر وغير متكلّف على نحو بارز في أحيان عديدة ، فصلاح الدين ، مثلاً ، يتمثّل كمن يتحدّث بالسجع ، لكن الانطباع السائد ، باستثناء خطبة قصيرة موضوعة أو خطبتين ، هو ان الكلام طبيعي وخال من التكلف . وعلى يدي سيّد بارع كهذا من أسياد اللغة والمفردات ، فإنّ حقيقة كون رواياته مصوغة كلّها بقالب هذا الوسيط لا تسلبها من وضوحها ودقّتها أي شيء على الإطلاق . فالذيول والمقدّمات الوافرة لها وظيفة أدبيّة مختلفة تمام الاختلاف ولا تتدخّل البتة في الفقرات السرديّة ، حيث يسترسل اسلوب النثر المسجّع إلى أقصى حدّ من الإغراق في تهمة الحشو أو الإطناب .

ولدى إمعان النظر فيها تبدو عبارات عماد الدين رزينة بشكل ملحوظ . فلو تركنا جانباً جميع مسائل الاسلوب الأدبي ، لتبيّن لنا إنّها ليست بعيدة الشبه عن الوقائع أو التقارير التي يدوّنها موظّف حيّ الضمير من موظفي سلك الخدمة المدنيّة (كما كان حقّاً من هذا الطراز) . هناك شيء من الصراحة في الكلام ، وانعدام للتعليق إمّا « مع » أو « ضد » ، وحتى انه يوجد نوع من التجرّد المقابل عرضيّاً لتوحدنه الرسمي ذاتيّاً مع الأحداث من خلال الاستخدام المتواصل لضمير المتكلّم : « نحن » . وانها لمفارقة تقريباً ان يكتسي مثل ذلك التاريخ الحصيف والوقائعي برداء من طراز تلك الغزارة الأدبيّة والجماليّة . إن مسألة التعويل عليه سوف يأتي بحثها فيما بعد . لكن الكاتب الذي يتحدث عن انسحابه من الحملة على الرملة بسبب برودة القدمين سنة ١١٧٧ ويستشهد بتعليقات أصحابه حول هذا العمل ، يوحي لنا منذ البداية ببعض الثقة في كونه صادقاً .

ومع أن اسهاب عماد الدين الأدبي انقص في السياق الطويل من تداول

كتاباته ، فإنها لحقيقة شائعة بأن جيل المؤرخين بعده قد أدرك قيمتها تماماً واستند إليها بشكل واسع . كان من الصعب قبل ذلك تقرير الحدّ الذي ذهبت إليه اقتباساتهم . وفي الصفحات التالية سوف يتمّ تحليل الروايات العائدة لأشهر هذه التواريخ ، تاريخ **الكامل** لابن الأثير ، عن السنوات التي تتناولها المجلدات الموجودة لدينا من كتاب **البرق الشامي** ، وستجري محاولة لتبيان العلاقة الدقيقة بينهما .

في السنة ٥٧٣ هجرية : يبدأ ابن الأثير بروايته عن هزيمة صلاح الدين في الرملة (628 – 627 .I ، 293 – 292 ,Xi) (٢). ويتضح من التفاصيل المتضمنة في الرواية بأنها مأخوذة كلياً عن « **البرق الشامي** » ، مثل بسالة بن تقي الدين (باعتبارها نسخاً لفحوى إحدى الفقرات « الملحميّة » لدى عماد الدين : **البرق الشامي** (III, 13v – 14r) ووقوع عيسى الهكّاري في الأسر وافتداؤه فيما بعد ((IV, 187) I, 973, 11.22-25 , ابو شامة = 15 r) تلي هذا روايته للهجوم على حماه من قبل إقلندس أو فيليب أوف فلاندرز ((I, 630) XI, 294) ، «والسبب في الهجوم هو ان أحد أعظم كونتات الفرنجة كان وصل إلى فلسطين بطريق البحر ، ولدى رؤيته بأن صلاح الدين رجع إلى مصر مهزوماً ، اغتنم فرصة وجود البلاد في حالة عديمة الدفاع . لأن شمس الدولة (توران شاه) كان في دمشق مقدماً عند صلاح الدين وبصحبته بعض القوّات ، إلى جانب انغماسه في ملذّاته وكونه راغباً عن العمل» .

هنا ايضاً نجد ان اعتماد ابن الأثير على كتاب **البرق** يبدو واضحاً ليس فقط من حقيقة كون ترتيبه للجُمل يقتفي بالضبط ترتيبها في البرق III, 25 r ، بل إن

---

٢ الفقرات المأخوذة من ابن الاثير يستشهد بها اولا في طبعة تورنبرغ المقياسية ، والمأخوذة عن أبي شامة في طبعة القاهرة عام ١٢٨٧ هـ (١٨٧٠م) . والإشارات إلى نص الـ **Receuil** عن المؤرخين الشرقيين تعطى بين قوسين ذي زوايا قائمة . أما المنجمة عقب الإسناد فتدل على كون الفقرة قد حذفت من الـ **Receuil**

تركيب الأحداث هو ذاته من الناحية العملية (راجع ابا شامة (2 – 191 ,IV) (275 ,I).
وبأن ذلك لا يرجع إلى الاستشهاد برسالة رسميّة ، هذا ما يتضح من وصف سلوك توران شاه الذي ما كان ليجد محلاً له بالتأكيد في رواية رسميّة . لكن ابن الاثير يضيف شيئاً إلى مصدره ، في العبارة القائلة بأن الهجوم على حماه دعت إليه مناسبة هي هزيمة صلاح الدين في الرملة . وهذا يمكن نسبته إلى أمرين فحسب: إما إلى اللامبالاة بحيث يكون ابن الأثير قد ضلّلته حقيقة كون الهجوم على حماه في كتاب البرق يلي الرواية عن حملة الرملة ، أو إلى الخطأ المتعمّد يدعمه إخفاء تواريخ الحادثين . فالبرق يذكر بوضوح تاريخ الهجوم على حماه يوم ٢٠ من جمادى الأول (١٤ تشرين الثاني ١١٧٧) وهزيمة صلاح الدين في الرملة يوم الأول من جمادى الثاني (٢٥ تشرين الثاني) ، بينما لا يأتي ابن الاثير إلاّ على ذكر جمادى الأول فقط في كل من المدخلين ، ولا يذكر تاريخاً دقيقاً للحادثة الأولى .

كذلك الرواية اللاحقة للأحداث في حلب (663 – 631 ,I) (295 – 294 ,XI) فإنّها تتابع البرق في الترتيب والتفاصيل (r 25 – r 23) ، حتى إلى درجة وصف التعذيب الذي ذاقه كمشتكين في حارم بعبارات عامّة بدلاً من التفصيلات الدقيقة التي حوتها روايته السابقة في تاريخ الاتابكة (325 ,2 ,II) . وجدير بالملاحظة انه يختم فقرته بالكلمات التالية : « عندما رأى الفرنجة هذا ، تركوا حماه ومشوا إلى حارم في جمادى الأول ، كما سوف نرويه » . لكنّه في الواقع كان قد أورد هذه العلاقة في الصفحة السابقة من **الكامل** ، بينما هي في البرق تلي ذلك مباشرة .

أما الحادث الآخر ذو الصلة ببلاد الشام الذي يذكره ابن الأثير في هذه السنة فهو رواية بلا إسناد عن هجمة غير ناجحة شنّها مجموع غير محدّد من الفرنجة ضد اراضي حمص ((632 ,I) 297 ,XI) .والفقرة مأخوذة برمّتها من

رسالة إلى بغداد ، حيث ان البرق (ص 43V وما بعدها) يورد منتخبات منها ، يرد ذكر الحادثة في الورقة 44V وهي مغلّفة بعبارات مماثلة . لكن ابن الأثير ، إذ عثر عليها في هذه الصيغة المفردة ، قصّر عن الملاحظة بأنها تتصل بالمناسبة ذاتها مثل الهجوم الفاشل على حماه (وفي كلمات الرسالة : « بينما كانوا يمرّون عند تخوم حمص ») والحادثة بحدّ ذاتها يؤكّدها غليوم الصوري XXI, 19 ، وفي الترجمة II, 425 .

السنة الهجرية ٥٧٤ : إن الروايات الموجزة للأحداث في سورية والتي تشغل الفصل كلّه عن تلك السنة (هجوم الفرنجة على حماه ، ثورة ابن المقدم وحصار بعلبك ، وغيرها من الهجمات الصليبية) كلها تنسخ مادة روايات عماد الدين . غير انه مما يقبل الجدل انها قد تكون مستقاة من رسائل رسميّة ومصادر أخرى ، والألفاظ العامّة بالذات التي يستخدمها ابن الاثير لا تسمح بأي برهان على وجود اعتماد مباشر .

السنة الهجرية ٥٧٥ : يرتكز الخبر عن معركة مرج عيون (٩ حزيران ١١٧٩) دون ريب إلى رواية عماد الدين . والملاحظة المُقحمة عن مبلغ فدية باليان (I, 636)(XI, 301 مأخوذة من البرق III, 131 (أبو شامة (IV , 199) II, 8 حيث تؤلّف مادّة واحدة في قائمة أطول . والاهتمام الخاص الذي يُولى إلى أعمال فروخ شاه الجريئة يعكس ايضاً فقرة عماد الدين الخاصّة عن الموضوع ذاته (الورقة ١٣٦) ويستشهد ببيت الشعر نفسه . فالرواية التالية عن تخريب ، قلعة الداوية في « مخاضة الأحزان » ربما كانت مأخوذة عن رسالة رسمية لكنها تتابع البرق على نحو وثيق يصعب معه افتراض أي مصدر آخر ، ولا سيّما في التفصيل المتعلّق بنداء الأمير الخولي إلى صلاح الدين كي يسمح له بتجريب حظّه في هجوم مباغت ، فهو موجود في البرق (141r) لكنه ناقص في تلخيص أبي شامة (II, 11) . وإشارة ابن الاثير في نهاية روايته إلى العدد الكبير من القصائد التي نُظمت حول الموضوع هي مستوحاة بالتأكيد من

القصائد (ومجموعها أربع) المُستشهد بها في البرق ، والأبيات التي يذكرها مأخوذة عن القصيدتين الاوليين بين هذه القصائد الأربع .

والرواية التي تلي ذلك مباشرة عن المعركة بين تقي الدين وسلطان قونيـا السلجوقي (I, 639) XI, 303) هي مستقاة ايضاً بكل وضوح من عماد الدين. يبدأ هذا الأخير روايته بالملاحظة ان تقي الدين كان غائباً عن العمليات في « مخاضة يعقوب » (مخاضة الأحزان) لهذا السبب ، وهي ملاحظة يضعها ابن الأثير في النهاية . وهناك دلالة أشد حسماً تحويها الأرقام المعطاة عن الجيش السلجوقي. فعماد الدين يجعل الرقم من ٢٠,٠٠٠ رجل(البرق III, 138 r — ابو شامة II, 9 *) . والرواية الموازية لدى ابن ابي طيء تضعه عند «٣,٠٠٠ من رجال الفرسان » (ابو شامة ، المكان نفسه) ، بينما يتحدث ابن الاثير عن « قوة قيل إن قوامها كان ٢٠,٠٠٠ رجل » . ويمكن في هذه الحالة استبعاد الفرضية عن رسالة رسمية ، لأن عماد الدين ينسخ ايضاً نص الرسالة التي بُعثت إلى الموصل بهذه المناسبة (البرق 138 V – 139 r) ، وفي هذه الوثيقة يُعطى عدد الجيش السلجوقي بـ ٣٠,٠٠٠ رجل .

وفي «ذكر عدّة حوادث»الذي يختتم به ابن الأثير عادة أحداث السنة، نجده قد أدرج ((I, 640) 305 – 304) عبارة مفادها انصلاح الدين،إزاء العرض الذي قدّمه توران شاه بمبادلة بعلبك مع الاسكندريّة،في شهر ذي القعدة (أي: نيسان سنة ١١٨٠) ، قام باعطاء بعلبك لابن أخيه فرّوخ شاه ، الذي عمد بعد ذلك إلى مهاجمة أراضي الفرنجة حتّى صفد . فهو قد جمع هنا ، كما فعل غالباً ، فقرتين في واحدة ، لكن الفقرة الأولى تسبق الثانية بسنة . إن توران شاه غادر إلى مصر عند نهاية ذي القعدة عام ٥٧٤هـ (ايار ١١٧٩) (البرق 120 V–121 r = ابو شامة II, 6 (٣)) . وتمّ تعيين فروخ شاه على بعلبك في سنة ٥٧٥ هـ ، أما

---

٣ – جرى إدراج هذا التاريخ خطأ تحت عام ٥٧٣ هـ في **R.H.C. Or.**, IV, 196

إغارته على صفد فتمّت في شهر ذي القعدة من تلك السنة (يؤرخها عماد الدين بالضبط في ١٨ منه : ١٥ نيسان . راجع ابا شامة II, 15 *) .

سوف يتبيّن من هذه الخلاصة انه بالنسبة لتاريخ بلاد الشام خلال هـذه السنوات الثلاث لا توجد واقعة مذكورة في تاريخ ابن الاثير دون ان يذكرها كتاب عماد الدين ، باستثناء العبارة المخطئة بصدد الهجوم على حماه في تشرين الثاني ١١٧٧ وذكرى شخصيّة صغيرة عن رؤية رسالة لصلاح الدين (يرد الحديث عنها في المجلد XI, 2093) . والواقع ان الشيء الوحيد الذي يحول بيننا وبين التوكيد الصريح بأن كل واحدة من هذه الروايات كانت مستقاة من البرق هو العادة التي درج عليها ابن الأثير بثبات في إعادة صياغة محتوى الفقرات التي يستخدمها بلغته الخاصة ، مما يؤدّي إلى استبعاد الحجّة النهائية عن التطابق في التعبير اللغوي .

السنة الهجرية ٥٧٨ : يستهل الجزء الذي وصل الينا من المجلد الخامس لكتاب البرق حديثه بمسيرة صلاح الدين إلى أعالي ما بين النهرين في أواخر صيف ١١٨٢ . ويوضح عماد الدين بانه قد أتى إلى الشمال تحدوه النيّة الحقيقية لمهاجمة حلب ، وان خططه لم تتبدّل على نحوٍ غير متوقّع إلاّ عقب وصوله إلى هناك ومن جرّاء الشكاوى التي رفعها كوكبوري . أما ابن الاثير (XI, 317) I, 653 – 654z) ، من جهة ثانية ، فيعلن بأن كوكبوري كان على اتصال مع صلاح الدين خلال الهجوم الفاشل على بيروت في شهر آب ، وان التقدّم اللّاحق على حلب كان خدعة . والسبب الكامن وراء استبداله لعبارة عماد الدين المستقاة من مصدر أولي بهذه الصيغة ليس واضحاً . ربما كانت هذه هي الصيغة الشائعة في الموصل ، ولهذا السبب فقد فضّلها . لكن هذا الأمر يشبه الى حدّ قريب ظاهرة يتكرّر العثور عليها في كتابه ،وسوف يأتي بحثها فيما بعد . وتوصف العمليات في بلاد ما بين النهرين في المصدرين

على نحوٍ مشابه للغاية ، فلا تعدو إضافات ابن الاثير سوى إضافة واحدة وهي حكاية شخصيّة صغيرة تتعلّق بحصار الرها . إن رواية عماد الدين ممعنة في الزخرفة والتنميق ، وابو شامة في تلخيصه قد اختصر كل صفحة الى سطر واحد (II, 32*) ، لكنه بعمله هذا حذف الإشارة إلى حصار الرها والتي توجد في النصّ الأصلي (الورقة 20 r) . هكذا نرى للمرة الثانية في هذه الملّخصات بأن ما ظهر من تلخيص ابي شامة وكأنه ذيول أضافها ابن الأثير لروايات عماد الدين كان يؤلّف على حدّ سواء اجزاءً من النـــــص الأصلي .

ويقف ابن الأثير فوق أرضه الخاصة بالنسبة لحصار الموصل ، لكن ما يجب الإقرار به هو أن روايته (XI, 319 – 320) تعطي انطباعاً مرضياً للغاية. إن وطنيّته تستهلك نفسها في نوادر تافهة وخياليّة (ومعظم هذه النوادر قد حذفهـــا محرّرو Receuil, I, 656 – 657) ، على حساب استبعاد العوامل العامّة في الوضع ، وهي عوامل ، بعكس ذلك ، يجري إبرازها على خير وجه في السطور القليلة التي كتبها زميله المواطن الموصلي بهاء الدين . غير ان خلاصته للمفاوضات مع صلاح الدين تتفّق ، على الأقل بالنسبة لنتائجها ، مع الرواية التي يوردها عماد الدين (البرق V, 11 – 16) ، الذي كان المفاوض الفعليّ بالأصالة عن صلاح الدين .

ولا تضيف الرواية التي تلي مباشرة عن العمليات في الجزيرة (XI, 321 – 323*) أية معلومات إيجابية إلى العبارات الواردة في البرق (ص ١٧ وما بعدها ، ص ٤٩ وما بعدها) ، لكن ابن الاثير يُدخل ، كما في روايته لحصار الموصل، بعض التفاصيل المشتملة على النوادر وتأملات عامّة لها حظّ ضئيل من الصحّة التاريخية أو انها لا تملك أي صحّة تاريخيّة . وممّا يجب تذكره ان إحدى الصيغ الشائعة لكتابة التاريخ العربي هي تقديم وضع من خلال أحاديث متخيّلة أو عبارات على لسان الاشخاص المعنيين ، وليس هناك من مبرّر على الإطلاق

لاعتبارها بمثابة سجلات للأحداث الفعليّة . ان ابن الاثير يذهب إلى درجة الإفراط في هذا الأسلوب « الرومانسي » . لكن عماد الدين ايضاً يلجأ إليه من حين إلى آخر ، تارة بنجاح وطوراً بصورة مضلّلة – كما يفعل ، على سبيل المثال ، في تصويره لما يفترضه بأنه كان سياسة الصليبيين أو موقفهم في لحظة معيّنة .

إن العمليّات البحريّة في البحر الأحمر والتي استدعتها مغامرات ارناط (رجينالد) الجريئة قد جرى اعلانها بالتأكيد على كافة انحاء العالم الإسلامي بواسطة الرسائل. ويجمع حديث ابن الاثير عنها ([XI, 323 [I, 658). كما يبدو بين رواية عماد الدين التمهيدية ([II, 35 [IV, 230 H أبو شامة = V, 42v) والرسالة التي حملها هو بالأصالة عن صلاح الدين إلى بغداد = 45 V – 46 V) ابو شامة ، ([II, 37 [IV, 233 – 35 . أما وفاة فرّوخ شاه واستبداله بابن المقدّم والياً على دمشق ([XI, 324 [I, 659) ، فإنهما يوصفان بالطبع وصفاً أطول بكثير في **البرق** (36 r ff., 46 r) .

السنة الهجريّة ٥٧٩ : تفتتح هذه السنة بمحاصرة صلاح الدين لمدينة آمد وباستيلائه عليها (*XI, 324 – 325) ، وقد كرّس عماد الدين لهذه الحادثة أحد الأقسام الأشد صقلاً في كتاب **البرق الشامي** (*II, 37 – 38 ابو شامة; 49 r – 65r). فلا مجال هناك للشك المعقول بأن هذا يؤلّف المصدر لرواية ابن الاثير التي لا تفترق عنه إلا بتفصيل واحد . فابن الأثير ، لكي يفسّر نجاح صلاح الدين غير المتوقّع ، ينحي باللّوم ، بصورة واهية نوعاً ما ، على جشع الحاكم ، بحيث يتعارض قوله مباشرة مع عبارات عماد الدين الصريحة (الورقة 60r). والطبيعة المصطنعة لهذه الحيلة تتبدّى في جلاء بارز من خلال كون ابن الأثير يعاود استعمالها بعد صفحة أو صفحتين من كتابه فقط للتقليل من شأن نجاح صلاح الدين في الاستيلاء على حلب .

وتسير رواية الاستيلاء على تلّ خالد وعينتاب (*XI, 325) عن كثب في

خطوط **البرق** ورسالة القاضي الفاضل الّتي يرد ذكرها هناك (V, 77v – 78r) : اما الرواية الّتي تليها مباشرة (المكان نفسه ،[I, 660]) عن الاستيلاء على سفينة كبيرة للصليبيين وصدّ هجوم للفرنجة على مصر ، فهي مأخوذة بوضوح من الرسائل الّتي يستشهد بها **البرق** ص r 105 وما بعدها (ابو شامة [IV, 239] II, 47).

ولا تحتوي رواية الاستيلاء على حلب ([I, 661] XI, 327) سوى النزر اليسير مما يتعدّى الحقائق المجرّدة وبعض التعبيرات الامتعاضيّة لأميرها عماد الدين زنكي . لكن القصّة التالية عن تنبؤ مسبق بالاستيلاء على القدس (وهو محذوف من Receuil) تصدر رأساً عن البرق (راجع ابا شامة *II, 45) . وابن الاثير في تلك الحالة يستشهد بعبارتين مأخوذتين من رسالة ، لكنها ليست برسالة رسميّة ، بل رسالة خاصة بعث بها القاضي الفاضل إلى العادل ، أخي صلاح الدين والحاكم في مصر . علاوة على ذلك ، وبطريقة مألوفة لدى الدعاويين في جميع العصور ، فإنه يعزل إحدى هذه الجُمَل عن قرينتها ويفسرها على نحوٍ يبدو مغلوطاً على الفور من خلال الاستشهاد بالقرينة كلّه (٤) .

وتستند قصة وفاة اخي صلاح الدين الملحقة برواية الاستيلاء على حلب (*XI, 328) هي ايضاً إلى مقطع عماد الدين في **البرق** (الورقة V 96) (راجع ابا شامة *II, 44). لكن ابن الاثير عالجها بطريقة اكثر « رومانسيّة » ، مضيفاً إليها إضافة مُريبة في ان صلاح الدين كان ينوي إعطاءه حلب . كما ان الحادثة التالية عن تحويل حارم تروى على المنوال نفسه كما في كتاب **البرق**

---

٤ – العبارة هي « أعطيناه (أي عماد الدين زنكي) ما لم يبارح يدنا » ، ويفسرها هو بأنها « تعني انه كان يستطيع استرجاعها متى شاء ذلك ، بسبب ضعف دفاعاتها » . لكن النص الأصلي يقول : « تلقى سيدها (أي سيد حلب) بدلا عنها بعض المناطق في الجزيرة على شرط الخدمة في الجهاد بمجموعة كاملة ومتممة من الجنود . وهكذا فهي تبقى بأيديناً في الواقع ، لأن ما نرغبه من المناطق هو رجالها وليس ريعها » (ابو شامة II, 43 ومن البرق V, 94v).

II, 47 [IV, 238]) ابو شامة = 89 V) ، حيث يتم وصفها رئيسياً عن طريق الاستشهادات المأخوذة من الرسائل .

ويلعب المدخل التالي دوراً حاسماً في إجراء تقدير لكون ابن الاثير جديراً بالثقة والاعتماد . في أعقاب الحديث عن عدد من تابعي الموصل الذين نقلوا ولاءهم إلى صلاح الدين ، يتحدّث ابن الاثير باختصار (*XI, 230) عن المفاوضات التي تلت ذلك في دمشق بين رسل دار الخلافة ورسل الموصل وبين صلاح الدين. وتُعالج الحادثة بالتفصيل في **كتاب البرق** (127r – 132v) ، بما أن عماد الدين لعب فيها دوراً رئيسياً . وبمحض صدفة استثنائية ، لدينا ايضاً عبارة من الجانب الآخر ، لأن بهاء الدين كان عضواً في وفد الموصل . إن روايته الموجزة (Schultens, 57 [III, 78 – 79]) تثبت صحة رواية عماد الدين ودقّتها . ومع ذلك ، فإن ابن الاثير استبدل النقطة الحقيقية للخلاف بمعادلة مختلفة كل الاختلاف ، لكي يتسنى له ابراز صلاح الدين وكأنه على عداء راسخ لأي تسوية للخلافات مع الموصل (٥) .

لقد انتهت السنة بحملة على بيسان (اواخر ايلول) في مسعى لجرّ الفرنجة إلى المعركة، وبحصارٍ للكرك غير مجد على حدّ سواء. فالأمر يصفه عماد الدين في رسالتين متوازيتين (ابو شامة، II, 50 – 51 ;[IV, 244 – 248] ; IIIv – 116v) بحيث تؤلّف رواية ابن الأثير (XI, 230 [I, 663]) تلخيصاً لهما. ويوصف حصار الكرك بصورة مباشرة (118r – 119r, 126r) ، إذ يقطع إطّراده تعيين العادل

---

٥ – يقول ابن الاثير (XI, 230) : « قال صلاح الدين : انتم لا رأي لكم بشأن جزيرة ابن عمر وإربيل » . فرفض محيي الدين (مبعوث الموصل) قبول هذا وقال : « إنها تخصنا » لكن صلاح الدين لم يوافق على الصلح إلا حسب الشروط التي تكون بموجبها الجزيرة وإربيل له » . ويتفق كل من عماد الدين وبهاء الدين على ان المعادلة المعروضة على محيي الدين والمرفوضة من جانبه كانت تقول بأن هذين الأميرين يجب ان تكون لهما حرية الإختيار بين سلطان صلاح الدين أو سيادة الموصل . لكن مما لا ريب فيه ان المسألة أسفرت عن النتيجة إياها في الغالب عند نهاية الأمر .

على حلب وتقي الدين على مصر . مع صكوك تعيينهما بالتتالي. ثمة تفصيل مشمول في رواية ابن الاثير ([XI, 231 [I, 664) . ويتعلق بذريعة معدّات الحصار غير الكافية . فإنه يشير بوضوح الى مصدر ابن الاثير ، لكونه مستقى مباشرة من الرواية التي ترد في **البرق** (الورقة 126r) . مع ان ابا شامة قد حذفه ([II, 51 [IV, 248).

تنتهي عند هذه النقطة الاقسام المتبقيّة لدينا من كتاب **البرق الشامي** . لكن التحليل المتقدّم يكفي لتبيان ما يلي : (أ) إن كتاب **البرق** هـذا هو المصدر الرئيسي الذي استخدمه ابن الاثير في رواياته عن أعمال صلاح الدين . وهي حقاً روايات لا تعدو كونها اعادة سبك موجزة لأبوابه الرئيسية . (ب) انه حيثما يزوّدنا ابن الاثير بتفصيلات غير موجودة في تلخيصات ابي شامة ، فهي توجد رغم ذلك على العموم في النصّ الأصلي . (ج) إن ابن الاثير يقوم أحياناً بتبديل عبارات مصدره أو بتحريف معناها مدفوعاً بالعداء لصلاح الدين. يمكننا الآن ، في ضوء هذه الاستنتاجات ، مقارنة روايات ابن الاثير عن السنوات المتبقيّة مع تلخيصات أبي شامة من كتاب **البرق** ، وتقدير القيمة التي تملكها كمصادر تاريخيّة مستقلّة . ومن الجليّ ان هذه مهمّة مطوّلة جداً حتى يتسنّى القيام بها ضمن حدود مقالة واحدة . لكن النظر في عدد من الأمثلة قد يبرّر التوصّل إلى بعض النتائج المحدّدة تماماً .

إن ابن الاثير ، فيما يتعلّق بالسنوات الباكرة لصلاح الدين في مصر وقبل وفاة نور الدين ، أي من ١١٦٩ إلى ١١٧٤ ، غالباً ما نسخ في كتابه **الكامل** المقاطع الوثيقة الصلة من كتابه الأسبق عن **تاريخ اتابكة الموصل** (والعنوان الأصلي لهذا الكتاب هو « التاريخ الباهر في الدولة الاتابكيّة » . المعرّب) . هذه الأقسام يمكن التسليم بأنها مستقلّة عن أعمال عماد الدين ، لكنها على غرار القسم المستقلّ الذي استشهدنا به فيما سبق ، تؤلّف شذرات غير مترابطة وتشتمل على الحكايات والنوادر . ومن جهة ثانية ، فإن عماد الدين كان عند هذا الحين واحداً من كتّاب نور الدين بدمشق ، وكان بالطبع واسع

الإطلاع على نشاطات صلاح الدين . فإعجابه بنور الدين كان يضاهي اعجاب ابن الأثير صدقاً وإخلاصاً ، وأقواله عند هذه الفترة هي أقلّ ما يمكن ان تكون عرضة لتهمة التحيّز المفرط إلى جانب صلاح الدين ، لذا فالأكثر مثاراً للدهشة هو ان تلقى روايات العماد إهمالاً جامعاً من جانب المؤرخين المحدثين رغم اختلاف عماد الدين عن ابن الأثير في نقاط عديدة (وأشهرها ما يتصل بطريقة وتاريخ استبدال الولاء الفاطمي بالولاء العبّاسي في مصر عام ١١٧١). حتّى ان ابن الأثير نفسه فعل أحسن من ذلك . وسوف نرى فيما بعد أنـــه أدخل ، وإن يكن هذا الإدخال بتعديلات لا يستهان بأمرها ، مواداً من عماد الدين في تاريخه لهذه السنوات ، بعد قيامه بتكييفها وفقاً لصورته الخياليّـــة والغنيّة بالألوان عن صلاح الدين في طموحه الذي أحبط خطط نور الدين للحرب المقدّسة (الجهاد) (٦) .

غير انه يمكننا ، قبل النظر في هذه الأمور ، ان نتفحّص روايات ابن الأثير عن الحملتين اللتين سيّرهما صلاح الدين ضد حلب في العامين ١١٧٥و١١٧٦ فهي تقدّم عدداً من الدلائل الطريفة . فمن البادي ان أخبار هاتين الحملتين (واللتين انهزمت فيهما جيوش الموصل مرتين) لم تروَ في **التاريخ الباهر للدولة الاتابكيّة** . لقد هوجم صلاح الدين من جانب الحشاشين في كل حملة منهما ؛ وروايات ابن الأثير عن هذين الهجومين ([XI, 277, 285 [I, 618, 623 – 624)

---

٦ وفي مناسبة متأخرة ، ليست وثيقة الصلة مباشرة بصلاح الدين ، كان على ابن الأثير أن يطرح جانباً كل الإطراح واحدة من هذه القصص الباكرة . فبعدما روى في تاريخه الباهر للدولة الاتابكية (336 – 335 ,II, 2) عن حصار عز الدين لأخيه سنجر شاه في جزيرة ابن عمر من ربيع الأول عام ٥٨١ ه (حزيران ١١٨٥ م) ، اكتشف من خلال عماد الدين انه في ذلك الشهر بالضبط كان سنجر شاه وقواته يرافقون صلاح الدين في مسيرته الثانية ضد الموصل ومحاصرتها . والحقيقة الأخيرة يؤرخ لها كما يجب في كتاب الكامل (XI, 336) ، كما ان حصار عز الدين للجزيرة قد اختفى كلياً من صفحاته .

هي منسوخة بشكل يمكن تمييزة ورغم إعادة السبك اللفظي ، عن روايات عماد الدين (انظر أبا شامة *258 ,240 ,I وراجع النسخ الموازي عن الأول من جانب ابن ابي طيء 239 ,I) . لكنّه من المتوقع فحسب ان ظروف المعركتين اللتين هزم فيهما صلاح الدين قوات الموصل سوف يبرزها ابن الاثير على نحو مختلف نوعاً ما في التفاصيل ، وهذا ما يذهب به حقاً إلى آخر درجة من السخف عبر القول (*283 ,XI) إنه في المعركة الثانية لم يُقتل سوى رجل واحد من الجيشين .

وفي ذيل ملحق بهذه الرواية (محذوف من Receuil) يشير ابن الاثير مباشرة وللمرّة الوحيدة دون سواها إلى عماد الدين بقوله : « ذكر العماد ، الكاتب ، في كتاب **البرق الشامي** عن تاريخ حكم صلاح الديّن ، ان جيش سيف الدين في هذا الاشتباك ضمّ ٢٠,٠٠٠ من الفرسان » . ولكي يتبدّى سخف هذا القول فهو يمضي إلى تبيانه بمنتهى الحقّ ، وعلى أساس سجلات (ديوان) الجيش في الموصل . إن عماد الدين يشارك بالواقع ، وإن تكن مشاركته على درجة معتدلة نسبياً ، في النزعة الشائعة لدى معظم مؤرخي الأحداث في القرون الوسطى بتضخيم ارقام الجيوش المعادية . ولقد سبق لنا ورأينا أعلاه كيف ان ابن الاثير يضع علامة استفهام ضمنيّة على تقدير مماثل من تقديراته . غير ان عماد الدين في هذه الحالة يجوز عذره جزئياً . فهو لم يؤكّد بأن جيش سيف الدين كان مؤلّفاً من ٢٠,٠٠٠ رجل ، بل ذكر بطريقة أشد حذراً بأنه عندما تقدّم صلاح الدين شمالاً « وصلتنا الأخبار ان عددهم بلغ ٢٠,٠٠٠ من الفرسان ، ما عدا قافلة التموين والمدد خلفهم» (ابو شامة *2—11.1 ,255 ,I).
لكن ابن الاثير ، بمعزل عن هذا الجدل الخلافي ، يقدّم هنا برهاناً صريحاً على استخدامه لكتاب البرق ، رغم انه لا يُدخل اسم الكتاب إلاّ بإشارة عرضيّة فقط — وهذا يشكل بدوره (كما هو معروف عنه جيّداً) الحدّ الأقصى إطلاقاً من من إقراره بدينه الأدبي . وليس من قبيل الخيال ان نشتّم من ملاحظاته شيئاً

من التلذّذ لديه في القدرة على الاكتشاف بأن عماد الدين يورد بياناً كاذباً للوقائع ، ولو لمرّة واحدة .

وفيما تبقّى ، يمكن القول عموماً بأنه ، إلى جانب التعليقات ، لا يوجد شيء في تاريخ ابن الاثير المتصل بتاريخ صلاح الدين في هاتين السنتين أو في أيّة من السنوات الأخرى التي لم تتناولها المجلّدات الموجودة لدينا من كتاب **البرق** ، دون وجوده في منتخبات ابي شامة على درجة اشمل واكثر مبعثاً للرضا من حيث العرض . لقد سبق ورأينا بأن ابن الاثير في عدد من الحالات لم يحصر نفسه البتّة بتقصير روايات عماد الدين وإعادة سبكها فحسب بل عمد بشكل تعسفي إلى إعادة ترتيبها كلّما وجد ذلك ملائماً لغرضه . إن مقارنة **الكامل** بكتاب **الروضتين** (وبكتاب **الفتح** للسنوات الآتية بعد ١١٨٧) لا تترك مجالاً للشك في انه ينبغي اعطاء التفسير ذاته في مقاطع عديدة حيث يفترق المصدران حول بيان الحقائق .

فالروايات عن حصار صلاح الدين للموصل عام ١١٨٥ ولمدينة صور عام ١١٨٧ تزوّدنا بمثالين بارزين عن هذا الأمر وعلى نحو خاص. وكما روى ابن الاثير ، فإن عزّ الدين بعث بنساء الاسرة الزنكيّة للتدخّل مع صلاح الدين لدى اقترابه من المدينة في حزيران ١١٨٥ ، لكنّه رفض شفاعتهنّ وبدأ في تنفيذ الحصار (XI ,337*) . أما عماد الدين ، من جهة ثانية ، فيضع هذه الحادثة بشكل محدّد عند اواخر النزاع مع الموصل ، أي عندما عاد صلاح الدين إلى الموصل ، وعقب قطع الحصار عنها مؤقتاً ، في تشرين الثاني من السنة ذاتها (ابو شامة II, 64*) . لقد كان هذان المؤرّخان في الموصل عندما وقعت هذه الأحداث، وتنازع الأدلّة يبدو مطلقاً . فلا سبيل إلى الجدال بأن رواية عماد الدين هي الرواية الأكثر طبيعيّة والأشد تماسكاً في ذاتها ومع الظروف ، بينما قام ابن الأثير بتحريفها لكي يظهر صلاح الدين في أسوأ ضوء ممكن ، وبصورة واهية في الأحرى ، للتقليل من شأن عمل على هذا الجانب من التطرّف . فهو

يقول : « إن ايفادهن لم يكن بدافع اي ضعف ، أو عجز في الدفاع عن الموصل ، بل أرسلهن رغبة منه في الحيلولة دون شرور الحرب بانتهاج مسار أفضل للعمل » . وفضلا عن ذلك ، يؤكد عماد الدين بأن صلاح الدين ، استجابة منه لنداءهن ورغم كونه عاجزاً عن منح كلّ الاشياء التي طالبن بها ، وافق على قبول وساطة عماد الدين زنكي في سنجار ، وتمّت عن طريق هذه الوساطة في الواقع تسوية النزاع نهائياً .

أما الحادثة الثانية فإنها اكثر جلاءً من الاولى. ففي روايته عن حصار صور خلال شتاء سنة ١١٨٧ ، كما بالنسبة لكل الأحداث التي جرت بفلسطين خلال تلك السنة، لامجال للشك هناك بأن مصدر ابن الاثير كان كتاب **الفتح** لعماد الدين. لكنّه عندما يعرض الأسباب لعدم متابعة الحصار ([711 – I, 709] XI, 368) فهو يتعمّد قلب الفقرات الواردة في كتاب **الفتح** والمتصلة بمشاورات صلاح الدين مع الأمراء وبانسحابه (راجع ابا شامة 120 – II, 119 [344 – Iv, 343]). وتسفر النتيجة عن تصوير صلاح الدين وكأنه قد اتخذ القرار بالتخلّي عن الحصار قبل تمرّد الامراء ، فيصبح إذّاك عملهم برفض القتال وسحب رجالهم ضرباً من السخف . ولا يكتفي ابن الأثير بتشويه الحقائق وتقديم صورة مشوشة وغير متماسكة ، بل يمضي إلى الإنحاء على صلاح الدين باللّوم الشديد على عمل تقع مسؤوليته إلى حدّ كبير على عاتق إخوان ابن الأثير من عساكر الموصل .

وفي تحليلنا للمجلّد الخامس من كتاب **البرق** ، تمّ العثور على حالتين تعمّد ابن الاثير فيهما تبديل الوقائع التي رواها عماد الدين . إن العدد الإجمالي للحالات المماثلة كبير تماماً ، ويمكن إيراد مثالين صارخين هنا .

المثال الأول هو الفقرة المتعلقة بنجدة حامية عكا والتخفيف عنها خلال شتاء سنة ١١٩٠ ([33 – II, 32] 36 – XII, 35). إن هذه الفقرة بكاملها هي نسخة

عن فقرة في كتاب الفتح (راجع ابا شامة II, 181 [IV, 519 - 520]) ، حتى ان بعض تفاصيلها غير قابلة للفهم تماماً بدون مساعدة من الرواية الأكثر شمولاً في الفتح . ومما يجب ملاحظته ، إن عماد الدين ينتقد الحكمة في تصرف صلاح الدين بهذه المناسبة . كما في بعض المناسبات الأخرى ، لكنه يصف بصراحة النشاط الذي قاد به العمليّة والطاقة التي استحثّ بها عملاءه وامراء جيشه لبذل مزيد من الجهود . هذه الفقرة الأخيرة يحذفها ابن الاثير كلّها ، ويستبدلها بما يلي : « أضف إلى ذلك قوة استمرار صلاح الدين وإلقاءه بكل المسؤولية على كاهل قواده » (٧) .

والمثال الثاني هو اكثر لفتاً للنظر . لدى عودته من الشرق عام ١١٨٦ توقف صلاح الدين مدّة من الزمن في حمص ، حيث كان ابن اخيه ناصرالدين بن شيركوه قد توفي لتوّه ، تاركاً ابناً قاصراً . فقام صلاح الدين بتثبيت الصبي في ملكيّة إقطاعات أبيه، تحت وصاية مقدم ينتمي إلى فرقة شيركوه القديمة والمعروفة بـ الأسديّة . « عملنا جردة » بكنوز ناصر الدين (يقول عماد الدين ، كما ذكره ابو شامة *II, 69)، وقمنا بتقييم إرثه. كانت نسبة الثُمن هي من حقّ أخت السلطان ، الحساميّة ، زوجة ناصر الدين ، وجرى تقسيم الباقي بين ابنته وابنه . إن جماع ممتلكاته ، من الأراضي والنقود المصكوكة والأثاث ، تجاوز التقدير وبأية حال اربى على اكثر من مليون دينار . فالسلطان لم يلقِ عليها نظرة عجلى، بل قام بتسليمها كلها إلى الورثة الشرعيين». ويبدأ ابن الاثير روايته للحادثة (*XI, 341) بالحديث عن مؤامرة خطّط لها ناصر الدين بالتعاون مع بعض قوات دمشق خلال مرض صلاح الدين ، ثم أعقبها موته المفاجىء . ثم يمضي ابن الاثير ، دون الاتيان على ذكر مصادره الموثوقة ، قائلاً : « ويقولون — لكن على ذمّة الراوي — إن صلاح الدين

---

٧ – يذهب ميشو Michaud خطوة أبعد من ذلك بترجمته(Bibliothèque, IV,297–298) لكلمة inertia بعبارة معناها «الخمول المعتاد » (« indolence accoutumée »)

حرّض رجلاً يدعى الناصح بن العميد من دمشق ، فجاءه هذا الرجل وانضمّ إلى مجلس شرابه واعطاه كأساً مسمومة ... وعندما توفي اعطى صلاح الدين الإقطاع الى ابنه شيركوه الذي كان له اثنتا عشرة سنة من العمر . لقد ترك ناصر الدين ثروة واسعة في الأموال والخيول والسلع ، فجاء صلاح الدين إلى حمص وجرد الممتلكات ، وأخذ معظمها لنفسه ، تاركاً سقط المتاع فقط». وأخيراً يجري تدعيم القصّة بدعامة مثيرة ومجهولة : « وقيل لي ... » مما تجدر ملاحظته ان هذه هي المرّة الوحيدة فقط الّتي يغتنم فيها ابن الاثير فرصةً لاتّهام صلاح الدين بممارسة الاغتيال والاستيلاء على أملاك الغير ، تلك الممارسة الّتي تظهر بشكل بـــارز في حوليّات العصر السياسيّة . لقـــد استفاد منها إلى أبعد حدّ ، والقسم الثاني من القصّة ، على الأقلّ ، جرى تكراره في كل التّراجم اللاّحقة تقريباً لصلاح الدين ، وحتّى في تراجم المادحين أمثال ابن خلّكان وتاج الدين السُبكي (٨) . والحق ، أن اختلاق ابن الاثير في هذه الحادثة كان ناجحاً إلى درجة ان البارون دي سلين في ترجمته للفقرة المتعلقة بذلك مـــن سيرة صلاح الدين لبهاء الدين (III, 87) وبّخ القاضي المخلص على « إعجابه الأعمى » بصلاح الدين ، هذا الإعجاب الذي حمله في تصنيف كتابه على إخفاء حادثة لم تنتشر على العالم إلاّ بعد بضع سنوات وفي تلك الظروف المُريبة .

وفيما يتعلّق بهذه الحادثة الأخيرة ، يمكن القول ان ابن الأثير لم يبدّل رواية عماد الدين ببساطة ، بل روى صيغة تختلف تمام الاختلاف ، ولا تستند إلى عماد الدين بأي شكل من الأشكال . إلاّ انها موضوعة في إطار من التسلسل الزمني والأحداث مأخوذ برمّته من كتاب البرق ، ومما لا يقبل التصوّر ان ابن الاثير كان غير مدرك لقول عماد الدين الوارد بصيغة المتكلّم . لذا يجب اعتبار الرواية الّتي يوردها بمثابة إنكار متعمّد لقول عماد الدين ، واستبداله بقول آخر مستقىً من مصادر لا يهمّ بتسميتها ، والهدف من وراء ذلك هو

---

٨ ـ انظر طبقات الشافعية (القاهرة ، ١٣٢٤ هـ) ، ج ٤ ، ص ٣٢٩ .

إظهار صلاح الدين بأنّه ليس أفضل من أي أمير آخر في زمانه .

لكن تشويهات ابن الاثير تبدو غالباً وكأنها ناشئة عن فقرات وعبارات من عماد الدين بواسطة الدمج أو التفسير . ويمكن العثور على مثال من ذلك في قوله الذي سبقت الإشارة إليه ، حيث ينسب استسلام حلب إلى جشع أميرها عماد الدين زنكي ([XI, 327 [I, 661) . فابن الأثير يعبّر عن هذا، كعادته، بتعابير صوريّة لجدال قام بين الأمير وقواته . لكن أساس الحادثة يبدو انه قول عماد الدين في كتاب **البرق** (V, 84v) بأن الأمير « وجد انه يدفع ٣٠,٠٠٠ دينار كل شهر للعساكر والامراء ، وإذا امتدّ الحصار طويلاً دون أمـــل بالنجاح ، فإنه سوف يخسر كل المكاسب ويصبح على افلاس تام » . وبعد إجراء هذا الحساب عمد إلى فتح باب المفاوضات مع صلاح الدين .

طبعاً ، إن مثالاً مفرداً لا يشكّل برهاناً ، وقد يكون من الصعب اكتشاف حالات اخرى لان معظم اقسام كتاب البرق هي مفقودة . وفي هذه الحالة بالذات ، فان الفقرة الواردة أعلاه محذوفة من تلخيص ابي شامة (*II, 42) . إلاّ ان حالة مماثلة من المحتمل رؤيتها في رواية ابن الاثير عن حصار الصليبيين لدمياط في تشرين الثاني — كانون الأول ١١٦٩ ([XI, 231 [I, 569)، رغم ان « التصحيح » في هذه الحالة لم يجر على رواية عماد الدين ، بما ان الرواية ذاتها ترد في **التاريخ الباهر للدولة الاتابكيّة** [II, 2, 259] . وتبعاً لهذه القصّة ، فإن نور الدين — بناء على مناشدة صلاح الدين له والتنبيهات الملحّة بأنه لا يستطيع المجازفة بإرسال قوّاته الى دمياط نظراً لخطر نشوب تمرّد في القاهرة » — فجهّز إليه العسكر أرسالاً ، كلما تجهزت طائفة ارسلها فسارت اليه يتلو بعضها بعضاً » . ومن جهة ثانية ، يذكر عماد الدين (الذي يجدر التذكير بأنه كان حينذاك في دمشق يعمل في خدمة نور الدين) بأن نور الدين « أنهض من عنده عسكراً ثقيلاً ... يخوض بهم بحر العجاج الأكدر ، فوصل في النصف من ربيع الأول قبل رحيل الفرنج بأسبوع . (أي حوالي ١٠ كانون الأول).

(ابو شامة I, 181 [IV, 151])(٩). وفي الوقت ذاته، يروى بأن صلاح الدين بقي في القاهرة و « يرسل إليهم المدد بعد المدد » . من المحتمل ان الروايتين تستندان إلى رسالة تبليغيّة أصدرها نور الدين ، والتفسير الأكثر ترجيحاً لهذا الاختلاف هو ان ابن الاثير نقل العبارة حول صلاح الدين وأطلقها على نور الدين ، لكي يرسم صورة لافتة للنظر من اعتماد صلاح الدين عليه . وجدير بالملاحظة ان غليوم الصوري (XX, 15 – 16 : ترجمة II, 363 – 367) يتفق، كالعادة، مع عماد الدين ضد ابن الأثير .

وترد حالةٌ أشد جلاء من حالات «إعادة التفسير» بعد صفحات قليلة (XI, 258 [I, 593]) ، عندما يروي ابن الاثير عن صلاح الدين – عقب إخفاقه في التعاون مع نور الدين على حصار الكرك في ايلول ١١٧١ – بأنه انسحب من حملة مشتركة على الكرك للمرّة الثانية في تموز ١١٨٣ ، لدى تلقّيه أخبار عن اقتراب نور الدين . وحسب رواية عماد الدين ، التي تؤيّدها بنود تقرير رسمي عن العمليّات رفعه صلاح الدين إلى نور الدين ، فإن الغرض من حملة صلاح الدين كان لطرد البدو الذين كانوا يعملون كأدلاء في خدمة الفرنجة بالكرك ، وبالتالي لجعل الاتصالات بين مصر والشام مأمونة أكثر (ابو شامة I, 206 [IV, 156 – 157]) . إن هذا القول يؤكّده أيضاً غليوم الصوري تأييداً تامّاً (XX, 28 ; trans., II, 389 – 390) . وعندما كتب التاريخ الباهر في الدولة الاتابكيّة لم يكن ابن الاثير على أي معرفة بهذه الحادثة . فممّا لا يرقى اليه الشك هو انه لدى عثوره عليها في كتاب عمادالدين استخدمها لنسج قصّة عن رفض صلاح الدين المستمرّ للتعاون مع نور الدين في الحرب المقدّسة ، دون التفات منه إلى الحقيقة بأنه كان قد ذكر قبل بضعة

---

٩ – إن ترجمة الـ Receuil تذكر صلاح الدين خطأ بدلا من نور الدين في السطر الرابع عشر ، وتخطىء في ترجمة « بأسبوع » إلى « بضعة اسابيع » « quelques semaines »

أسطر فقط بان نور الدين في هذا الوقت بالذات كان يخو ض حملة في بلاد الاناضول .

ومثال نهائي ينبغي أن يكون كافياً . يروي ابن الاثير (XI, 347 [I, 674]) في اختصار ، خبر الأحداث التي تلت وفاة بغدوين الرابع والشقاق الذي حصل بين ريموند وغي . فأدّى إلى التحالف بين ريموند وصلاح الدين . هذه الرواية مأخوذة دون أي شك من فقرة لعماد الدين في كتاب الفتح (١٧ — ١٨) تختم بالكلمات التالية : « وهو (ريموند) شجّع السلطان في تصميمه على مهاجمتهم لكي يعيد إليه المملكة» (ابو شامة يحذف هذه العبارة [258 - 257 ,IV] II, 74). ويستعيض ابن‌الاثير عن هذه الكلمات بما يلي : « فوعده صلاح الدّين بمساعدته والسعي في سبيل حصوله على كل رغباته ، وتعهّد بجعله ملكاً على جميع الفرنجة في المستقبل» .

لئن كانت الحجّة المتقدّمة صحيحة ، فإن النتيجة التي تشير إليها هي بالأحرى نتيجة تبعث على القلق . فبدلاً من مجموعة من المصادر المعاصرة والأولّية والمستقلّة إلى حدّ كبير حول تاريخ صلاح الدين من الجانب العربي، ليس في حوزتنا ، حتى انضمام بهاء الدين إلى صلاح الدين عام ١١٨٨ ، سوى مصدر رئيسي واحد ذي طابع مباشر ، تلحق به إضافات مجزوءة من مصادر أخرى ، وأبلغها أهميّة هو ابن ابي طيء . والاسوأ من ذلك ، هو انه حتى ذلك المصدر الرئيسي فلم تصلنا منه سوى نسبة الثلثين ، وفي الصيغة التي يقدّمها تلخيص ابي شامة ، هذا التلخيص الذين ندين له ايضاً بكل ما تبقى تقريباً من تواريخ ابن ابي طيء .

لذا تجدنا أمام سؤالين بحاجة إلى جواب . السؤال الأول ، إلى أي مدى يمكننا التعويل على صدق مصدرنا الرئيسي الأوحد ، عماد الدين الكاتب ، وإذا جاز التعبير ، على «ضميره التاريخي» ؟ لقد سبقت الإشارة إلى أنه متى

جرى تجريد رواياته من الحشو الكلامي والصنع البديعي ، فإن بيانه للأحداث هو رزين وخالٍ من المبالغة . لكنّه من المتوقّع انه في أقواله كان متحيّزاً إلى حدٍّ ملحوظ بدافع إعجابه بصلاح الدين . ومن الممكن إبداء ملاحظتين بهذا الشأن . فبينما نجد ان ابن ابي طيء هو عرضة للشبهة بتشويه سمعة نور الدين ، وابن الاثير مذنب دون ريب في تشويه سمعة صلاح الدين ، فإن عماد الدين يبدو عليه أنه خدم الاثنين باخلاص متساو ولم يظهر أي تحيّز بينهما . والملاحظة الثانية هي انه من الخطأ في ان نعتبر الإسهاب البلاغي او الصنع البديعي في كتاب البرق موجّهاً إلى مجرّد امتداح صلاح الدين والتملّق المقيت . فمن النادر وجود جملة ، حتى في أسمى تحليقاتها ، تنطوي على مديح مباشر لصلاح الدين ذاته . ومن المؤكد ان عماد الدين يُظهر إعجاباً عميقاً بصلاح الدين ، لكن عظمة الرجل تتبدّى بكاملها كنتيجة طبيعيّة لازمة عن الحقائق ذاتها . ففي كتاب **البرق** بمجمله يجري تصويره بعبارات إنسانية وواقعيّة ، حتى ان ذلك هو اكثر مما في سيرة بهاء الدين . وبينما نجد ان شعور بهاء الدين نحو صلاح الدين هو شعور الروح المنتمية إلى أسرة واحدة ، فإن الانطباع الذي يخلّفه لدينا كتاب **البرق** ككلٍّ هو انه عملٌ لموظف في الخدمة المدنيّة ، يتميّز بالدربة وضبط النفس ، وعلى إلمام بسبل السلاطين وغيرهم من المسؤولين . فهو قد اعتاد على التعامل معهم ، وتدبير أمورهم فيما لو دعت الحاجة ، وتدوين أعمالهم بدقّة صناعته ، وبكل ما لديه من خصب في الخيال اللفظي فإنه لم ينجرف أبداً وراء التيّارات وبقي ثابت القدمين .

كذلك توجد حجّة أخرى لصالح الدقّة في العبارة عند عماد الدين ، وهي أقلّ عرضة لتهمة الارتكاز على انطباعات ذاتيّة . فعندما تمكن مقارنة رواياته مع أقوال أخرى من مصادر أوليّة ومباشرة ، سواء أكانت أقوال غليوم الصوري وارنول وغيرهما من المؤرخين اللاّتين للحرب الصليبية الثالثة ، أو بتلك الأقوال التي يكتبها بهاء الدين أيضاً بالاستناد إلى معلومات مباشرة ، توجد هناك

درجة مدهشة من التطابق في المادّة العامّة ، وغالباً ما يمتدّ هذا التطابق حتى إلى التفاصيل . لذا فمن حسن الحظّ ، انه عندما ننخفض إلى مصدر أصلي ومفرد عن القسم الأعظم من حياة صلاح الدين العامّة ، فإن هذا المصدر هو على حدّ سواء : جدير بالاعتماد والقبول على نحو استثنائي بالنسبة لمعرفة مؤلّفه بالحقائق، وجدير بالتصديق لجهة عرضه لتلك الحقائق وإبرازه لها .

والسؤال الثاني تثيره العلاقة بين تلخيص أبي شامة والنصّ الأصلي لكتاب البرق . وبما انه علينا الاعتماد على هذا طيلة حوالي الثلثين من الاثر كلّه ، فإلى أي درجة من التعويل يمكننا ان نعوّل عليه باعتباره ملّخصاً شديد الحرص والدقّة ؟ إن الجواب على ذلك صريح : بالنسبة للمحتوى التاريخي الفعلي في كتاب البرق ، فإن تلخيص ابي شامة يتمّ على العموم بمهارة وعناية . بالطبع تنقصه تلك الصفة الحميمة والشخصيّة التي في الأصل ، فهو لا يقدّم شيئاً من من طابعه الحيوي والملحمي إلاّ في بعض الأحيان فقط ، لكنه يعوّض عن هذا إلى حدّ ما باستئصاله دون رحمة لكلّ ما في الكتاب من إطناب أدبي وصنع بديعي خالص . هناك صفحات بكاملها يتمّ حذفها أو اختصارها إلى سطر واحد، والرسائل الطويلة يجري الاستشهاد بمقاطع منها ، كما ان العديد من الوثائق الأخرى التي تلقي ضوءاً على مبادىء صلاح الدين هي محذوفة برمّتها . كذلك يُعاد في بعض الأحيان ترتيب المادّة ، لكن كل شيء مما يعتبره ابو شامةوثيق الصلة بالموضوع يتمّ إدراجه في مكانه المناسب . وبحكم الضرورة ، فإنه يحذف وما يحذفه احياناً هو على جانب بارز من الأهمية في تقديرنا . غير ان مايضيفه هو إلى روايات عماد الدين يأتي على الدوام مميّزاً بعناية فائقة . وعليه، نستطيع التأكد بصورة معقولة ان ملّخصاته تمثّل محتوى الأصل تمثيلاً اميناً ، رغم انه، إزاء فقدان الأصل ، يتعذّر (في الوقت الحاضر) استعادة الكثير من المـــواد القيّمـــة .

وفي الختام ، إذن ، ينبغي تصنيف المصادر العربيّة عن تاريخ صلاح الدين على النحو التالي :

(١) النصوص الأصليّة لعماد الدين . وعلى سبيل المثال ، الأجزاء الموجودة من كتاب **البرق** ، و (ابتداء من ١١٨٧) كتاب **الفتح** .

(٢) سيرة صلاح الدين التي وضعها بهاء الدين ، ابتداءً من ١١٨٨ .

(٣) وبالنسبة للسنوات الباقية (أي : من ١١٦٩ إلى ١١٧٦ ، ومن منتصف ١١٨٠ إلى منتصف ١١٨٢ . ومن منتصف ١١٨٤ إلى مطلع ١١٨٧) تأتي الملخّصات التي قام بها ابو شامة عن عماد الدين وأدرجها في كتاب الروضتين ، وتكمّلها المنتخبات من ابن ابي طيء (١٠)

هذه هي المصادر المكتوبة الأساسية ، والتي تضيف إليها التواريخ الأخرى بين الحين والحين تفصيلات على درجات متنوعة من الأهميّة وقابليّة التصديق. أما بالنسبة لابن الأثير ، فلا يمكن اعتباره سوى مصدر ثقة ثانوياً فيما يتعلّق بالأحداث التاريخيّة الرئيسيّة ، رغم انه يحتوي فيما يتعلّق ببعض التفاصيل المحليّة ، سواء ما كان منها وثيق الصلة بصلاح الدين ام بعيدها ، على بعض المعلومات الأوليّة والمباشرة . لكنّه يؤلف شاهداً مباشراً على ناحية هامّة من تاريخ صلاح الدين . فهو يلعب الدور النافع لمحامي الشيطان ، وإن يكن هذا الدور نادر الجاذبيّة ، ومن خلال دوره هذا يصوّر لنا العداء وروح التحزّب اللذين كان على صلاح الدين أن يكافح ضدّهما في بناء صرح قوّته السياسية والعسكريّة ، وآثارهما المعنويّة التي استمرّت في إعاقة عمليّاته طيلة فترة الحملة الصليبيّة الثالثة .

كليّة سان جون ، اكسفورد

---

١٠ – وحتّى بالنسبة للسنوات ١١٨٧ – ١١٩٢ فإن أبا شامة يستشهد احياناً بتفاصيل من البرق هي إما غير موجودة في كتاب الفتح أو ليست مشروحة باسهاب .

الفصل الرابع

البرق الشامي

تاريخ صلاح الدين للكاتب

عماد الدين الاصفهاني *

لقد كان معروفاً منذ مدّة طويلة بأن الأثر الأساسي عن تاريخ صلاح الدين هو كتاب التاريخ الواقع في سبعة مجلّدات من تأليف الكاتب في ديوان صلاح الدين : عماد الدين الاصفهاني ، بعنوان البرق الشامي ، وان هذا الاثر لم يكن المصدر الرئيسي الذي لخّصه ابو شامة في كتاب الروضتين فحسب ، بل جرى استخدامه أيضاً من جانب كل المؤرخين المعاصرين له تماماً ، ومن جملة هؤلاء ابن ابي طيء ، وابن الاثير وسبط بن الجوزي وكمال الدين ابن العديم (١) . غير ان النص الأصلي لهذا الكتاب يبدو عليه انه سقط من التداول في وقت مبكّر وكان عدد مخطوطات العمل ضئيلاً جداً . فالاقسام الوحيدة منه التي يُعلم الآن

* Gibb, H.A.R. « al-Barq al-Shàmi : The History of Saladin by the Kàtib « Imàd ad-Din al-Isfahàni », **Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes LII**, 93 – 115

١ – انظر ما يلي : Brockelmann, G.A.L. i, 315 ; **Suppl.** i, 548 ; C. Cahen, **La Syrie du Nord à l'époque des Croisades** (Paris, 1940), 50 sqq

بوجودها هي جزآن في مكتبة بودليان بأكسفورد (Bruce 11 and Marsh. 425) وقد قام البروفسور بول كاهـله مؤخراً بوصفهما في مقالـة قصيرة ، جنباً إلى جنب مع بحث عام في كتابات عماد الدين (٢) . إن مخطوطة الجزء الأول هي واضحة ، وعلى العموم ، دقيقة . أما المخطوطة الثانية فقدأعيد تحبيرها وتحريكها في بعض المواضع بيد متأخرة ، ولم تراعَ الدقّة دائماً في ذلك. والاوراق القليلة الأولى هي مفقودة ، بينما أُضيفت مقدّمة للصفحة الأولى الموجودة (ورقمها الورقة ٦) على ورقة واحدة في تاريخ متأخر .

إن الاسئلة التاريخيّة التي تثيرها هذه المجلدّات وعلاقتها بكل من تلخيص أبي شامة وكتاب **الكامل** لابن الاثير تناولها البحث في مقالة منفصلة (٣) . أما المقالة الحاضرة فإنها تستهدف تقديم ملخّص لمحتوياتهما ، مع تحليل لأسلوب المؤلّف الأدبي ، وإيراد انموذجين يحتويان على معلومات تاريخيّة قيّمة وغير متمثّلة على درجة كافية في أيّ مصدر آخر .

البرق ، المجلّد الثالث (مخطوطة بودليان . Bruce 11)

(١) ب : سنة ٥٧٣ هـ — تسالي الجيش في فاقوس قبل الإغارة على غزّة

(٦) أ : ذكر علم الدين الشاتاني

(٧) ب : ذكر بروز صلاح الدين بقصد الغزاة ؛ قصائد ورسائل خلال المسيرة

(١) أ : ذكر نوبة الرملة ، مع مطلب خاص (١٣ب — ١٤ ب) يتعلّق بتقي الدين .

---

٢ — **Die Welt des Orients** ((Stuttgart 1948), 299 – 301

٣ — **Speculum**, Vol. XXV, i (Cambridge, Mass., Jan. 1950), 58 – 72.

(١٦) ب : رسائل إلى عناوين مختلفة حول الموضوع .

(٢٠) أ : قصيدة مديح لتقي الدين نظم عماد الدين .

(٢٢) ب : إجراءات صلاح الدين للفرج وإعادة إنشاء الجيش .

(٢٣) أ : حوادث في حلب .

(٢٥) أ : ذكر نزول الفرنج على حماه .

(٢٧) أ : ذكر وفاة شهاب الدين محمود (ابن تكش الحارمي خال السلطان وصهره) .

(٢٨) ب : مسيرة صلاح الدين على الشام .

(٣٠) ب : مراسلة بين المؤلّف والقاضي الفاضل. خبر عن تأليف **فريدة القصر** وغيرها من القطع الأدبيّة .

(٣٧) ب : كتاب من القاضي الفاضل إلى صلاح الدين (منتخبات) .

(٤٠) ب : الوصول إلى دمشق .

(٤١) أ : رسائل من عماد الدين إلى بغداد .

(٤٧) أ : تهاني القاضي الفاضل لدى ولادة ابن صلاح الدين ،داوود. حاشية إضافية عن أنباء صلاح الدين .

(٥٠) أ : كتاب من الفاضل عن حوادث مختلفة في مصر .

(٥٢) ب : جواب صلاح الدين من انشاء عماد الدين .

(٥٥) أ : حفلة صيد في بلاد الشام .

(٥٦) ب : وفاة وزير الخليفة ، عضد الدين .

(٥٨) أ : ذكر خازن بيت مال الخليفة ، ظاهر الدين .

(٦٠) أ : ملاحظات عن عزّ الدين آق بوري وضياء الدين ابن الشهرزوري .

(٦١) ب : ذكر شمس الدين ابن المقدم ورغبة توران شاه في الحصول على بعلبك منه .

(٦٢) ب : السير على حمص : بداية ٥٧٤ .

(٦٣) أ : مقاطع من رسائل القاضي الفاضل إلى صلاح الدين و(٧٢ أ) إعادة لإلغاء المكوس في مكّة .

(٧٤) أ : في المعسكر بحمص — مراسلة طويلة بين المؤلّف والقاضي الفاضل .

(٩٥) أ : وفاة الطبيب ابن النقّاش في دمشق .

(٩٥) ب : وفاة الأمير نجم الدين ابن مصال في مصر .

(٩٦) ب : أسر الفرنجة المغيرين على حمص وإعدامهم (ربيع الأول) ، تليه مكاتبة مع الفاضل تتعلّق بوعد صلاح الدين في تخصيص أسير لعماد الدين كمملوك .

(١٠٠) ب : وصف الخريف وتعب الجيش .

(١٠٢) أ : مسيرة إلى بعلبك .

(١٠٣) أ : حلول الشتاء .

(١٠٣) ب : رسائل إلى بغداد تشرح حصار بعلبك .

(١٠٥) ب : مسائل مالية في دمشق ، ومسألة الابقاء على ابن ابي عصرون قاضياً ، رغم عماه .

(١٠٧) ب : استسلام بعلبك .

(١٠٨) أ : قصيدة قصيرة عن الشوّق إلى مصر نظمها عماد الدين بطلب من صلاح الدين ، تتبعها مراسلة مع القاضي الفاضل .

(١١٢) أ : وفاة المشرف على قياس مياه النيل .

(١١٢) ب : بناء قلعة في بيت الأحزان .

(١١٣) أ : وصف المجاعة في بلاد الشام .

(١١٥) أ : ذكر وصول رسل دار الخلافة .

(١١٦) أ : هزيمة (الكونستابل) همفري وموته (هنفري) .

(١١٩) ب : خروج توران شاه إلى مصر .

(١٢٢) أ : هزيمة غارة للفرنجة على شيزر .

(١٢٣) أ : سفارات من ديار بكر وسلطان الروم .

(١٢٣) ب : استئناف الهجمات على الفرنجة (يوصف جزئياً في رسائل إلى القاضي الفاضل واشخاص آخرين).

(١٢٦) ب : بداية السنة الهجريّة ٥٧٥ ؛ صلاح الدين يعسكر قرب بانياس .

(١٢٨) أ : المعركة والانتصار في مرج عيون .

(١٣١) ب : رسائل عن الموضوع إلى مجاهد الدين قايماز في الموصل وإلى شيخ الشيوخ في بغداد .

(١٣٦) أ : مأثرة فروخ شاه في مرج عيون .

(١٣٦) ب : مديح موجّه إلى صلاح الدين من الحسن بن علي الجوني .

(١٣٧) ب : انتصار تقي الدين على سلطان الروم في رعبان .

(١٣٨) ب : رسالة تروي هذه الحادثة إلى مجاهد الدين قايماز .

(١٣٩) أ : حصار بيت الأحزان والاستيلاء عليها .

(١٤٤) ب : رسالة إلى القاضي الفاضل تصف الحصار .

البرق الشامي ، المجلد الخامس (مخطوطة بودليان Marsh 425)

الاوراق من ١ إلى ٥ مفقودة ، وقد جرى استبدالها بيد متأخرة عند بـــدء مسيرة صلاح الدين على حلب في السنة الهجرية ٥٧٨ .

(٦) ب : مديح لصلاح الدين من عبد الله بن اسعد الموصلي .

(٨) ب : تبديل الخطّة لدى وصول كوكبوري ، ومسيرة صلاح الدين عبر الجزيرة .

(١٤) ب : (رقمها ١٣ في المخطوطة) بلوغ الموصل . وساطة شيـــخ الشيوخ .

(٢٠) ب : (رقمها ١٧ في المخطوطة) قرض إلى سنجار . رسائل من عماد الدين إلى بغداد وإلى حاكم عدن .

(٢٦) ب : استسلام سنجار .

(٢٨) ب : صك تعيين قاضي سنجار .

(٢٩) ب : صك تعيين رئيس سنجار .

(٣٠) ب : صك تعيين سعد الدين بن عمر حاكماً على سنجار .

(٣١) أ : المسيرة على نصيبين وحرّان ، تقاطعها (٣٢ أ) رسالة إلى شيخ الشيوخ .

(٣٤) أ : رسالة كتبها عماد الدين إلى بغداد لتبرير حملة الموصل .

(٣٦) أ : وفاة فروخ شاه ؛ قصائد موجّهة إليه سابقاً .

(٤٢) ب : انتصار الاسطول المصري في البحر الأحمر على المهاجمين الفرنجة ، رسائل حول هذا الموضوع إلى بغداد .

(٤٦) أ : تعيين ابن المُقَدَّم حاكماً على دمشق ، مع نصّ الوثيقة .

(٤٨) أ : نادرة عن كوكبوري .

(٤٨) ب : هدية صلاح الدين إلى ابن قره أرسلان ــ قصّة حصار آمد والاستيلاء عليها (انظر أدناه ص) .

(٦٥) ب : مقاطع من رسائل القاضي الفاضل حول الموضوع .

(٧١) ب : دخول صلاح الدين إلى آمد .

(٧٢) ب : استدعاء نور الدين بن قره أرسلان وحلفه اليمين لصلاح الدين .

(٧٣) ب : حاشية عن قيوان الدين سمّاقة ، وزير نور الدين .

(٧٤) ب : الخروج من آمد والسير نحو حلب .

(٧٥) ب : سفارات من **ملوك الاطراف** ، ومنتخبات من وثائق عماد الدين ورسائله المتعلّقة بهؤلاء .

(٧٧) ب : المسيرة على حلب ، احتلال تلّ خالد وعينتاب (موصوفة جزئياً في رسائل إلى القاضي الفاضل) .

(٧٩) ب : الوصول إلى خراج حلب في محرّم ٥٧٩ ؛ القتال حول المدينة .

(٨٣) أ : الانسحاب إلى جبل جوشن .

(٨٤) ب : مفاوضات مع عماد الدين زنكي واستسلام حلب .

(٨٦) ب : منتخبات من رسائل حول الموضوع لعماد الدين .

(٨٩) ب : استسلام حارم ، ويوصف بشكل رئيسي في منتخبات من الرسائل ، ورسائل أخرى حول الاستيلاء على حلب .

(٩٣) ب : رسائل من القاضي إلى بغداد (إلى الديوان لإعلان نيّته في استئناف **الجهاد** ، وإلى شيخ الشيوخ حول موضوع الوساطة مجدداً) .

(٩٤) ب : كتاب القاضي الفاضل إلى العادل في القاهرة .

(٩٦) ب : مصادفة الحفاوة المقدّمة لعماد الدين زنكي مع وفاة تاج الملك ، والرسائل حول الموضوع .

(٩٨) ب : دخول صلاح الدين إلى حلب والتصرّف بأراضيها .

(١٠٠) أ : صكوك المدرّسين والمدرسة الحنفيّة في حلب، والمحتسب وطبيب العساكر .

(١٠٥) أ : رسائل تصف انتصارات القوات المصريّة في عُسيلةوالاسطول المصري في شهر محرّم ٥٧٩ .

(١٠٨) أ : الخروج من حلب والسير على دمشق ، تتخلّل الروايـــة ملاحظات من ابن حُبيش ، قاضي حماه ، وتقي الدين .

(١١١) ب : حملة على بيسان ، توصف في رسائل بقلم عماد الدين .

(١١٦) ب : الحملة على الكرك .

(١٢٠) أ : خروج تقي الدين إلى مصر وصك تعيينه حاكماً .

(١٢٤) أ : صك تعيين العادل حاكماً على حلب .

(١٢٦) ب : الخروج من الكرك والعودة إلى دمشق ، ودخول العادل إلى حلب .

(١٢٧) أ : وصول شيخ الشيوخ ورسُل الموصل (انظر ادناه) .

(١٣٢) ب : سفارة من عماد الدين زنكي في سنجار .

(١٣٣) أ : رسائل إلى عماد الدين وتقي الدين تستدعي القوات .

(١٣٥) أ : الخاتمة — : منتخبات من مراسلات المؤلّف مع القاضي الفاضل .

يتمتع هذا العمل ككلّ بصفة تبدو فريدة في الأدب العربي ولا نظير لها في الآداب الأخرى . وهي صفة الجمع في عمل تاريخي مفرد بين انواع مختلفة من

الإنشاء ، بينما يجري اعتبارها في الأدب الغربي عادة ، على الأقل ، بمثابة أنواع مميزة . ثمة أقسام كبيرة من الكتاب هي تاريخ بسيط ، أي أنها روايات للأحداث في ترتيبها وتسلسلها الزمني ، لكنّها تتميّز بشكل رئيسي عن السياق العام لتواريخ الأحداث في ميزتين . الميزة الأولى هي ان المؤلّف رافق صلاح الدين خلال القسم الاكبر من حياته العامّة بمثابة كاتبه الخاص ، فهو يروي الأحداث بمعظمها في صيغة جمع المتكلّم ، و (في رأيي) لا تجوز نسبة هذهالسمة إلى الغرور والاعتداد بالنفس ، بل إلى عادته الراسخة في استخدام عبارة رسائل الدواوين . والميزة الثانية هي انه مكتوب كلّه بالنثر المسجّع . إن جميع دارسي الأدب العربي يألفون الكلام المنمّق والطنّان بما ينطوي عليه من إرهاق وفراغ وكيف ان الاعتناء بالنثر المسجّع خنق الزخم الفطري والإيجازيّة في الأسلوب العربي ، وأوجد عادات مهلكة مثل الحشو والتملّق المنطوي على رياء ، حتّى أنه أدّى إلى التشويه من أجل السّجع البديعي . ولقد نمت العقيدة بأن النــثر المسجّع هو في حدّ ذاته شكل فاسد للأسلوب الأدبي يقضي على كل فضيلة حقيقيّة في التعبير عن الحوادث والأفكار(٤) . بيد ان هذا الحكم القبّلي يتعذّر الدفاع عنه تماماً . وفيما يتعلّق بالأقسام التأريخيّة من كتاب عماد الدين ، فإن نثره المسجّع لا يتدخّل إطلاقاً بدقّة العبارة ، كما يمكن تبيّن ذلك منعدّةمقاطع في الفتح القسّي أو من النماذج الواردة أدناه . الاّ أنها حقيقة لا ريب فيها بان سرد الأحداث المتواصل والمتطاول بهذا الاسلوب هو ممــلّ وغير قابلللاحتمال كما سنبيّن ذلك في فترة لاحقة .

ومن جهة ثانية ، فإن قسماً كبيراً من هذا الاطناب ينشأ عن الجمع بين السرد والنوع الثاني من المواد في كتاب البرق . فالكثير من محتوياته ، وكذلك محتويات الفتح ، يجري تصنيفها في الأزمنة الحديثة كـ «مذكرات» وليسبالأحرى

---

٤ – انظر ، على سبيل المثال ، في مذكرات محمد كرد علي ، الجزء الثالث (دمشق ١٩٤٩ ، ص ٦٩١ – ٦٩٧) الجدل الذي دار حول هذا الموضوع بين المؤلف وشكيب أرسلان .

كتاريخ للاحداث . إنها وثائق من «المفكرة المهنيّة» للعماد الكاتب، صاحب الأسلوب الشهير، وهي تشتمل على مقتطفات طويلة من رسائله الرسميّـــة بالأصالة عن صلاح الدين، وعلى صكوك تعيينه للوظائف العامّة، ومراسلته شبه الخاصّة مع القاضي الفاضل ، واستشهادات بقصائده أو قصائد الآخرين في مناسبات مختلفة ، ومنها الكثير مما هو أشبه بمذكرات داخليّة شخصيّة حول إنشغالاته الخاصّة وعلاقاته بشخصيات اخرى . هذه الأوراق ، من الجليّ ، انها تتنوّع أيمّا تنوع في درجة إسهابها ، بعضها مقالات متعمّدة في أشدالأساليب ترفعاً وتلميحاً ، لكن الكثير منها لا يعدو كونه ملاحظات بسيطة تماماً تنقل التفاصيل العرضيّة أو مسائل على جانب من الاهتمام(٥) .

غير ان «المفكرة المهنيّة» تنطوي بالنسبة لنا على حسنة كبيرة في المقام الأول، إذ تقوم بتعريفنا إلى شخصيّة المؤرخ ، وهذا من الأمور النادرة في الكتابـــة العربيّة التاريخيّة خلال القرون الوسطى . فالمزايا التي يتكشّف عنها دون وعي منه ليست تشويهاً لسمعته على الاطلاق . انه لا يتبجّح ابداً ، وهو الذي يعي مواهبه تمام الوعي . فعلاقته مع صلاح الدين بصفة الكاتب المؤتمن على الأسرار كانت واضحة الانسجام. ولقد بقي مع رئيسه الرسمي ، القاضي الفاضل ، طيلة الوقت على أواصر من الود والاحترام. وفي المقام الثاني ، فإن هذا الجمع الفريد بين المفكرة المهنيّة والتاريخ يضفي على روايته للأحداث درجة مـــن الموثوقيّة ومن الثقة المرجعيّة لا يضاهيها سوى القليل من المصادر القروسطيّة.

---

٥ – يمكن إيراد الفقرة التالية كمثال ، وهي تحظى باهتمام نظراً للمنتخبات التي سوف يتم ادراجها ادناه :

> كانت بيني وبين شيخ الشيوخ قرابة قريبة لدعواتنا فى الحوادث والحوائج المستجيبة فانه اتصل الى ابنة عمى الصدر الشهيد عزيز الدين ابى نصر احمد بن حامد فقد كانت عقيلة بيت السودد وكريمة شرف المحتد وقد كان [كثيرا] من وزراء الزمان وعظماء دولة السلطان يخطبونها رغبة فى طيب النجار وطهارته ونزاهه العنصر ونضارته فاتفق حضورهما بالكعبة المعظمة فى سنة خمس واربعين وتكرت منه الخطبة وصحت الرغبة فاجيب لدينه واصله وتقواه وفضله وبارك الله منها فى ذريته ونسله [V, 128 a b]

لكن من المؤكد تماماً ان عماد الدين قصد من عمله الكبير عن صلاح الدين ان يكون شيئاً أكثر من هذا . فلا نعرف ما إذا كان هو نفسه يسمّي الصفات الادبيّة الاخرى التي استهدفها ، لأنها من الصفات التي بقيت خارج المقولات الثابتة للانشاء الادبي العربي . هاتان الصفتان ، على تمايزهما واتصالهما الوثيق في الوقت نفسه ، هما الدراماتيكية والملحميّة . ومهما بدا من أمر المبالغة في ادعاء مثل هذه الصفات لأي أثر عربي قروسطي ، وقبل كل شيء في ادعائها لتاريخ وقائعي ، فإنها موجودة هناك ولا سبيل إلى إنكارها . إنه لمن السخف القول على التأكيد بأن العمل كلّه دراماتي أو ملحمي على نحو شامل . لكنه يحقّق بالضبط – عن طريق هذا الجمع بين أربعة أنماط من الإنشاء وبواسطة الانتقال المتكرّر حدوثه من نمط إلى آخر ، طابعه البارز ويخفّف من ضجر السرد على وتيرة واحدة .

إن الصفة الدراماتيّة التي تميّز العديد من المقاطع الروائيّة تُستوعب من قراءتها ضمن إطار النصّ بسهولة أكثر من أي وصف لها . وهي توجد على الغالب في سرد الأحداث التي لعب فيها المؤلّف نفسه دوراً رئيسيّاً ، مثل المفاوضات مع رسل الموصل عام ٥٧٩ هـ – ١١٨٤م في المقطع الثاني الوارد أدناه . يقوم اسلوبه المعتاد على بناء التفاصيل المرئيّة وخلق «الجوّ» بواسطة تراكم سريع ومعزّز للعبارات النابضة بالحياة والمثيرة ، بحيث تؤدّي إلى تعزيز الأثر العاطفي والعمق الخيالي للمشهد الموصوف. ولا حاجة بنا إلى القول إن هذا التأثير يضيع في القراءة السطحيّة. فالتوتر الدراماتي بأكمله يعتمد على التذوق التام لكلّ عبارة في قرينتها وسياقها .

أما العنصر الملحمي في العمل فهو أشدّ سهولة على التحليل ، والتمثيل عليه لا يكون إلاّ في الاستشهاد بفقرات طوال تمتدّ على صفحات كثيرة . هنا يجد نثر عماد الدين المسجّع تبريره الأشد إسهاباً. والشعر الملحمي في اللغة العربية هو مستحيل تقريباً ، بسبب رتابة الأوزان وعبء القوافي . ومهما يكن وقع عمل الفردوسي جميلاً في الأسماع الفارسيّة ، فإن مثل هذه المنظومات الطويلة المُقَطّعة والمقفّاة بطريقة ميكانيكيّة كانت تأبى الحساسيّة العربيّة أن تتحمّلها ، لكن النثر المُسَجَّع ، بتنويعه المتغيّر باستمرار في المدّات والشدّات ، قدّم

بديلاً يستطيع في أحسن حالاته ان يتحدّى المقارنة مع الشعر الملحمي . غير ان الصفة الملحميّة في كتاب البرق ليست مجرّد شأن من سرد رواية لحادثة ما بنثر مسجّع ومؤثّر . انها اسلوب كلّي قائم بذاته ، يشبه في بعض النواحي اسلوبه الدرامائي (الذي في استطاعته حقّاً أن يلعب دوراً ثانوياً في ذلك) ، لكن التوتر فيه ، بدلاً من تركيزه على حادثة مفردة، ينتشر على سلسلة من الحوادث فيؤلف وحدة معقّدة، وهو بالتالي متنوّع الشدّة .

ينصبُّ اهتمام عماد الدين الأوّل على وضع الأحداث في شيء من الإطار النفسي . ونجده في مطلع المجلد الثالث يستخدم طريقة التهكّم الدرامائي عبر التباين بين الثقة الجذلة لدى الجنود بمعسكرهم الحدودي والكارثة التالية في الرملة. ويجري التقديم لحملة الجزيرة عام ٥٧٨ هـ — ١١٨٢م بصيغة مسهبة لدعوة كوكبوري إلى صلاح الدين ، بتصوير مدنها وقلاعها وكأنّها تشتاق إلى احتلاله لها وتدعوه إليه (البرق ، ج٥ ، ٩ب . راجع ابا شامة II, 30 foot) ، فالتقدّم الظافر نحو الموصل يوضع بهذه الوسيلة في إطاره النفسي الملائم ، ويوصف بوفرة ضخمةمن الصور ، مع انه يقصّر عنبلوغ الاسلوب الأفضل لدى عماد الدين وينتمي بالأحرى إلى فئة يترتّب عليّ ان أدعوها بـ «الملحمة الثانويّة » :

والمثال الافضل في النصّ المتبقّي لدينا من كتاب البرق هو رواية حصار آمد عام ٥٧٩هـ — ١١٧٣م (V. 48b – 65 a) . فالإطار النفسي هنا يُعطى من خلال وصف لمدينة آمد ، بحيث يأتي التشديد على مناعتها واحترازاتحا كمها (ولقد تمثّل هذا في تجربة شخصيّة سابقة) ويؤدّي إلى الموضوع : «لم يدر بخلد أي ملك أن يحاول الاستيلاء عليها حتّى أيام صلاح الدين» . تلي هذا استعادة لمناسبة حصار صلاحالدين لها،لكي يفي بوعدقطعه إلى نور الدينبن قره أرسلان، وأضحى مشروعاً في حينه بوثيقة الخليفة. ثم يلي ذلك بالتفصيل التقدّم على المدينة وتطويقها، في صيغة جمع المتكلّم، كالعادة، مع تشديد طفيف،وليس

مفرطاً، على التباين بين قوات صلاح الدين الضئيلة وجسامة المهمّة . فالوضع العام والتفصيلات الإضافيّة يجري إبرازهما على شكل رسالة موجّهة إلى بغداد . ويتمّ استئناف أسلوب السرد المباشر مع وصف حيّ لهيجان نور الدين واهتمامه بصغائر الامور ، ثم يرد مقطع تهكمّي طويل يقارن بين السلوك والطاقة الرزينة لقوات صلاح الدين وبين المزايا غير الحربيّة للقوات الإرتقيّة. وبعد وصف لشدّة الدفاع وحوادث استسلام الحاكم، يأتي السلوك الشهم لصلاح الدين نحوه وفي تسليم المدينة بمخازنها الفخمة إلى نور الدين ، لكي يؤلّف ذروة طبيعيّة من دون ان يتطلّب أي اسهاب مملّ . فالمشهد كلّه تختتمه العبارة التالية : «لقد رويت هذه القصّة بالتفصيل لكي تعلموا ان الخيرات الدنيويّة لم تجد مكاناً في تقدير السلطان» .

إلاّ أنه مما لا سبيل إلى إنكاره هو ان ميزات الأسلوب الذي يأخذ به عماد الدين تنطوي على عيوب . فلو تركنا جانباً المقطوعات المرصوفة من البلاغة الخطابيّة والصنع البديعي والتي تؤلّف جوهر فصوله الموجّهة إلى القاضي الفاضل وأوصافه لفصول الطبيعة ، لرأينا بان فقراته الروائيّة غالباً ما يتمّ شرحها بإظهار للبراعة اللغويّة الفائقة، هذا الإظهار الذي مهما يكن مقبولاً في الأحداث الدراماتيّة أو الملحميّة ، فإنه يصبح حشواً مملاً عندما لا يدعمه أي توتر عاطفي يستدعي استجابة من جانب القارىء . والحالة هي كذلك بنوع خاص عندما يذعن لتجربته المزعجة من الانغماس في مجموعات من الاستعارات المنوّعة لكنّها تكراريّة للمعنى ، ويمكن الاطلاع على أمثلة منها في مطلع الفقرة التالية ونهايتها . هكذا فإن المؤرّخ الصريح يجده حتماً ، كما قال ابو شامة (I, 5 top) « طويل النفس حتى الإملال، قادراً على تحويل انتباه طالب الحقائق التاريخيّة عن سياق الرواية وجعله ينساه» .

ومن الخطأ الافتراض بأن عمل عماد الدين ، على كافة ميزاته الملحميّة والبلاغيّة، هو تعظيم لصلاح الدين أو مديح. لأنه سوف يكون من الصعب

العثور على فقرة واحدة مكرّسة للثناء على صلاح الدين في التعابير المعتادة للإطراء المتّسم بالغلوّ . فالأحداث نفسها ،والجيوش، وعدد من الأفراد تنال كلها نصيباً وفيراً من بلاغة الكاتب . وتقبع عظمة صلاح الدين في كونه الروح المحرّكة وراء كل ذلك . مما لا يمكن إنكاره هو ان عماد الدين كان معجباً بصلاح الدين عن اقتناع ، لكنّه يقدّم صلاح الدين عبر العمل كلّه كشخص إنساني كلياً، وكشخصية شهمة وعطوفه بالطبيعة على نحوٍ يتجاوز النوع العادي من الأمراء، متواضعة وليست معصومة عن الخطأ، وبالتالي عميقة في جدّيتها ومتحلية بإيمان راسخ جليل . هذا الإيمان الذي دعم صلاح الدين في كل نزاعاته وخيباته . على أن هذا كله يخلو من أي مبالغة، فهذا هو صلاح الدين على حقيقته . والمقطع المنقول [والمترجم] أدناه سوف يبيّن كيف ان عماد الدين يبرز ، على غير وعي منه تقريباً ، الخلق الحقيقي لسلطانه ومزاياه .

[إن المقتطف الذي يلي من المجلّد الخامس لكتاب البرق يروي عن المفاوضات مع الموصل عامي ١١٨٢ و ١١٨٤ . ولقد جرى اختيار هذا لأسباب عدّة. فهو يظهر ، في المقام الأول، كم من التفصيلات ذات الاهميّة الخاصّة للحكم التاريخي حُذفت في ملخّص ابو شامة (II, 53 – 54) ، وبالمقارنة مع رواية بهاء الدين (طبعة شولتنس ٥٧) الذي كان عضواً في وفد الموصل ، وإلى أي مدى يمكن التعويل على عماد الدين في تصويره للأحداث والشخصيات . ويكشف، ثانياً، عن شخصيتّي السلطان والكاتب وعلاقاتهما بوضوح وحيوية غير مألوفين . كما يمثّل، بالأضافة إلى ذلك، على اسلوب عماد الدين، الروائي والدرامائي منه، ولا سيما في الصورة التي يرسمها لرسول الموصل. واخيراً، فإن الحالة المحرّفة لبعض المقاطع سوف تبيّن نواقص هذه المخطوطات ،والأساس غير المرضي الذي سوف تزوّده في حال إصدار طبعة للنصّ. ففي الكثير من الأماكن زوّدت الحروف غير المنقّطة بعلامات صوتيّة مميّزة. وأجريت بعض التصحيحات الطفيفة دون تعليق، غير ان العدد الإجمالي لمثل هذه التعديلات

التحريرية التي يتطلبها المجلدان سوف يكون كبيراً تماماً. فالترجمة الملحقة هي ترجمة ملخصة ، إذ جرى فيها اختصار بعض الاسهابات اللفظية لعمادالدين، لأنها حتى وإن كانت تشكل جزءاً جوهرياً من البناء الدرامائي للنص الأصلي، فقد تعذر نقلها إلى أية لغة أخرى . بحيث يتسنى الحفاظ على تأثير موازٍ لها.] •

* اكتفينا بإيراد النص العربي الأصلي مع إلحاق الحواشي التي اضافها البروفسور جب المترجم .

الحاشية رقم ٦ : [١٦ أ] - « وعفونا عن أوزار الجبناء » : يبدو انها تعني ما يلي : « حتى ارتد الذين التحقوا بنا لكنهم لم يقفوا معنا قلبياً بالفعل، فتركناهم يذهبون ، لأن قيمتهم العسكرية لم تكن تتجاوز قيمة الجياد الاحتياطية ».

الحاشية رقم ٧ : [١٣٠ ب] — إن التفاصيل عن هؤلاء الامراء والتي يوردها ابو شامة (حاشية II, 53) هي محذوفة .

الحاشية رقم ٨ : أسفل الفقرة التي تحمل رقم ١٣١ ب : « وأشار إلى سلطان العجم والبهلوان » المقصود بذلك هما : طغريل الثاني بن ارسلان شاه (١١٧٧ — ١١٩٤) ، وهو آخر سلاطين السلاجقة على العراق ، ومحمد جاهان — بهلوان بن إلدغيز (١١٧٢ — ١١٨٥) اتابك اذرتيجان . وفيما يتعلق بتعاونهما وهجومهما على السلطة الزمنية المتزايدة للخلافة ، انظر الرواندي : راحة الصدور ٣٣٤ — ٥

و Barthold, **Turkestan**[2], 346 - 7

[٥٨٤هـ] ذكر وصول رسل دار الخلافة I.

ذكر وصول رسل دار الخلافة للشفاعة وردّ المَواصلة بالمصلحة فى المصالحة الى الطاعة

[١١١ا] ووصل الينا النيّر بن رسل دار الخلافة واصلين وفى أمر الموصل شافعون سائلون وهم صدر الدين شيخ الشيوخ وشهاب الدين بشير ومعهما من خواصّ الديوان جمع كثير فتلقّاهم السلطان بالصدر الرحب والبِشر العَذب والخُلُق السهل غير الصعب والسلم البكر من عَوان الحرب والخطاب المتوجّه لصرف وجه الخطب وكنتُ الى جنب السلطان له مسايرًا واليه وله فى المهامّ ناظرًا مناظِرًا والموكب مشهود والمذهب مقصود والمطلب موجود والطالع مسعود والشارع محمود والملتقى مودود والملق مردود ولواء الإقبال معقود ورواء الادبار مفقود وشعائر الدولة الإماميّة المشرقة فى أيامنا البيض سود والبنود غابة من فوقها عقبان ومن تحتها أسود وما كان أشرح صدرى بلقاء الصدر وأتمّ بُشرى بطلوع البدر وطاب برؤيته الرىّ والريّا .... [ق ١٢٠] .... وشاع ان شيخ الشيوخ قد وصل فى الصلح واغلاق باب الفتح وحصّ قوادم النصر وشيم صوارم النصر وبرد حرّ الحرب وردّ غرب الخطب وتفليل نيوب النوائب وتقليل شوائن الشوائب وتذليل الجوامح وتعديل الجوانح وتدمير الشنأن وتدبير الشؤون وتزييل الأحزان وتسهيل الحزون وتأليف النفوس النافرة وتوظيف النفائس الوافرة واطفاء الوقود واخفاء الحقود واغماد السيوف واخماد الحتوف ووضع الأوزار ورفع الاوتار .... وتقرير السلم وتقريب الحلم ووصل رسول مظفر الدين قزل أرسلان جهان البهلوان مُحيا الاحسان واجتمعت رسل الآفاق داعين الى الوفاق فقال الذين لاذوا لنا من البلاد من الاجناد الأتراك والاكراد هؤلاء غدًا يصطلحون وتندمل قروحهم على ما يقترحون ونحن نحظى بالإخفاق وحرمان الأرزاق ونبوء بالشقاوة والشقاق وسوء سُمعة النفاق ونقع فى الحضيض ولا تقع بنا الحظوظ ويُقطع إقطاعنا الموصول المحفوظ [ق ١٢٠ب] فأخذوا امان البلد ودخلوا وكما طلعوا لنا عنّا افلوا واعتذروا باننا نُشبنا ونُسبنا الى الخلاف لواننا اليكم نُسبنا ووافقهم جماعة من أصحابنا طمعوا منهم فى العطايا والخِلَع وهذه من أيسر جنايات الطمع ونحن نصرّح بإباء المصالحة والاستواء على المكافحة وترك قبول الشفاعة واستفراغ المجهود فى شغل الحصر وبذل الاستطاعة والناس يقولون هذا لا يستتمّ وانّ هذا الشعث لا يدوم بل يسترمّ وفى كل يوم نناوب القتال ونعاقب النزال والملك المظفر تقىّ الدين يحمل من جانبه ويُبلى ومن وُسعه فى الجلاد لا يخلّى ويجرى فى مضمار النضال وهو السابق المجلّى وتاج الملوك أخو السلطان فى كلّ حلبة وجلبة نوبة يبارز ويحاجز ويناجز ويفترص ويفترس ويحترز ويحترس ويختلب ويختلس والأقران تفترق والشجعان تعطفن والفترات تفتتح والنعرات ترتفع .... وشيخ الشيوخ يَنهى ويُنكر ويردّد التوبيخ ويكرّر ويعدّد ويفنّد ويقرّر التقريع ويؤكّد ويصدر بالتغضّب ويَرِد ويقول كيف أحضر المحظور ولا أحذر المحذور وانا جئت فى التوسّط والمنع من التورّط ولا رضى مع التسخّط وهذا

|[15a] الفعل المفوت اذا غبت لا يفوت فإن كان لى قبول وعلىّ إقبال ولعقد حلول لهذه العُقد انحلال فتصبّروا وتربّصوا واسكنوا ولا تحرصوا حتّى أرسل من اليوم الى القوم وأتكفّل فى منع هذه المتاعب برفع السّوم وأحسنوا تَرك ما لا يحسن وانزلوا الى اللين عن النزال الذى يُخشَن[15a] واقبلوا تُقبلوا واعدلوا ممّا أنتم فيه تعدلوا فقلنا له السمع والطاعة والحبّ والكرامة وما أحسن مُرادك اذا أردتَ السلم والسلامة وتحوّلنا الى جانب لا يبعد عن الرسل طريقه ولا يفرق على البُعد فريقه وأرسل شيخ الشيوخ الى القوم صاحبَه وذكر مطلبه فشرعوا يندبون كلّ يوم رسلهم ويملأون بالمراسلات الخادعة سبلهم فخرج أول يوم جمال الدين محاسن مع اخى النقيب الشريف واستفتحا فيما عَرامهم بالتقريع والتأنيب وكان حضورهم فى خيمة شيخ الشيوخ عنده وقد خلا بهم وتخلّى بهم وحده فأنفذ الى السلطان من عرّفه وصولهم واستدعى منه ثقاته الذين يسمعون فصولهم فتقدّم الى القاضى الأجلّ الفاضل والىّ والى الفقيه ضياء الدين عيسى الهكّارى بأن نحضر ونحصى كلّ ما يقولونه ونحضر ونُنهى ما نسمعه بفصله وفصّه ونتلو ما نعيه بظاهره ونصّه فأذهبوا ذلك اليوم بالشكاية ولم يوصلوا مبدأها الى الغاية ثم قالوا ندخل ونخرج غداً بالحديث المبيّن |[15b] والأمر المعيّن ولا نخرج عن الممكن وجاءوا ضحوة الغد مستقيمين فى جدّهم على ذلك الجدَد وذكروا مطالب متكثّرة ومآرب متعذّرة واقترحوا إعادة البلاد المأخوذة وقصدوا بها تقليل الحدود المشحوذة وانّنا نعود الى الفرات ثم نتكلم فيما يعود بجمع الأشتات وراموا بذلك إذهاب الأوقات ومكثنا على هذا السَنَن وتفسيخ العقود وتمسيخ الزمن قريبًا من شهر لا ننتهى الى أمر مستقرّ وهم يقصدون الخدع والختل وشيخ الشيوخ ينسّبنا الى اننّا لا نؤثر الفصل فدخلنا فى كلّ ما أرادوه وزدنا فى جواب سؤال ما زادوه وانفصل الأمر على ان ردّوا علينا حلب ونردّ على صاحب الموصل كلّ ما طلب وكان قد عرف الأجلّ الفاضل فحوى مقالهم ودعوى محالهم وانّ وجه صلاحهم وصبح صلحهم لا يؤذن بالإسفار والسفور فانقطع بعد أيام بعذر ذكره عن الحضور وكنت أحضر أنا والفقيه عيسى للسماع والإنهاء والقبل والأداء ثم انقطع الفقيه عنهم وتأفّف منهم واستمرّ تردّدى ولم أجذب عن المهمّ يدى فوجدوا بذلك مهلة وأصابوا لظمائهم بوردهم وصدرهم نهلة وهم فى أثناء ذلك يستجدون الأملاك ويستجدّون الإشراك وينصبون الحبائل ويطلبون المقاتل ويجلبون المخاتل ويستفسدون بالإطماع ويسترشدون بالخداع ويلتمسون مساطة الأطراف |ويُظهرون الوفاق [16a] ويذهبون فى السوء مذهب الخلاف حتّى صفونا من أكدار الغرباء وعفونا عن أوزار الجنباء

ذكر دخول شيخ الشيوخ الى الموصل

ولم يزل يتمحّض الزبد وينتقض العُقد ويتمحّض الصواب وينفذ كلّ حساب [1] حتّى استقرّ أن يدخل اليهم شيخ الشيوخ لابرام العقد المفسوخ واحكام العهد المنسوخ وظنّ ان وردهم صفو وان وعدهم من الخلف خلو وان حقّهم صحيح وان صدقهم صريح

فمضى لإيلافهم وإيلافهم ومُرعي أُخلافهم ورفع خِلافهم فظلّ وبات عندهم يومه وليله
وأُجرِي في مضمار ختلهم خَيله وأراهم نَيله ووفّاهم كَيله فسمع حديثًا حديثًا [عنه] ردّ عليه
للغطاء ذَيلهُ ووجد للمُلف مجالاً لم يجد للمِلف محلاً الّا محالاً ورآهم متفرّقين في طرق
التلوّن والتلوّم غير مجتمعين على سلوك النهج الأقوم وأنكروا كلّ ما ذكره رسولهم
وأنّ سِوى ما سأله سُولهم وانّ صلاح الدين لن أُراد وِفاقنا ووافق مُرادنا رحل عنّا
وردّ بلادنا ونحن نخلّى بينه وبين حلب ولا نَطلب ايضًا عليهما إسعادنا فإنّ لعماد الدين
زنكى أخينا معنا يمينًا فكيف يجد منّا عليه مُعينًا فإن رضيتم بما سألنا والّا فما سمع الناس
وما قلنا [[a161]] وكان المستقرّ مع الرسل انّهم يسلّمون الينا حلب ويستعيدون منّا
البلاد ونعقد معهم الوداد ويحضرون معنا الجهاد ثم ندّموه على ما قدّموه من التقرير
وأخذوا في غيره من التدبير ولم يكن تمرّضهم له مرضيًّا فانصرف مُغضبًا مُغضيًا وخرج
الى بغداد متوجّهًا وعلى مكرِّ مكرهم متنبّهًا فجاؤوا اليه وتعرّضوا وتضرّعوا وسألوه
وتشفّعوا وقالوا تعود وتعيد ما سمعتَه وتحكى من المعنى ما استعلمته [استعملته cod.؟]
فلعلّك تأتى بالعَسَل بعد النَّحل وتردّ بلطفك مَن عنف علينا وصعب الى المنهج
الأسهل فربح بغير ما رَجَا واستكشف كذبهم حجاب الحِجَا وما أضوأ صباح ما جدّ فيه الأجد
لوانّ ليل جُدّهم ما دَجَا فلمّا اجتمع بالسلطان استعفى من الكلام واستوفى حديث ما
أبصره وسمعه من الأقسام فقال له هذه أشهرٌ شِراف وميامن بقدومك طِراف وقد
عزمنا ان نرحل ونهب لوصولك الموصل

[b129] ذكر السبب المقتضى لهذه الرسالة في هذه السنة II

لما عرف صاحب الموصل ما تسنّى لنا من فتح آمد وحلب وتيسّر كلّ ما أراده السلطان
وطلب خطر بالتخطّى البلوىّ وعود العُدوى واتّساع خطب الخطوب اليه واتّساق كرب
الكروب عليه فكّر فكرَه في حلاب الخلايب ومزج بماء التودّد طِلاء الطلاب ومال الى
الاستعطاء والاستعطاف وتنكّب بالإستكانة نهج الاستنكاف وشرع في استسعاد سله
[؟] الاستسعاف واستدعى من الديوان العزيز إرسال شيخ الشيوخ للاستشفاع لعلمهم
انّا لا نرى الّا الاعتماد بالطاعة للأمر المطاع وندب قاضى القضاة محيى الدين أبا حامد أحمد
ابن محمد بن عبد الله بن القسم الشهرزورى للرسالة من جانبه وناط بسعيه نُجح [ونجح cod.]
مطالبه فجاء في جاهٍ أنيق ولسانٍ ذليق وأُبّهة وبهاءٍ ورواية[؟] ورُواءٍ وتكمّل وتكلّف
وتطرّق وتطرّف وترفّع وتعرّف وتقشّع وتقشّف وتأرّج في مهابّ المهابة [[a129]] وتبلّج
في صباح الإصابة * وملق لما ترفع من رايه المجد بيمين عرابه يوترق في ذروة الخطاب بحلوته
على منبر من برّه الخطابه [؟ cod.] ولو تخلق بخلق مُرسله في الترفّع بالتواضع [و] وصله إمكان
التواصل بقطع أسباب التقاطع لكفى الغرض وشفى المرض ولم يكن في بلاغ بلاغٍ ولم يحدث
قلبه في الشغل شغل القلب وهو يرى انّه مفحّ ونصح [؟ نصح cod.] فراغ الى فراغٍ فانّه لمّا

وتنزل لزم ناموسه وأطال في محلّ تساميه جلوسه وقطب ببسر وجهه عند توجيه عرمته تعلوبه وعبوسه وأظهر كانّه الأمين نزل بالوحي من السماء وجاء بعُطارد في بيته بالجوزاء ولم يأخذ في طريق الاستبداء وظنّ ان في ذلك لمخدومه نصيحة وخدمة صريحة وبُغية محجة ونيابة في كفّ نائبيه [Cod.s.p.؟] كافّة مريحة على أن السلطان قابل شدّته باللين وأعطاه يمينه على أخذ اليمين فاشتطّ واشترط وكلّما قاربنا شحط وكلما أرضيناه سخط وكلما قوّينا رجاءه قنط وكلما توخّينا أمرًا جامعًا للمصالح أبى الّا مراده المارد ولم يوافق مصادرة الموارد ولواته تلطّف واستـ .نف وترفّق وما عنف وعرف وعزف وتألّف وما تأفّف وعفا ما عاف وما تعنّف لوضحت [130a] المحجّة وصحّت الحجّة وحصل المخطوب ووصل المطلوب لكنّه لزم مالم يلزم وجزم ما لا يجزم وعيّن شرطًا له مانع وبيّن قسطًا فيه منازع وكان قد استعان بقوم من خواصّ السلطان في تمشية الأمر بقدر الامكان فحسّنوا ظاهرًا له بواطنٌ وباديًا له كوامنُ وحلفًا يبقى معه الخلف ورفقًا لا ينتفي به العنف ووفاقًا كلّه خلاف ووفاءٌ كلّه إخلاف.

ذكر كشف الحال في ذلك

كانت قد وصلت رُسل صاحب الجزيرة وصاحب إربل وصاحبيّ تكريت والحديثة يشكون من صاحب الموصل وتكليفاته وأثقاله [130b] الكبيرة الكثيرة ...... وفي الاعتزاز بنا والاعتزاء الينا يرغبان وكلّ أخذ من السلطان عهدًا أن يحميَه ويقيَه ويُسعده ولا يُشقيه وانصرف رسلهم على هذا القرار وشُفعت شفاعتهم في أمورهم بالأمرار ثم كان وصول صدر الدين شيخ الشيوخ ومحيي الدين الشهرزوري ووقع الشروع في حديث حادثتهم والمجازة دواعيهم واجابة بواعثهم [c؟] وكان القاضي محيي الدين الشهرزوري سالفًا في المدرسة النظامية رفيقي وآنفًا في الأيام النوريّة صديقي فصدفوه في هذه المرّة عن مشاورتي وصرفوه عن محاورتي ولو استشارني لعرّفته النهج ولقّنته الحجّة اذا احتجّ وسلكت به طريقًا للمصالح جامعة وللعوائق رافعة فصرتُ عن سرّه بمعزل حتى استقرّت قاعدته واستمرّت عائدته ولم يبق الّا عُقدة للتأليف تحرّر ونسخة للتحليف تُقرّر فاستدعاني السلطان ذات يوم غدوةً وقال اكتب شرطًا يكون [131a] لنا في الوفاق قُدوة فقلت له كيف تستثني بأولائك الذين توثّقوا بعهدك وسكنوا الى وعدك وهؤلاء لا يرضون بالاستثناء ولا يأتون الّا بالاباء وكيف تُنسب الى ترك الوفاء وكيف يشيع هذا بين الأولياء والأعداء فقال اكتب ما تنزّهني فيه عن الخُلف وتنبّهني به على صدق الحلف فقلت تحلف لصاحب الموصل على موصله وتُنجح مؤمّله واصفاء مَنهله وتجعل أمر أصحاب تلك البلاد الى اختيارهم وتجريبهم على إيثارهم ومَن اختاره فله عنده سؤله وسؤاله وهو يشرع في استرضائهم واسترغابهم واستدعائهم على وفق آرائهم فاذا صحّ لنا في عودهم اليه امرهم بُسط عذرنا وقُبض ذُعرهم فقال لي امضِ الآن الى شيخ الشيوخ وعرّفه القضيّة وأرضِه بهذه الحالة المرضيّة وما فيها من المصلحة المرعيّة للرُعاة والرعيّة والمم أيضا بمحيي الدين

وإمّا قد أجبناه على هذه الشريطة الى اليمين فأمّا شيخ الشيوخ فانّه عرف واعترف
وأسعد بالمراد وأسعف وأمّا محيي الدين فانّه أبى الّا الإباء وأنكر الاستثناء وقال لا نَقبل
ولا نُقيل وهذا ممّا يستحيل فلا ينجح به التأميل ولا ينقطع به القال والقيل وأولائك في بلادنا
نوّابنا وفي ولاياتنا وُلاتنا وأصحابنا وفي خروجهم علينا ما لا خفاءة به من تفريق [131ب]
الكلم وتشتيت الشمل المنتظم وتبتيت الحبل الملتئم فاذا عرفوا انكم لهم بوثّقتم وعليهم
أشفقتم خُرق إجماعهم ومُرقت أطماعهم وزاغت عنا أبصارهم وأسماعهم فاتركونا وإيّاهم
ولا تدركوا بكوامهم واعتذروا اليهم بأنّا إنّما قبلناكم ايّام السُخط وقرّبناكم في أوان الشحط
والآن فقد كمل الصّلح وشمل النُجح فأجروا على العادة ولا تخالفوا في الإرادة فقلنا تأخذ
منّا الآن عهدًا كما شرعنا وشرطنا وحفظنا به الجانب واحتطنا واشرعوا أنتم في الاستمالة
وتنكّبوا طرق الاستحالة فما قبل الرسول ولا تمّ بقبوله السول ثم استأذنوا في الانصراف
والاستيمان على ما تقرّر من الاستملاف فأكرم الرسل الكرام وقُضيت حقوقهم بكل تشريف
وعطيّة وتحفة وهديّة وكان صدر الدين شيخ الشيوخ كبير الهمّة أثيرًا لا يقبل قليلًا ولا كثيرًا
فاذا أُحمل اليه الطعام فرّقه على الأجناد الذين معه من الديوان الإمامي وعصم أحواله بالخلق
العصامي فما زلت به حتى أجاب كل يوم الى رغيف وباجة متّخذة من دجاجة فلما خرجوا من
دمشق عازمين على السير وعرف السلطان انهم قد خيّموا بالقصير قال قد استحييت من
صدر الدين شيخ الشيوخ وانّه كلّما ورد بالعُقود صدر بالفسوخ وقد عوّلت على أن أركب
لوداعه [132أ] وأقرب لاتّباعه وأقابل مثاله بامتثاله وأُقبل مقاله لأجله ولإجلاله ونحن
نستشير أرى رأيه واشارته ونكتب نسخة اليمين كما يُمليه بعبارته فسبقت اليهم بأمر
السلطان وعرّفتهم بسرعة وصوله وشرعة قبوله فلمّا وصل نزل في خيمة الصدر متّضح البشر
ثم كشف له عن القناعة بما ساله القناع وساله بالرسول في عقد الإجماع والاجتماع فأرسل
اليه من يعلمه بالأمر ويقفه على السرّ ويضيق عليه سعة العذر فلمّا رأى تواضع السلطان
ترفّع ونسي ما اقترح ولم يذكر ما اخترع وقال أنا بعد ماجرى من الحال لا رغبة لي في
الاسترسال حتى أنهي الى من خصّني بالإرسال ولعلكم اعتقدتم انّه ليس لنا مُظاهر ولا مظافر
ولا مؤازر بل لنا من يسأل عنّا ويشتمل علينا ويعصمنا ويميل الينا ونحن نكاتبه نستشير
به ولا نتوخّى خلاف مذهبه وأشار الى سلطان العجم والبهلوان فأذن هذا القول بنفار
السلطان وترك ما عزم عليه وودّع وركب وبعُد الأمر الذي كان قرب وكان قد أُرسل
للإطفاء فأسعر وللاستجداء فتكبّر وللإخماد فأشعل وللإرشاد فأذهل وللتقليل فأكثر
وللإقالة فعثر وللاسترضاء فأغضب وللإنباع فأنصب وللاستمالة فاشتدّ وللاستكانة فاحتدّ
وللاستعطاف فشمخ وللاستعطاء فذمخ [132ب] وللأسو فعقّر وللصفو فكدّر وكان السلطان
فاتر العزم في العود الى الوصل فعاجه وحرّف اليها مزاجه وسدّد لها منهاجه فلو تمسّك
منه بظاهر يمين لوضع يده في يد أمين وفاز لمرسله في مكانه بتمكين....

8*

الفصل الخامس

ظهور صلاح الدين

١١٦٩ – ١١٨٩ *

يشكّل عهد صلاح الدين اكثر من حادثة عابرة في تاريخ الحروب الصليبية .

---

* إن المصدر الأساسي لهذا الفصل هو كتاب البرق الشامي من تأليف كاتب صلاح الدين عماد الدين الإصفهاني (والمجلدان الثالث والخامس من هذا الكتاب هما الموجودان لدينا فقط على شكل مخطوطة . أما المجلدات الأخرى فهي ملخصة مع غيرها من المواد المعاصرة في كتاب الروضتين لأبي شامة ، الذي ترجمت أجزاء منـه في (RHC, Or., IV, V) ولا تصبح سـيرة صلاح الدين التي وضعها بهاء الدين (RHC, Or., III) مصدراً مباشرة إلا ابتداء من العام ١١٨٦ . بينما ابتداء من ١١٨٧ فصاعداً هناك كتاب عماد الدين الأسبق والأقصر ، الفتح القسّي، (طبعة ليدن ، ١٨٨٨) وهو يضاهيه جدارة في الاعتماد والقبول . إن روايات ابن الاثير في تاريخه العام (الكامل ، المجلدان الحادي عشر والثاني عشر ، طبعة ليدن، ١٨٥١ – ١٨٥٣ . وتوجد منتخبات منه في RHC, Or., I, II) معظمها مستقاة من عماد الدين . وتبقى الامنية في وضع مجموعة كاملة للوثائق الموجودة عن القاضي الفاضل . هناك قائمة ناقصة في كتاب A.H. Helbig عن « القاضي الفاضل » (لايبزيغ (١٩٠٨) أما كتاب س. لين – بول عن « صلاح الدين وسقوط مملكة القدس » (لندن ونيويورك ١٨٩٨ ، والطبعة الجديدة أصدرها H.W.C. Davis عام ١٩٢٦) فإنها تستند بشكل رئيسي إلى ابن الاثير وبهاء الدين .

*** Gibb, H.A.R., « The Rise of Saladin, 1169 – 1189 », Chapt. XVIII of A History of the Crusades Vol. 1, ed. by K.P. Setton, pp. 563 – 589, Philadelphia 1958 c by the regent of the Univ. of Wisconsin.**

فهو يمثل إحدى تلك اللحظات النادرة والمثيرة في التاريخ البشري ، وذلك عندما يكون التصميم الأخلاقي ووحدة الهدف قد أطاحا لفترة وجيزة بكلّ من الشك في طيبة الدوافع البشريّة والتحرّر من الوهم ، وهما الناجمان عن خبرة طويلة لأطماع الأمراء الأنانيّة . إذ لم تكن الجيوش الإسلاميّة بدون هذا الاساس لتملك القدرة ابداً على إبقـــاء الصراع المضني وتحمّله خـــلال الحرب الصليبيّة الثالثة . فلو شئنا النظر إلى ذلك الانجاز وفهمه في إطاره التاريخي ، لوجب القيام بمحاولة لإظهار كيف استطاع صلاح الدين ، في استخدامه – كما كان عليه ان يستخدم – للمواد الموجودة في متناول يده ضمن الظروف السياسيّة لعصره ، ان يتغلّب على جميع العقبات لكي يخلق وحدة معنويّة برهنت ، رغم انها لم تتحقق بصورة كاملة أبداً ، ان لها من القوّة ما يكفي للوقوف بوجه التحدّي من القرب .

: قضى صلاح الدين يوسف بن أيوب طفولته في بعلبك ، حيث كان أبوه أيّوب حاكماً للامراء الزنكيين في البداية ولأمراء دمشق لاحقاً . وفي العام ١١٥٢ ، وكان عمره ١٤ سنة ، التحق بعمّه شيركوه في حلب وبخدمة نور الدين ، فأعطي إقطاعة . ثم خلف عام ١١٥٦ أخاه الأكبر توران شاه كنائب لعمّه في ديوان الجيش بدمشق ، لكنّه تخلّى عن المنصب بعد زمن قصـــير احتجاجاً على احتيال المحتسب الأكبر . وانضمّ مجدّداً إلى نور الدين في حلب فأصبح واحداً من ملازميه المقرّبين . و «لم يفارقه ابداً سواء في رحلاته أم في غدواته» (١) . ثم تولى مرّة أخرى فيما بعد منصب نائب القائد في دمشق لفترة غير محدّدة . وإلى جانب براعته في لعبة الجوكان (البولو : وهي لعبة رياضية أصلها شرقي يمارسها اللاعبون على ظهور الخيل فيتقاذفون كرة خشبيّة بمضارب طويلة . المترجم) التي ورثها عن أبيه ، واهتمامه بالعلوم الدينيّة الذي استوحاه

---

١ – ابن ابي طي ، وقد استشهد به ابو شامة (I, 100)

على الأرجح من منافسته الإعجابيّة بنور الدين ، فلا نعرف شيئاً غير ذلك تقريباً عن سنواته الباكرة .

كان صلاح الدين خلال الحملات الأولى في مصر قد لعب دوراً ثانوياً لكنّه ليس بالدور المغمور تحت قيادة شيركوه . وعندما استُدعي شيركوه للمرّة الثالثة إلى مصر عند نهاية ١١٦٨ ، بناء على التوسّل العاجل من جانب الخليفة الفاطمي العاضد ، رضخ صلاح الدين مكرهاً — على حدّ قوله هو — لاوامر نور الدين بمرافقته . ويبدو جلياً أن القصد من وراء هذا المنصب هو ان يكون منصباً دائماً هذه المرّة . ففي رواية ابن الاثير ان الخليفة الفاطمي كان قد اتخذ ترتيبات مسبقة لتوزيع الاقطاعات على الضباط السوريين . كانت مأثرة صلاح الدين الأولى بهذا الصدد القاء القبض على الوزير المتآمر ، شاور ، الذي كان مسؤولا عن استدعاء الفرنجة ، وإعدامه بناء على أوامر الخليفة . فتولى شيركوه الوزارة، وأشرف صلاح الدين بالأصالة عنه على سير الإدارة .

وعندما توفي شيركوه فجأة بعد مضي تسعة اسابيع ، كان صلاح الدين بالتالي خليفته الطبيعي ، رغم أن نفراً من مقدّمي نور الدين الاتراك استاؤوا من تعيينه وقفلوا راجعين إلى الشام . إن شهادة تعيينه (تنصيبه) الفخمة بتاريخ ٢٦ آذار ، ١١٦٩ ، ومنحه رسمياً لقب «الملك الناصر» ، لا تزال موجودة . فهي من تأليف صديقه المخلص ومستشاره القاضي الفاضل ، ومن بين فقراتها الطنّانة ترد عبارة تنبوئيّة على نحو يسترعي الانتباه ، إذ يقول :

« والجهاد أنت رضيع درّه ، وناشئة حجره . . . فشمّر له عن ساق من القنا ، وخض فيه بحراً من الظُّبَى . . . حتى يأتي الله بالفتح الذي يرجو امير المؤمنين ان يكون مذخوراً لأيامك ، وشهوداً لك يوم مقامك» (ابو شامة : **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين** ، مجلّد أول، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٤٠٩ . المترجم) .

كانت مهمته الأولى هي التصدّي للمشكلات التي أثارها مركزه في مصر . وفي الواقع ، مع ان صلاح الدين تعيّن رسمياً كوزير ، فقد كان «السلطان» ، ودُعي بهذا اللقب عموماً ، مع القاضي الفاضل كوزير له . فالشذوذ الظاهر من وجود وزير سنّي لدى خليفة فاطمي لم يكن بالشيء الجديد ، لأنه طيلة قرن تقريباً كان هناك وزراء سنيّون على فترات متقطّعة في مصر . وحتى زمن حديث العهد كان الخلفاء العباسيّون تقريباً بمثابة أدوات سلبيّة في أيدي السلاطين السلاجقة ، أعداء الفاطميين الألدّاء . واعتناق المذهب السنّي لم يكن لينطوي بالضرورة على اعتراف سياسي بالعباسيين . غير ان العباسيين الآن أخذوا يثبتون سيادتهم من جديد ضد السلاجقة ، وكانت حركة الجهاد في بلاد الشام ، المولودة من إحياء للارثوذكسيّة السنيّة ، قد وضعت نفسها تحت رايتهم . فلا يمكن قيام أية وحدة فعّالة مع مصر إلاّ بموجب هذه الشروط وبالتالي فإن صلاح الدين كان ملزماً بمبادئه في إرجاع مصر إلى الولاء العباسي ، لكن الضرورة دعت إلى تمهيد السبيل أمام التغيير .

قبع الخطر الرئيسي في الجيش المصري ، المؤلّف من أفواج عديدة من الفرسان البيض وحوالي ٣٠,٠٠٠ من المشاة السودانيين . فبدأ صلاح الدين على الفور ببناء جيشه الخاص على حساب الضباط المصريين ، وعندما اندلعت ثورة للسود كان قد أصبح لديه من القوات النظاميّة ما يكفي لإهلاك القسم الاعظم منهم وطردهم خارج القاهرة إلى الصعيد ، حيث عمد اخوته في مجرى السنوات الخمس التالية إلى سحق مقاومتهم تدريجاً . أما قوّات البيض فلم تبد حراكاً ، ويبدو انها تعاونت مع صلاح الدين في صد هجوم املريك (أموري أو عموري) على دمياط (١١٦٩) ، وفي الإغارة على غزّة والاستيلاء اللاّحق على أيلة في كانون الأول ١١٧٠ (٢) . لكن نور الدين كان يلحّ عليه لاتخاذ الخطوة الحاسمة

---

٢ – فيما يتعلق بحملة املريك المصرية انظر **A History of the Crusades** Vol I, Chapter XVII, pp. 557 – 558

باعلان الخلافة العبّاسية في مصر ، وبعد طويل وقت بعث إليه في شهر حزيران سنة ١١٧١ بأمر رسمي ان يفعل ذلك ، وفي الوقت ذاته أبلغ الخليفة العبّاسي عن عمله . فأطُيع الأمر دون اضطرابات خارجيّة فوريّة . ولدى وفاة العاضد بعد ذلك بزمن قصير جرى وضع أبناء البيت الفاطمي في أسر مشرّف وتمّ الفصل بين الجنسين لكي تنقرض سلالتهم مع سير الزمن الطبيعي ، واقتُسمت الكنوز الضخمة التي في قصورهم بين مقدّمي صلاح الدين ونور الدين (أبو شامة: «وفرّق بين النساء والرجال ليكون ذلك أسرع إلى إنقراضهم») .

غير أن العلاقات الطيّبة التي استمرّت حتّى هذا الحين بين نور الدين وصلاح الدين أخذت في التوتر تدريجاً . وربما أثيرت بعض الشبهات من جرّاء إخفاق صلاح الدين في مساعدة سيّده خلال الحملة على حصن الشوبك في تشرين الاول ١١٧١ ، مهما يكن من أمر الأسباب الوجيهة التي ارتأى تقديمها لتبرير انسحابه. وفي السنة التالية تبيّن ان هديته إلى نور الدين من كنوز الفاطميين هي غير كافية. فمن المحتمل أن تعود أسباب التوتر ، جوهريّاً ، إلى اختلاف الآراء السياسيّة. إن نور الدين اعتبر بلاد الشام بمثابة الأرض الرئيسيّة للمعركة ضد الصليبيين ، وتطلع إلى مصر في الدرجة الأولى كمصدر للواردات تُسَدّ به نفقات الجهاد ، وفي الدرجة الثانية كمصدر للطاقة البشريّة الإضافيّة . ومن الجهة الأخرى ، يبدو ان صلاح الدين – استناداً إلى التنافس الأسبق على مصر ومحاولة إحتلال دمياط عام ١١٦٩ ، وفي كونه على الأرجح عالماً بفحوى المفاوضات التي أجراها أملريك مع الامبراطور البيزنطي عام ١١٧١ – كان مقتنعاً بأن نقطة الخطر الرئيسيّة في الوقت الراهن على الأقل تقبع في مصر . كذلك كان صلاح الدين اكثر وعياً من نور الدين للأخطار الناجمة عن عداء القوات الفاطميّة السابقة واستعدادها للانضمام إلى جانب الفرنجة . لذا فإن واجبه الأول ، بنظره ، كان في بناء جيش جديد ذي قوّة تكفي للاحتفاظ بمصر في جميع الظروف الطارئة، وفي انفاق ما استطاع اليه سبيلاً من الموارد على هذا الغرض .

ولأسباب تتعلّق بالأمن الداخلي إلى حدّ كبير أيضاً أرسل صلاح الدين العساكر لاحتلال مراتع النشاط الفاطمي عند أعالي النيل وفي اليمن ، مع ان طموح أخيه الأكبر توران شاه كان له بعض النصيب في الحملة الثانية . ويتجلّى مدى جديّة هذا الخطر بنظر صلاح الدين في حقيقة كون الدفاع عن مصر ضد هجوم مفاجىء قد بقي واحداً من اهتماماته الدائمة حتى آخر حياته . غير ان الامتداد المتواصل لنفوذه وقوته العسكريّة ، التي كانت عام ١١٧١ تضاهي القوات الموجودة بتصرّف نور الدين، وإن لم تكن حتى تتجاوزها، ربّما جعلت نور الدين قلقاً. وكان هناك شيء من الكلام عن نيته في النزول إلى مصر بنفسه. لكن حسن نيّة صلاح الدين تبدّى من خلال حملة شنها ضد بدو الكرك عام ١١٧٣ لكي يحمي المواصلات مع بلاد الشام ، فاكتفى نور الدين تلك اللحظة الراهنة بايفاد مدقّق لتنظيم حسابات صلاح الدين الماليّة ونفقاته العسكرية ورفع التقارير بشأنها . ومهما يكن من أمر الخطط الأخرى التي ربما راودته ، فإن موته بتاريخ ١٥ أيار ١١٧٤ قد اختصرها ووضع حدّاً لها .

ودخل الضباط الكبار في جيش نور الدين فوراً في تنافس على وصاية ابنه الصغير الملك الصالح . ولم يكن بوسع صلاح الدين ان يبقى غير مبالٍ بهذا الاندلاع للمزاحمات ، لكنّه في الوقت الحاضر لم يتخذ أيّ اجراء بحيث يتعدّى الاعتراف بالصالح سلطاناً عليه . ففي حزيران ضرب املريك حصاراً حول بانياس ، لكن صلاح الدين كان عاجزاً عن التحرّك إذ تلقّى تحذيراً من القسطنطينيّة بأن يتوقّع هجوماً للاسطول الصقلّي . ولم يقم الهجوم البحري ضد الاسكندريّة إلاّ عند نهاية تموز ، فألحقت به الهزيمة ، وفي تلك الاثناء كانت الأمور في بلاد الشام قد جنحت نحو تحوّل خطير . فأمراء دمشق عقدوا صلحاً منفصلاً مع القدس لقاء دفع الجزية ، واجتاح ابن اخي نور الدين في الموصل كل الولايات الواقعة ما وراء الفرات وضمّها إليه ، وفي شهر آب أقام الخصي كمشتكين نفسه ، بعد ان ضمن شخص الصالح إلى جانبه ، على حلب

وألقى بملازمي نور الدين في سجونه . لقد تعطّلت وحدة الإسلام بوجـه الصليبيين . وفي جوابهم عـلى اعتراضات صلاح الدين وتلميحاته بالتدخل ، ناشده الأمراء أن يكون مخلصاً للبيت الذي ربّاه . فكان جوابه قاطعاً : «إنّا لا نؤثر للإسلام وأهله إلاّ ما جمع شملهم وألّف كلمتهم ، وللبيت الاتابكي أعلاه الله تعالى إلاّ ما حفظ أصله وفرعه ، ودفع ضرّه وجلب نفعه ، فالوفاء إنما يكون بعد الوفاة ، والمحبّة إنما تظهر آثارها عند تكاثر أطماع العداة . وبالجملة إنّا في واد ، والظانّون بنا ظنّ السوء في واد» .

لذا فإنّه وطّد نفسه على إعادة بناء الصرح المتداعي لامبراطورية نور الدين، على وعي تام منه لرسالته كوريث حقيقي لنور الدين ، فاحتلّ دمشق بناء على نداء ملحّ من قائدها دون معارضة تقريباً ، بتاريخ ٢٨ تشرين الاول ١١٧٤ . ومهما يكن من أمر التبرير الكامل لعمل صلاح الدين بالنسبة له وفي ضوء التاريخ ، فإنه لم يكن متوقعاً لمعاصريه ومنافسيه ان ينظروا إليه في الضوء ذاته. فمن الطبيعي تماماً انه لم يكن في أنظارهم سوى واحد منهم فحسب ، ومن المحتمل انه استوحى الدوافع نفسها من المصلحة الشخصية والتعطّش إلى السلطة، مهما يكن قد لجأ إلى تغليف تلك الدوافع بتوسّلات طنّانة لمبادىء الإسـلام ومصالحه . لقد بدا احتلاله لدمشق مجرّد تحرّك بارع فحسب لإحباطهم . وحين قام بتعيين أخيه طاشتكين حاكماً على دمشق ، واستعجل نفسه صوب الشمال في شهر كانون الأول على رأس قوّة صغيرة لاحتلال حمص وحماه ومطالبـة حلب ، بان تفتح له أبوابها معتبرة إياه الوصي الشرعي للصالح ، استنتجوا من ذلك انه لا يلوي على شيء سوى المبالغة في توسيع رقعة بيته على حساب بيت الزنكيين .

هذه هي النظرة إلى صلاح الدين التي يقدّمها مؤرّخ الموصل ، ولقد كانت نظرة الصالح نفسه ، إذ ناشد سكان حلب أن يحموه من مخلّصه الذي نصّب نفسه

بنفسه . فالتجأ الامراء إلى الوسائل المألوفة : استئجار الفدائيين («الحشاشين») من سنان ، «شيخ الجبل» لاغتيال صلاح الدين ، وابرام اتفاق مع ريمونـد الصنجيل صاحب طرابلس ، وكيل مملكة القدس، بأن يقوم هذا ، لقاء خدمات ماضية ولاحقة ، بتنفيذ عمليّة إلهاء في مهاجمة حمص ، ونداء إلى الموصل باسم تضامن الأسرة . لقد فشلت محاولة الاغتيال ، لكن صلاح الدين تراجع للدفاع عن حمص (٣). وعقب شهرين من ذلك ، وإزاء القوى المجتمعة لكل من حلب والموصل ، وافق صلاح الدين على إرجاع شمالي سورية والاكتفاء بالقبض على زمام دمشق كمقدّم للصالح . فحاول الحلفاء الألحاح على مزيد من المكاسب ، وعندما رفض صلاح الدين التنازل اكثر من ذلك ، هاجموه لكي تنزل بهم الهزيمة عند قرون حماه ، بفضل وصول الأفواج المصريّة في الوقت الملائم . وعندما وضع صلاح الدين قواته حول حلب للمرّة الثانية ، لم يكـن أمام كمشتكين من خيار سوى القبول بشروطه ، ممّا ترك حلب بأيدي الصالح على شرط أن يجتمع الجيشان في عمليّات ضدّ الفرنجة .

كان هذا عند نهاية شهر نيسان ١١٧٥ . وبعد أيام قليلة ، في حماه ، جاء الرسل من دار الخلافة حاملين توليته رسمياً على حكم مصر والشام(٤). بالنسبة لمعظم أمراء زمانه كان هذا الأمر مجرّد إجراء شكلي ، لكنّه بنظر صلاح الدين كان اكثر بكثير من ذلك . وإذا كانت الحرب التي نذر لها نفسه ضدّ الصليبيين ستصبح جهاداً حقيقيّاً ، فمن الواجب أن يكون شنّها في مراعاة دقيقة لشريعة الإسلام المنزلة . فالحكومة الساعية لخدمة دعوى الله في معركة يجب الاّ تكون حكومة شرعيّة ومخوّلة السلطات تماماً من جانب الممثّل الأعلى للشرع الالهي

---

٣ – راجع : تاريخ الحملات الصليبية ، المصدر السابق ، ج ١ ، الفصل الرابع ، ص ١٢٣ .

٤ – لا يوجد اي دليل على كون صلاح الدين في أي وقت من الأوقات قد نال بصورة رسمية لقب السلطان من الخليفة .

فحسب ، بل ينبغي لها أن تخدم الله بغيرة مماثلة في إدارتها ومعاملتها لرعاياها .
ولقد سبق له، خلال سنواته الأولى في مصر ، واقتفاء بالقدوة التي أرساها نور الدين ، أن ألغى جميع أشكال الضرائب (المكوس) التي كانت منافية للشرع الإسلامي ، وكان أول عمل له في دمشق هو إلغاء الضرائب هناك . كانت هذه ممارسته الثابتة كلّما ضمّ شيئاً إلى اراضيه ، وقد نصّت عليها بصورة رسميّة البراءات التي أصدرها إلى عملائه وتابعيه . ومن الصحيح انهم لم يراعوا هذا الشرط دائماً ، لكن المخالف كان يجد نفسه على الأرجح مجرّداً من حكمه نتيجة لذلك في غير إبطاء . فالمصادر ترسم صورة حيّة للدهشة التي اعترت قادتـــه ورعاياه مراراً وتكراراً من جرّاء عزوفه التام عن المقتنيات الشخصيّة وممارسة السلطة ، وهي التي كانت بمثابة الأهداف الأولى لمعظم الأمراء والحاكمين ومن جملتهم أبناء بيته ، واعتباره للغنى كشيء يجري استخدامه في تنفيذ الجهاد أو اعطاؤه للآخرين . إن هذه الحقيقة كانت مسجّلة بوضوح حتى لدى الصليبيين. فقد لاحظ غليوم الصوري ، في فترة ترجع إلى زمن مبكر من العام ١١٧٥ وعندما وافق ريموند على الشروط مع حلب لكي ينسب صلاح الدين ، ما يلي :
«كل ازدياد في قوّة صلاح الدين كان سبباً يثير الريبة في انظارنا . . . لأنه كان رجلاً حكيم المشورة ، وباسلاً في الحرب ، وشهماً إلى أبعد حدود الشهامة . وبدا لنا اكثر حكمة ان نمدّ العون للملك الصبي . . . ليس من أجل ذاته ، بل بل لتشجيعه كخصم ضد صلاح الدين» (٥) .

لا يمكن العثور على تبرير أعظم من هذا للسياسة التي تبنّاها صلاح الدين .
وبعد ثمان سنوات استخدم الحجّة نفسها في رسالة صريحة إلى دار الخلافة ، حيث قال :

« والذي أجراه الله على يد المملوك من الممالك التي دوّخهـــا ، وسنن الضلال التي نسخها وعقود الإلحاد التي فسخها ، ومنابر الباطل التي رحضها ، وحجج الزندقة التي دحضها ؛ فللّه عليه المنّة فيه إذ اهلّه لشرف مشهده وما فعله إلاّ لوجهه ، ويد الله كانت عون يده ؛ وإلاّ فقد مضت الليالي

---

٥ – غليوم الصوري : XXI, 6

والأيام على تلك الأمور وما تحرّكت للفلك في قلعها نابضة وغبرت الأحوال على تلك البدعة وما ثارت لأفراسها رابضة » .

ولم تكن الحقائق عـــلى قدر مماثل من الوضوح في الموصل ، حيث استقبلت شروط الاتفاق مع حلب ، ومن المحتمل أيضاً وثيقة التعيين من الخليفة ، بغضب يميل إلى عدم التصديق . وليس الأمر فقط ان أميراً من آل زنكي قد جرى تقايصه بالفعل حتى أصبح تابعاً لأحد مخلوقات أبيه . فالشيء الذي كان أشد مثاراً للكره هو كون ذلك المخلوق كردياً تحدّى احتكار السيادة الذي تمتّع به الاتراك طيلة قرن ونصف القرن ، فأنعم بمغانمه على بني قومه . وإلى أي مدى ، حقاً ، كانت الدوافع الشخصيّة ممتزجة بإخلاص صلاح الدين الحقيقي لدعوة الإسلام ومثله العليا ، فإن هذا السؤال قد تتعذّر إمكانية البتّ فيه أبداً . لكن في ظروف زمانه ، مهما كانت دوافعه إيثاريّة ، فإن السبيل الأوحد لتحقيق غرضه كان بتركيز السلطة في يديه ، وتفويضها إلى أشخاص يستطيع الركون إلى ولائهم بثقة مطلقة . ثم قاده موقف الزنكيين في الاتجاه ذاته ، عندما أظهرت له الأحداث عبثيّة الاعتماد على التحالفات والاتحادات الكونفدرالية .

انتقم صلاح الدين من الحشاشين قبل مغـــادرته شمالي سورية بالاغارة على مناطق الاسماعيليين في جبل السُمَّاق ، ثم انسحب إلى دمشق وعقد هدنة مع القدس . وجرى إيفاد رسول إلى الموصل لكي يضمن قبول سيف الـــدين بالاتفاق، فحصل على تأكيدات مرضية . لكن عندما جاء رسول الموصل بدوره إلى دمشق لاستحلاف صلاح الدين على شروط الاتفاق، فإنه تقدّم خطأ بوثيقة تنصّ على قيام حلف هجومي ضدّه بين الموصل وحلب . لذا فقد كان مستعدّاً عندما حشد الحلفاء قواتهم من جديد في نيسان ١١٧٦ . فسار نحو الشمال والتقاهم في الثاني والعشرين منه عند تلّ السلطان ، على مسافة ١٥ ميلاً من حلب ، وطردهم من ميدان المعركة دون تردّد . وكبح جماح جيشه عن التعقّب ، بأن وزّع عليهم الاسلاب الضخمة ، واطلق سراح الأسرى ، كما أعاد إلى سيف الدين أقفاص الطيور من القماري والبلابل والهزار والببغاء التي وُجدت في ملهى

المعسكر وأرفقها برسالة تهكميّة تدعو سيف الدين إلى اللعب بطيوره والابتعاد عن المغامرات العسكريّة التي «توقعك في مثل هذا المحذور » (« عُد إلى اللعب بهذه الطيور فإنها ألذّ من مقاساة الحرب »). ويقول المؤرّخ الحلبي المعاصر « ووجد السلطان عسكر الموصل كالحانة من كثرة الخمور والبرابط والعيدان والجنوك والمغنّين والمغنّيات ، فأرى ذلك لعساكره واستعاذ من هذه البليّة» .

وقد ظلّت حلب صامدة على الرغم من شهامة صلاح الدين . لكنّه عندما حاصرها من جديد في ٢٥ حزيران وبعد ان اقتحم قلاعها الحصينة إلى الشرق والشمال : بُزاعة ومنبج واعزاز — وافق المدافعون عنها على تجديد للاتفاقية المعقودة قبل سنة . فجرى التوقيع على صلح عام عقب مضي شهر بين صلاح الدين وأخوه توران شاه («السلطان » في دمشق الآن) ، امراء حلب والموصل ، والتابعين الارتقيين في الموصل (امراء حصن كيفا وماردين) ، بحيث أقسَمَ جميع الفرقاء على الوقوف سويّة ضدّ أي واحد منهم ينتهك حرمة الاتفاق . وأرجعَت اعزاز إلى الصالح بناء على مداخلة اخته الصغرى ، فتعهّد بأن يمدّ صلاح الدين بمساعدة عساكر حلب فيما لو طلبها .

جرت محاولة ثانية وأشد تصميماً خلال حصار اعزاز ضد حياة صلاح الدين، وقد قام بها فدائيون من الحشاشين(٦) . ولدى عودته من حلب ، زحف على مصياف ، المقرّ الرئيسي للطائفة في الشام ، وضرب حصاراً حولها بينما كانت قواته تعيث خراباً ونهباً في الجوار . إن ما تبع ذلك تغلّف معظمه الأساطير ، لكن صلاح الدين انسحب إلى دمشق وصرف قواته إلى منازلهم . وكل ما هنالك على وجه التـــأكيد هو انه لم يكن لديه لبقية حياته ما يخشاه من الحشاشين .

رجع صلاح الدين إلى مصر بعد زواجه في دمشق من أرملة نور الدين وكان

---

٦ — راجع تاريخ الحروب الصليبية ، المصدر السابق ، ج ١ ، الفصل الرابع ، ص ١٢٣—١٢٤

يحكم مصر في غيابه أخوه العادل سيف الدين ، فشغل نفسه مدّة سنة بالشؤون الداخليّة . وانصبّ اهتمامه الرئيسي على تشييد القلعة وأسوار القاهرة العظيمة وكان قد بدأها عام ١١٧١ كإجراء إحتياطي ضد هجمات الفرنجة في المستقبل ، بالإضافة إلى إهتمامه بإعادة تنظيم الاسطول . وفي الوقت نفسه اهتمّ جدّياً بأن يرعى في مصر حركة الاصلاح السنّي التي شجّعها نور الدين في بلاد الشام ، فأرسى هو والعادل القدوة بتأسيس المدارس الجديدة التي انتشرت منها تلك الحركة . في تلك الأثناء كان ابن اخيه تقي الدين عمر ، وهو أشد أعضاء الأسرة ولعاً بالحرب وتهوّراً ، وقد راقب بعين الحسد توزيع الممالك والحكومات إلى أقاربه — منهمكاً في محاولة ترمي إلى انتزاع مملكة لنفسه في المغرب . وهي محاولة أدّت في نهاية المطاف إلى صدام مع سلطان الموّحدين في المغرب . إن صلاح الدين ، حسب ما تصل إليه الأدلّة ، لم يشترك في تنظيم هذه الحملات ، لكنّه من المؤكّد تغاضى عنها ، حتّى انه عزا فضلها لنفسه في رسائله إلى بغداد .

في آب ١١٧٧ جاءت الاخبار بوصول فيليب الفلاندري (إقلندس) إلى فلسطين فأعطت الإشارة باستعدادات مجدّدة للحرب . وسواء كان صلاح الدين مطلعاً أم لا على المقترحات المعروضة على إقلندس لكي يغزو مصر ، فلقد نصّت شروط الهدنة مع الفرنج على « أنهم إذا وصل لهم ملك أو كبير ، ما لهم في دفعه تدبير ، أنهم يعاونونه ولا يباينونه ، ويحالفونه ولا يخالفونه ، فإذا عاد عادت الهدنة كما كانت ، وهانت الشدّة ولانت » (٧) . وبينما كان الصليبيون يتحرّكون لحصار حارم ، عقب هجومهم على حماه ، خطّط صلاح الدين لغارة واسعة النطاق على عسقلان وغزّة . إن عماد الدين يرسم صورة حيّة للثقة الطائشة لدى العساكر المصريين ابّان احتشادهم في قاعدة التقدّم وتشتّتهم في غزوات للسلب والنهب على امتداد المناطق الريفيّة . فالهجوم المفاجيء بتوقيته

---

٧ — عماد الدين في البرق الشامي (iii, f. 25v) وقد ذكره ابو شامة I, 275
انظر ايضاً : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ١ ، الفصل التاسع عشر ، ص ٥٩٥ .

الحسن الذي شنّه بغدوين (بلدوين) الرابع على كتيبة الحرس عند «تل جزر» يوم ٢٥ تشرين الثاني زرع البلبلة في صفوف القوّة كلها . فراحت بقاياها تائهة في طريق العودة إلى مصر باذلة أفضل جهودها الممكنة . يضايقها الفرنجة والبدو باستمرار . كما يضايقها النقص في كل من الطعام والماء . أما بالنسبة لصلاح الدين ذاته ، وهو المدين بنجاته إلى إخلاص القاضي وبصيرته ، فقد كانت عبرة لم ينسها ابداً .

إلاّ أن هزيمته لم تكن حاسمة ، ذلك انه عقب أربعة شهور فقط استطاع إعادة الكرّة بجيش مجهّز من جديد ، والإبقاء على عدد كاف من القوات في المؤخرة لضمان أمن مصر . كان الهدف المحدّد للحملة هذه المرّة مهاجمة الذين يحاصرون حارم ، ومع أن صلاح الدين صُدّ في هذا برفع الحصار لقاء دفع الأمان من جانب حكومة حلب ، فقد اندفع نحو حمص ، وعسكر هناك استعداداً للدخول ميدان المعركة في أول فرصة . وأدى انسحاب الكونت (إقلندس) أوف فلاندرز بصورة آلية إلى سريان مفعول الهدنة ثانية . بالإضافة إلى ذلك ، فإن السنة الجدباء جلبت قلّة شديدة على بلاد الشام . غير ان صلاح الدين كان تواقاً لاستئناف الجهاد ، وعلماً بأن القاضي الفاضل بذل بلاغته كلّها لإقناعه بالتريّث حتى تكون الأحوال اكثر ملاءمة . فقد مضى يؤكد لوزراء الخليفة انه لو سار كل شيء على ما يرام واحتشدت القوات في حينه ، فسوف يقوم بمهاجمة القدس في السنة التالية .

خرق الفرنجة الهدنة في شهر آب بهجومهم على حماه . فاندحر الهجوم دون صعوبة تذكر وجيء بالأسرى إلى صلاح الدين ، فأمر بإعدامهم للنكث بالعهد . وحصل انتهاك أشد خطورة في الوقت نفسه عندما بدأ بغدوين في بناء قلعة محصّنة عند «مخاضة الأحزان» ،في تشرين الأول وبايعاز من فرسان الداوية (الهيكليين) . فلم يكن صلاح الدين قادراً على التدخل فوراً بسبب وضع حسّاس طرأ في دمشق . لقد أهمل أخوه توران شاه واجباته كحاكم إهمالاً

كلياً ، بالإضافة إلى كونه على علاقات طيّبة تثير الشبهة مع الصالح في حلب . فقام صلاح الدين تبعاً لذلك بتعيين ابن أخيه فروخ شاه قائداً عسكرياً في دمشق. وطالب توران شاه بأن يُعطى إقطاعة بعلبك التي كانت بيد ابن المقدّم ،ا الحاكم الأسبق لدمشق . فوافق صلاح الدين ، بكثير من التردد ، على توليته في بعلبك ، وعندما تنازل ابن المقدّم في النهاية أعطي إقطاعات واسعة في الشمال . بيد ان العلاقة الوديّة بينه وبين صلاح الدين بقيت متواصلة ، ولدى وفاة فروخ شاه عام ١١٨٣ اعيد تعيينه على ولاية دمشق . لقد أضعفت هذه الحادثة مركز صلاح الدين الديبلوماسي بصورة مؤقتة إزاء منافسيه . لكن الفضل في المدى الطويل كان عائداً بدرجة كبيرة إلى موقفه الحازم ، والتوفيقي معاً ، من من ابن المقدّم في هذا النزاع ، حتى انه لم يلجأ البتّة بعد ذلك إلى إتخاذ اجراءات عسكريّة ضد مقدّم متمرّد على الأوامر .

ولما أزيلت هذه المشكلة من طريقه، كان صلاح الدين حرّاً لاستئناف الهجوم في ربيع ١١٧٩ . فبدأ بإعادة تنظيم القيادات في الشمال ، وعيّن تقي الدين على حماه ونصير الدين ابن شيركوه على حمص ، لكبح جماح ريمون الصنجيل صاحب طرابلس . وخلق مجيء شتاء ثان دون هطول أمطار في بلاد الشام جدباً وظروف مجاعة . فكانت قواته تعاني بشدّة واحتجّ الجند لديه ، لكنّه أجابهم بقوله فقط : «الله سوف يتدبّر الأمر» ، وأرسل الأشد عجزاً بينهم إلى مصر بصحبة توران شاه ، طالباً إلى العادل ان يبعث له بدلاً عنهم ١٥٠٠ من الرجال المنتقين ، إلى جانب المؤن . وفي اوائل نيسان ، لدى تلقيه تقارير عن غارة يخطّط لها بغلدوين ، أوفد فروخ شاه مع عسكر دمشق البالغ عدده حوالي ١٠٠٠ رجل من عساكر المماليك ، وأصدر لهم الاوامر بتعقّب الفرنجة خلسة وإرسال المعلومات إليه عن تحرّكاتهم . لكن فروخ شاه وجد نفسه يخوض معركة بالصدفة تقريباً بالقرب من شقيف أرنون ، فأحرز نجاحاً باهراً ، وازداد ترحيب المسلمين به لأن الكونستابل همفري (هنفري) الطوروني كان بين القتلى .

انتقل صلاح الدين عقب ذلك بزمن قصير إلى بانياس . وفي اعتماده على تلقي الإنذار من جواسيسه عن أي حشد لقوات الفرنجة ، أقام حراسة عند تـل القاضي وصرف قواته لنَهب العلف والمؤن . وأرسلت عصابات من رجال القبائل العربيّة الجائعين الذين تعقّبوا آثاره إلى ولايتي صيدا وبيروت لحصاد الحبوب التي يمكنهم العثور عليها . وفي سهل مرج عيون فوجىء صلاح الدين بظهور قوة كبيرة تحت أمرة بغدوين ، لكنّه أركب جميع القوات المتوافرة لديه على جناح السرعة وحوّل النكسة الأولية إلى إنتصار بارز . كان تاريخ ذلك اليوم هو ١٠ حزيران ١١٧٩ ، ويحدّثنا عماد الدين ، الذي قام بتدوين سجّل الأسرى ، انه كان بينهم أكثر من مائتين وسبعين فارساً ، باستثنـاء ذوي الرتب الدنيا .

أصبح صلاح الدين الآن مجهزاً بما فيه الكفاية للقيام بعمليّة كبرى ، فقام بتجنيد قوات إضافيّة كبيرة من التركمان وجنود الحصار لتعزيز العساكـر الشاميّة والفرقة المصريّة الوافدة حديثاً ، وفي ٢٥ آب ضرب حصاراً حول القلعة التي شيّدت حديثاً في «مخاضة الأحزان» . جرى تنفيذ الحصار بعزم وتصميم متواصلين ، واقتحمت القلعة في اليوم السادس ، فوقع المدافعون عنها في الأسر وكان عددهم سبعمائة مقاتل ، وأطلق سراح الأسرى المسلمين . وبالرغم من الحرّ ورائحة الجيف فإن صلاح الدين أبى مغادرة المكان قبل تهديم آخر حجر في القلعة ، ثم قام بسلسلة من الغارات على اراضي مملكة القدس قبل عودته إلى دمشق .

أبدى الزنكيون أصحاب حلب والموصل في جميع هذه العمليّات استعداداً لمساعدته في استرجاع فلسطين . فالنجاح المتواضع الذي استطاع إحرازه أظهر له بوضوح ان الصراع مع الصليبيين لا يمكن دفعه إلى النهاية بقوات دمشق وحدها وتلك القوات التي يمكن الاستغناء عنها في الدفاع عن مصر . ولم يكن الأمر مجرّد ان الستة آلاف جندي الذين يستطيع الآن حشدهم في الميدان مرّة واحدة هم

غير كافين لحملة حاسمة . فطالما ان النوريّة في حلب كانوا تحت أمرة الآخرين، فإنهم يشكلّون قوّة عدائيّة بالكمون ضد جناحه . وحتّى لو تمّ استجلابهم بأمان إلى جانبه ، فإن تلك العمليّة بالذات لن يكون من شأنها سوى تعميق عداء الزنكيين في الموصل ، الذين ما زالوا قادرين بعساكرهم البالغ عددها ٦٠٠٠ مقاتل على إبطال تأثيره بشكل فعّال . فكانت النتيجة التي لا مناص منها : وهي ، بما انه لا يستطيع حشد قوات الشام ومصر ضد الصليبيين طالما هو عرضة لخطر الهجوم على جناحيه أو مؤخرته من الموصل ، فإن قوات الموصل أيضاً يجب إخضاعها لسيطرته وتحويلها إلى عساكر إضافيين في الجهاد .

لا بدّ انه قد اتضح له بأن تحقيق هذا الأمر لا يتمّ بدون نزاع مسلح . لكنّه تردّد في حمل السلاح ضد اولئك الذين سوف يصبحون من حلفائه في المستقبل . فالإقناع والديبلوماسيّة يعودان بنتائج أفضل من الغزو ، وهو يعرف أن نفسه مالكة لحسنة قويّة . لقد وطّد دعواه في انظار الإسلام كله لخلافة نور الدين الروحية ، وتلك القوى المعنوية التي نفخ نور الدين الحياة فيها كانت تصطف إلى جانبه . ومهما تكن مصالح الزنكيين مدعومة بالولاءات الضيّقة للوطنيّة المحليّة والتقليد العسكري، فهو يتمتّع بعواطف قطاع متزايد القوة ، ليس في حلب فحسب ، بل وفي الموصل أيضاً . إن المنافسات بين الزنكيين واتصالاتهم السريّة أو المكشوفة مع الفرنجة قوّضت دعائم دعواهم ، ويبدو انه حتّى عقيدة الحقوق الشرعيّة ، التي تابعها صلاح الدين بجدّ ونشاط ، ساعدت في ترجيح الكفّة . كان عليه فقط أن يكرّر الأساليب التي استخدمها نور الدين ذاته ضد دمشق : إضعاف الحزب المعارض بتشجيع المرتّدين ، وبتنظيم تظاهرات عسكريّة في اللحظات المناسبة ، وفي الوقت نفسه مراعاة التزاماته في المعاهدة بحذافيرها ، وكذلك الحقوق السيّدة للخليفة .

وكان تاريخ صلاح الدين خلال السنوات الست التالية ، من ١١٧٩ إلى ١١٨٥ ، بمثابة سجّل لتقدّماته الناجحة صوب هذا الهدف . ومن الصعب

تقديم القصّة المعقدّة للحملات والمفاوضات مع الامراء الثانويين في بلاد ما بين النهرين والزنكيين في الموصل ومبعوثي دار الخلافة دون الدخول في جملة من التفصيلات ، مع انه ليس من الصعب حلّ خيوطها . ويلتحم مع هذا الخيط الرئيسي في الرواية خيطان غيره ؛ هما : القتال المتواصل مع القدس . ومشكلات الإدارة الداخليّة والعلاقات مع اقاربه وتابعيه . لذا . سوف نتناول هذه النواحي على حدة ؛ ابتغاء للوضوح .

أخذ سلطان الروم السلجوقي خلال حملات سنة ١١٧٩ . كلج إرسلان الثاني . والذي كان في السنة السابقة قد أرسل مبعوثاً ليؤكّد على صداقته لصلاح الدين يطالب فجأة بانفصال رعبان التي أخذها صلاح الدين عام ١١٧٦ من الصالح . فجرى إيفاد تقي الدين ، وهي تحت امرته . للدفاع عنها ، وهزم الجيش السلجوقي بطريق الحياة وعلى رأس قوّته الصغيرة المؤلّفة من ١٠٠٠ خيّال . وفي مطلع عام ١١٨٠ نشب خلاف حول قضيّة محليّة بين السلطان السلجوقي والأمير الأرتقي لحصن كيفا ، نور الدين . مع أن الأخير كان تابعاً للموصل فقد استنجد بصلاح الدين ، ومن المحتمل ان استنجاده حدث بفضل معاهدة حلب عام ١١٧٦ . لقد كان هذا بالضبط هو ذلك النوع من المناسبات التي انتظرها صلاح الدين . ولكي يوطّد سيطرته على الموصل كانت الخطوة الأولى تقضي بفصل التابعين الكبار في ما بين النهرين وديار بكر ، وهم الذين زوّدوا جيش الموصل بأكثر من نصف قوّاته الفعّالة . فالأقوى بين هؤلاء كان الامراء الأرتقيون لحصن كيفا وماردين ، الذين لم يتصالحوا ابداً مع السيطرة الزنكيّة . ولقد سبق لهم عام ١١٧٨ ان تقرّبوا من صلاح الدين بغية الحصول على تأييده ضد المخطّطات العدوانيّة للسلطان السلجوقي ، ومهما كان من أمر الريبة بحال الحرب الحاضرة ، فإن صلاح الدين كان مجبراً على اغتنام الفرصة لكي يكتسب اهتمامهم ويظهر سيادة فعليّة على ديار بكر . فالهدنة التي جرى توقيعها مع بغدوين في الربيع تركت لـه الحريّة في قيادة جيشه إلى حدود

الممتلكات السلجوقيّة ، لغرض العمليّات العسكريّة أقلّ منه لإرغام كلج إرسلان على وقف هذه الاستفزازات وقبول وساطته . حتّى أن الخطّة احرزت نجاحاً اكبر مما كان بإمكانه ان يتوقّعه لها . فاجتمع السلطانان عند نهر سنجا في حزيران ، وأبرما هناك ، على ما يبدو ، التحالف الذي كان سيغني الكثير لصلاح الدين في سنوات لاحقة . وكانت الثمار الأولى لهذا التحالف حملة قصيرة وناجحة ضد روبين صاحب ارمينيه الصغرى ، تحت ستار المعاملة القاسية التي عوملت بها القبائل التركمانيّة في اراضيه .

ويحدّثنا بهاء الدين أنه في أعقاب هذه الحملة عُقد صلح عام ، بمبادرة من كلج أرسلان ، بين صلاح الدين والسلطان السلجوقي والموصل وامراء ديار بكر في اجتماع عند نهر سنجا بالقرب من سميساط ، في ٢ تشرين الأول ١١٨٠ . فلا يوجد تثبيت لهذا القول في أي مصدر آخر من المصادر المعاصرة ، والحق يقال ان الأدلّة كلها تقف ضده . ذلك ان سيف الدين صاحب الموصل كان قد توفي يوم ١٩ حزيران ، فخلفه أخوه عزّ الدين بعد اطّراحه جانباً لولاية ابن سيف الدين ، سنجر شاه . ولدى تولّيه أرفد عزّ الدين رسولاً إلى صلاح الدين ليطلب موافقته على استمرار سيادة الموصل على مدن ما بين النهرين التي استولى عليها سيف الدين عقب وفاة نور الدين عام ١١٧٤ . فرفض صلاح الدين الأمر بصراحة . وقال إن هذه الولايات كانت مشمولة في التخويل العام الذي منحه إيّاه الخليفة ، فهو لم يتركها في حوزة سيف الدين إلاّ مقابل وعده في إمداد صلاح الدين في العساكر . وبعث في الوقت نفسه بكتاب إلى بغداد ذكر فيه انه لا يستطيع الاعتماد على القوات المصريّة إلى أجل غير محدود في حملاته الشاميّة بل يحتاج إلى عساكر تلك الولايات ، وطالب بتثبيت التخويل الممنوح فجاءه التثبيت على التوالي .

اكتمل الصدع مع الموصل بوفاة الصالح في حلب يوم ٤ كانون الأول ، ١١٨١ . وكان صلاح الدين في مصر حينذاك ، فأرسل لدى سماعه بمرض

الصالح أوامر عاجلة إلى فرّوخ شاه بدمشق وتقي الدين في حماه لاحتلال غربي الجزيرة والحيلولة دون عبور جيش الموصل نهر الفرات . لكن فروخ شاه كان منهمكاً في الوقوف بوجه مخطّطات (أرناط) رجينالد لاجتياح شبه الجزيرة العربيّة انطلاقاً من الكرك (حصن الموآبيين) ، وتقي الدين كان عاجزاً عن منع عزّ الدين من دخول حلب . فهو قد عيّن أخاه عماد الدين حاكماً لمدينة حلب، لقاء التخلّي عن سنجار ، وقفل راجعاً إلى الموصل بعد ان افرغ محتويات خزائنها ومستودع أسلحتها . إن قلق صلاح الدين الشديد بشأن الوضع يتبدّى من خلال الرسائل المتتابعة التي بعثها ، إلى ديوان الخليفة وانتقد فيها تصرّف امير الموصل بالاستيلاء على ولاية عُيّنت له بينما قواته في صميم العمل لحماية مدينة النبي من «الكفّار» ، وشكا من ان الخلافات بين الامراء المسلمين كانت تعيق سبيل الجهاد ، ثم أعاد التوكيد على مطالبته بحلب استناداً إلى براءة تعيينه. وأعلن انه «إذا كانت الأوامر السنيّة تأمر بتولية امير الموصل على حكم حلب. فمن الافضل توليته على الشام ومصر كلّها أيضاً» . واللهجة الملحّة لهذه الرسائل تبرّرها جزئياً دون ريب الحاجة إلى مواجهة الضغط المماثل من جانب انصار الموصل في بغداد ، ومع انه قد يكون من الصعب فكّ نقاط الدعاية عن الحماس الديني فلا مجال للشك هناك بان صلاح الدين كان جادّاً حقيقةً بشأن المأزق الذي سينشأ عن توحّد حلب مع الموصل من جديد .

غادر صلاح الدين القاهرة في أيار ١١٨٢ بصحبة نصف الجيش الذي أعيد تنظيمه حديثاً في مصر ، أي قرابة ٥٠٠٠ جندي في المجموع ، والتحق بمقدّميه في الشام . فزحف على حلب عقب هجوم مفاجيء فاشل ضد بيروت بحراً وبرّاً ، متحصّناً في هدفه ببراءة الخليفة . إلا أنه قبل أن يحاصرها كان مظفر الدين كوكبوري صاحب حرّان قد حمل إليه دعوة عاجلة لعبور الفرات وتأكيدات بأنه سوف يلقى الترحاب من جميع الجوانب.وبناء عليه،بما انه كان بالفعل ، وبفضل براءة الخليفة ، حاكماً شرعياً على ولايتي الفرات والخابور،

فقد عبر صلاح الدين نهر الفرات عند أواخر شهر أيلول ، واحتلّ الممتلكات السابقة لنور الدين في الجزيرة دون ان يلقى سوى مقاومة متقطّعة . فحاول عزّ الدين النزول ضدّه إلى ميدان المعركة ، لكن محاولته أحبطتها معارضة ضباطه والتعلّق الصريح بصلاح الدين من جانب تابعه الأمير الارتقي لحصن كيفا ، نور الدين ابن قره ارسلان . كانت النتيجة الوحيدة لهذا العمل تزويد صلاح الدين بذريعة صحيحة للتقدّم على الموصل ذاتها ، وهو عمل برّره في رسالة مطولة إلى بغداد ، واتّهم فيها حكام الموصل بدفع المال إلى الفرنجة لمهاجمته ، واضطهاد رعاياهم ، وأخيراً بالتوسّل إلى عدو الخلافة اللدود ، الاتابك السلجوقي في بلاد فارس . إن التهمة الأخيرة تثبتها مصادر الموصل . وكان عز الدين في يأسه يفتّش عن الحلفاء في كل اتجاه ، فأوفد بهاء الدين نفسه لكي يطلب تأييد الخليفة ضد صلاح الدين . واستجابة لهذا النداء بعث الخليفة برسول ، هو شيخ الشيوخ ، للتوسّط بين الفرقاء ، واستغرقت المفاوضات المتطاولة مدّة شهر بينما استمرّ الحصار .

ومما يجب التشديد عليه ان نقطة الخلاف في هذه المفاوضات لم تدر في أي وقت حول مطالبة صلاح الدين بامتلاك الموصل فعليّاً ، بل تناولت الشروط التي يقف بموجبها أمير الموصل إلى جانب صلاح الدين ويرسل عساكره للمعاونة في الحرب ضد الفرنجة . فالهدف الرئيسي للأمير الزنكي عند هذه المناسبة الأولى كان الاحتفاظ بسيادته على حلب ، ومع ان صلاح الدين كان توّاقاً للوصول إلى إتفاق ورضخ لكل مطالبه باستثناء هذا الامر ، فقد رفض إبرام الشروط والتصديق عليها . ثم وافق صلاح الدين ، بناء على مداخلة عاجلة من شيخ الشيوخ ، على الانسحاب من الموصل ، لكنّه رفض متابعة التفاوض . إن حقيقة كون المفاوضات قد دارت ، أحدثت توتراً شديداً في ثقة تابعيه الجدد في الجزيرة ، ولكي يعيد طمأنتهم أعلن أمام الديوان عزمه الأكيد على الاّ يغادر الولاية قبل إتمامه للاستيلاء عليها .

بدأ صلاح الدين في محاصرة أخي عزّ الدين في سنجار ، بمساعدة من نور الدين الارتقي . فاستسلمت بشروط بعد حصار دام ١٥ يوماً (٣٠ كانون الأول) ، وأجليت الحامية إلى الموصل . وذهب صلاح الدين إلى معسكر الشتاء في حرّان ، بعد ان تمّ تسليم دارا أيضاً على يد اميرها الارتقي بهرام . فممّا يدلّ على انه لم يكن ينوي تخفيف الضغط على عزّ الدين هو ذلك السيل من المراسلات الموجّهة إلى كبار الوزراء في بغداد والتي كرّر فيها المطالبة بالاعتراف به سيداً على الموصل . ومع أن هذا الاعتراف لم يأتِ ، فقد أجيب إلى طلبه بتسلّم منشور الخليفة من أجل الولاية على آمد (ديار بكر حديثاً) . وفي نيسان قام عزّ الدين بمحاولة لحشد حلفائه المتبقين ، لكن صلاح الدين استدعى تقي الدين من حماه ، ولدى اقترابه انحلّ الائتلاف . ثم عمد صلاح الدين ، قبل أن ينتظر بقيّة عساكره ، فوراً إلى ضرب حصار حول قلعة آمد غير المنيعة إطلاقاً في ديار بكر ، تبعاً لوعد قطعه لنور الدين . فجاء استسلامها في غضون اسابيع ثلاثة ليقرّر شهرته نهائياً ، وأتت أريحيّته الكيشوتيّة ، تجاه الحاكم المهزوم وفي تسليمه للقلعة مع مخازنها العسكريّة الضخمة دون المساس بها إلى نور الدين ، لتثبت مرّة وإلى الأبد بطلان جميع التهم التي ألصقها به أعداؤه عن الاطماع الأنانيّة .

أشار صلاح الدين إلى العبرة في رسائله إلى دار الخلافة عقب الاستيلاء على آمدا . إن سلطة الخليفة على أخذ آمدا وحكمها أدّت إلى فتح أبوابها أمامه ، فلماذا تُمنع عنه حتى الآن براءة الموصل ؟ هذه وحدها تقف في سبيل وحدة الإسلام واستعادة القدس . وليقارن أمير المؤمنين بين سلوك عملائه ، ثم يحكم من منهم الذي خدم راية الاسلام في غاية الإخلاص . وإذا ما ألحّ صلاح الدين على إدراج ما بين النهرين والموصل ضمن ممتلكاته ، فالسبب يرجع إلى أن هذه « هذه الجزيرة الصغرى (أي ما بين النهرين) هي الرافعة التي سوف تحرّك الجزيرة الكبرى (أي الشرق العربي كلّه) . إنها نقطة الفصل ومركز المقاومة ،

ومتى قُدّر لها أن تتخذ مكانها مرّة في سلسلة التحالفات ، فإن قوّة الإسلام المسلّحة بكاملها سوف تغدو منسّقة الجهود للاشتباك مع قوى الكفر» .

وكان استسلام آمدا قد جلب الارتقيين المتبقين في ميافارقين وماردين إلى جانب صلاح الدين ، فالتفت الآن إلى تصفية حسابه مع حلب ، وتلقى في الطريق إليها تسليم آخر قلاعها الخارجيّة ، في تل خالد وعينتاب . ومع مجيء يوم ٢١ أيار ، ١١٨٣ ، كان قد عسكر على أبواب حلب ، مع توقّع معقول لاستسلامها المبكر . إن كاتب صلاح الدين الذي يرسم صورة حيّة لتعقيد النزاع ، فلا عماد الدين زنكي ولا صلاح الدين كان تواقاً إلى القتال ، الأول منهما لأنه علّق آماله على العودة إلى سنجار ، والثاني لأن النوريّة ، حرس نور الدين القديم كانوا جنود الجهاد الذين أسدوا في الماضي خدمة جلى للاسلام والذين استحوذت نبالتهم وشجاعتهم على إعجابه . فهم من جانبهم « حرّكوا لهب الحرب» ، بينما انغمس جنود صلاح الدين الأصغر سنّاً والأشدّ حماساً في أتون النزاع بشغف . وبعد أيام قليلة انسحب إلى تلّة جوشن المطلّة على المدينة ، فجعل بنّائيه يشيدون قلعة هناك ، وأخذ في توزيع أراضي حلب كاقطاعات على ضبّاطه . ورأى عماد الدين زنكي ان اللحظة الحاسمة قد أتت ، فأجرى ترتيباً سريّاً لمبادلة حلب لقاء سنجار وشرقي الجزيرة ، شرط التعاون في الحرب مع الفرنجة . وارتفعت راية صلاح الدين الصفراء فوق القلعة في ١١ حزيران ، ثم قام النوريّة بدورهم على تقديم الخضوع والطاعة باستعداد يبدو مثيراً للدهشة من زاوية الأحداث الخارجيّة ، فاستقبلهم صلاح الدين كرفاق قدامى في السلاح وغمرهم بأريحيّته . لم يصمد سوى حاكم حارم وحده ، فحاول الحصول على دعم من انطاكية ، لكن رجاله بادروا إلى اعتقاله وسلّموا القلعة إلى صلاح الدين شخصيّاً في ٢٢ حزيران .

ولدى ترتيب هدنة مع بوهمند صاحب انطاكية شرط إطلاق سراح الأسرى المسلمين أصبح صلاح الدين الآن في مركز يتيح له الانتقام من فرنجة القدس على حملاتهم الهجوميّة خلال غيابه في بلاد ما بين النهرين ، ولا سيّما الانتقام

من (أرناط) رجنالد صاحب الكرك على غاراته التي شنّها في شبه الجزيرة العربيّة وعلى البحر الأحمر . فقام بابلاغ الديوان في بغداد قراره بتنفيذ الجهاد ، وقد أزيلت من طريقه العقبات الرئيسيّة الآن ، وسار على رأس القوات النظاميّة لحلب والجزيرة بالإضافة إلى فرسان التركمان وقوة كبيرة من المتطوعين والجنود الإضافيين . وبعد توقف قصير في دمشق عبر الاردن إلى بيسان في ٢٩ ايلول ، لكنّه فشل في جرّ القوات الرئيسيّة لمملكة القدس إلى ميدان المعركة (٨). ثم عاد إلى دمشق واستدعى العادل للالتحاق به أمام الكرك مع شحنة من الجنود المصريين ، وضرب حصاراً حول حصن الكرك في شهر تشرين الثاني . كان المسلمون واثقين من النجاح لدرجة ان إخفاق منجنيقاتهم في إحداث ثغرة أدّى في المقابل إلى تثبيط في عزائمهم ، وعندما تلقّوا الاخبار بوصول النجدة إلى « والا » ، وجدوا الاعذار لتأجيل الهجوم ، وانسحب صلاح الدين للراحة ولتجهيز عساكره من جديد .

جرت خلال هذا الفاصل الزمني محاولة أخرى لتسوية مشكلة الموصل بالتفاوض . وجاءت المبادرة من عزّ الدين ، الذي قام ابن أخيه سنجر شاه في جزيرة ابن عمر مع أخي كوكبوري في اربيل وصاحبي تكريت وحديثه بوضع انفسهم تحت حماية صلاح الدين وحصلوا منه على تعهّد بالدعم . فتوسّل عز الدين إلى الخليفة لكي يرسل « شيخ الشيوخ » مرّة أخرى للتوسّط مع صلاح الدين ، « لعلمهم » ، كما دوّن كاتب صلاح الدين ، « انّا لا نرى إلاّ الاعتماد بالطاعة للأمر المطاع » . وتمّ التوصل إلى اتفاق مع شيخ الشيوخ على اساس احترام حقوق عز الدين في الموصل وعلى ان يُترك لتابعيه السابقين حريّة الخيار بين صلاح الدين وبينه ، ولكن رسول الموصل قابله بالرفض ، وهكذا بقيت الأمور على حالها ، لا بل صارت إلى أسوأ مما كانت عليه .

---

٨ – راجع تاريخ الحروب الصليبية ، المصدر السابق ، ج ١ ، الفصل التاسع عشر ، ص ٥٩٩ – ٦٠٠ .

حشد صلاح الدين لهجومه الجديد على الكرك (آب — ايلول ، ١١٨٤) جيشاً من أشد الجيوش قوّة والتي عملت في بلاد الشام حتى الآن ، فتألّف هذا الجيش من عساكر دمشق وحلب والجزيرة وسنجار وحصن كيفا وماردين ، بالإضافة إلى فرقة من مصر . وفشل الهجوم مرّة أخرى ، فجرى تسريح عساكر الجيش بعد حملة من الغارات في أنحاء السامرة . ثم عاد صلاح الدين إلى دمشق لكي يجد شيخ الشيوخ في انتظاره حاملاً معه براءات الخليفة لولاياته الجديدة . وتلت ذلك أنباء أشد خطورة . فقد أعلن عز الدين صاحب الموصل قبوله للعروض المقدّمة من اتابك بلاد فارس . وتلقى تعزيزات قوامها ٣٠٠٠ خيّال من اتابك اذربيجان مظفر الدين قزل ارسلان لشن هجوم على اربيل . ومع ان الهجوم كان فاشلا . فإن الحاكم ناشد صلاح الدين الوفاء بوعده ، فأتاح الفرصة بذلك أمام هجوم صلاح الدين من جديد على الموصل .

لكنّه قبل أن يشرع في عمله خلال السنة التالية ، كان الحظّ السعيد قد حالفه بدعوة من ريموند الصنجيل صاحب طرابلس للاتفاق على هدنة مدّتها أربع سنوات . فما أن تأمّنت الحماية لمؤخرته بهذا الشكل ، حتى حشد قوّاته عند حلب في شهر أيار سنة ١١٨٥ وسار على الموصل ، مع انه تلقى تحذيراً من السلطان كلج أرسلان بأنه سوف يُجابه بائتلاف من « الامراء الشرقيين » ... غير أن الموصل تُركت بالفعل لمواجهة مصيرها ، وحتى أن الخليفة رفض التدخل اكثر من ذلك ، والسبب المحتمل لهذا الرفض — علماً بأن صلاح الدين لم يترك فرصة تمرّ دون تذكيره — هو ان عزّ الدين قد أجبر على الاعتراف بسيادة السلجوقي طغرل عليه . وخلال حرّ الصيف قام صلاح الدين بتخفيف وطأة الحصار ، ثم ترك قسماً من قواته أمام الموصل لكي يقود البقيّة شمالاً لمعالجة وضع مضطرب نشأ في أعقاب وفاة نور الدين وأميرَي أخلاط (أوخلاط) وماردين . ولدى عودته إلى الموصل في تشرين الثاني أخذ يعدّ العدّة لمواصلة الحصار طيلة الشتاء . فقام عز الدين بمحاولة أخيرة لدرء النهاية المحتومة مناشداً

فروسيّة صلاح الدين بإرسال وفد يضمّ الأميرات الزنكيّات للتوسط لديه ؛ لكن القضيّة موضوع المجازفة كانت شديدة الخطورة ، ولم يستطع صلاح الدين ان يعد بأكثر من القبول بوساطة عماد الدين زنكي صاحب سنجار .
وليس من الواضح تماماً ماذا تلى ذلك . فقد مرض صلاح الدين فجأة ، و «في ندمه على صدّه للمبعوثين ، طلب إلى عماد الدين إيفاد بعثة إلى الموصل» .ودون انتظار لاختتام المفاوضات غادر الموصل في ٢٥ كانون الأول إلى حرّان وسحب قواته إلى نصيبين . ثم قام عزّ الدين في شهر شباط من العام التالي بايفاد القاضي بهاء الدين كرسول إلى حرّان وزوّده بتعليمات للحصول على اتفاق محلّف اليمين وفقاً لأفضل الشروط التي يستطيعها . وردّ إليه صلاح الدين المنطقة الصغيرة بين نصيبين ودجلة — « بين النهرين » — وحين اقسم اليمين على هذه الشروط جرى الاعتراف به سيّداً على الموصل . فتعهّد عزّ الدين مقابل ذلك بإرسال قواته للمساعدة في إسترداد فلسطين . لذا فقد تشكّل الائتلاف العظيم أخيراً .

طيلة هذه السنوات كلّها ، والتي كان صلاح الدين خلالها يكرّس اهتمامه الرئيسي لتنظيم القوات من أجل الصراع القادم ، كان من الواضح بأن تجنّب القيام بأية عمليّات كبرى ضد الفرنجة هو أمر لصالحه . وفي العام ١١٧٠ وافق عن طيب خاطر على عقد هدنة مع بغدوين في البرّ والبحر على السواء (٩). لكنّه يبدو ان ريموند الصنجيل صاحب طرابلس رفض أن يصبح طرفاً موافقاً فلم يتمّ إرجاعه إلى رشده إلاّ بواسطة سلسلة من الغارات التدميريّة بالإضافة إلى استيلاء الاسطول المصري على جزيرة ارواد . كانت حريّة التجارة شرطاً من الشروط البالغة الأهميّة بالنسبة لصلاح الدين ، لأن الطريق بين مصر ودمشق كانت محفوفة بالأخطار ، وتوجب على القوافل وفي اوقات الحرب ان تسير بصحبة قطارات من الجند . وكان انتهاك هذا الشرط من جانب (أرناط) رجنالد

---

٩ — راجع المصدر السابق ، ص ٥٩٥ .

صاحب الكرك هو الذي أعطى الإشارة بفتح الاشتباكات من جديد . ففي صيف ١١٨١ كان رجنالد قد شنّ غارة على تيماء في شمالي الحجاز ،واستدعاه من غارته هجوم مضاد قوي شنّه فروخ شاه من دمشق ضد شرقي الاردن . وكان هذا الموقف سيئاً بما فيه الكفاية ، لكن صلاح الدين لم يقم بأي تحرّك إلى أن استولى رجنالد على قافلة في طريقها من دمشق إلى مكّة . وبعد فشل جميع الجهود الرامية إلى تصويب الخطأ ، نزل إلى ميدان المعركة في ربيع ١١٨٢ . ومع ان قواته لم تكن قد وصلت بعد إلى تلك الدرجة من القوّة التي تكفي لتسديد ضربة حاسمة ، فانه تأمل دون ريب في إلحاق المزيد من الخسائر بالفرنجة . لكن أساليب بغدوين الدفاعيّة حالت دون حصول اشتباك رئيسي ، تاركة الريف عرضة لغارات فرسان فروخ شاه ، بحيث ان القوات المسلمة انكفأت إلى دمشق قانعةً بالأسلاب والمغانم خير قناعة .

كانت عمليّة صلاح الدين التالية من النوع الاشد جرأة . لقد بدأ منذ زمن مبكر يعود إلى العام ١١٧٧ بإعادة تنظيم الاسطول المصري ، جاعلاً إياه دائرة منفصلة ومستقلة تحت أمرة رئيسه ، ومنحه السلطة لأخذ كل ما يحتاجه من المواد وتجنيد كل الرجال الذين يحتاجهم . وفي منتصف السنة ذاتها كانت اساطيل الاسكندرية ودمياط تقوم بشن الغارات ، كما قامت عام ١١٧٩ بتنفيذ هجوم جريء على عكا والساحل الشامي . وسبقت الإشارة إلى الاستيلاء على جزيرة ارواد عام ١١٨٠ . ثم تعزّزت اكثر قوّة الاسطول في عمليّة إعادة التنظيم العامّة التي أجراها صلاح الدين على القوات المصريّة عام ١١٨١ .فراح يخطّط الآن لعمليّة بريّة وبحريّة مشتركة ضد بيروت ، على أمل أخذها بالمفاجأة . وتمّ تنفيذ الخطّة ببراعة فائقة (آب ١١٨٢) ، لكن حامية بيروت صدّت هجماته حتى أصبح بغدوين على استعداد لنجدتها ، فعمد صلاح الدين الذي خرج بمعدّات هجوميّة خفيفة فقط ، إلى حشد قواته من جديد في بعلبك ثم سار نحو الشمال .

لقد بقي فروخ شاه في دمشق خلال الحملات في بلاد ما بين النهرين والصراع على حلب ، وأعطي تعليمات تقضي بمجابهة غارات الفرنجة في الأراضي الإسلاميّة على أفضل ما يمكنه ذلك بالقوات الموجودة تحت تصرّفه . ويُنقل عن صلاح الدين القول التالي في معرض سماعه بأخبار الغارات التي شنّها بغدوين في حوران : « نحن نستولي على المدن ، بينما هم يتغلّبون على القرى» . لكن الانباء الواردة عن غارات رجنالد على طرق التجارة في البحر الأحمر وتغلغله في الحجاز (شباط ١١٨٣) كانت أشدّ خطورة بكثير . لقد قام قائد اسطول صلاح الدين ، حسام الدين لؤلؤ ، بتلقين المُغيرين أمثولة قاسية ، لكن ذلك لم يحصل قبل ان كانت أخبار المأثرة قد بعثت موجة من الذعر والرعب في سائر أنحاء العالم الإسلامي . وأسهمت هذه الحادثة بقدر ما أسهم به أي حادث مفرد آخر في تعزيز شهرة صلاح الدين وتقوية مركزه .

أدّت الحملات في النصف الثاني من العام ١١٨٣ ، وقد سبق ذكرها ، وإن لم تنته إلى نتيجة حاسمة ، إلى جعل الفرنجة يتّكلون على المواقف الدفاعيّة . وكذلك الحصار غير الناجح للكرك في آب ١١٨٤ والهجوم اللاّحق على فلسطين فإنهما حقّقا غرضاً نافعاً رغم كل شيء ، إذ جمعا للمرّة الأولى معظم الفرق المتنوعة في جيش صلاح الدين وأتاحا لها بعض التمرّس في العمليّات المشتركة . وتابع الاسطول المصري أيضاً عمليّاته خلال هاتين السنتين ، رغم ان تلك العمليّات جرت بطرق أقلّ مثاراً للدهشة والإعجاب ، لذا فإن ريموند الصجبيل صاحب طرابلس والبارونات كانوا على استعداد كاف لطلب الهدنة التي حرّرت صلاح الدين ، في ربيع ١١٨٦ ، لشنّ حملته النهائيّة ضد الموصل (١٠)..

اختلفت قوّات صلاح الدين العسكريّة ، مع انها كانت منظّمة وفقاً

---

١٠ – المصدر نفسه ، ص ٦٠٥ .

للخطوط نفسها التي سارت عليها قوات نور الدين ، في ناحية هي على جانب من الأهمية . فقد كانت نسبة الأكراد في أفواجه اكبر بكثير ، بينما كان العنصر المملوكي أقلّ بروزاً . وقام الولاء المشترك له بكبح جماح التنافسات التي كان من شأنها لولا ذلك ان تسفر عن نشوب منازعات بينهم ، كما يبدو انه حافظ في انتقائه للمقطعين والولاة الأصغر شأناً على كفتي الميزان بالتساوي تماماً . أما في تدبير الأقاليم فإن عائلته نالت الحقّ الأول في المطالبة بها . وتمتّع نوابه وحكامه بسلطة غير مقيّدة ، شرط معاملة رعاياهم على قدم المساواة ، والمساهمة في صندوق الحرب التابع للجهاد ، والاحتفاظ بألويتهم في حسن نظام وانضباط لكي تكون على استعداد للنزول إلى الميدان متى جرى استدعاؤها. لقد منحهم جميعاً ثقته التامّة ، وتوقّع منهم ان يمحضوه ولاءً مماثلاً بالمقابل . كان هو نفسه لا يبالي بالمكافآت الماديّة للسلطة ، ويبدو انه لم يكن واعياً لتأثير السلطة والثراء المفسد على الآخرين ، فهو لم يتدخّل إلاّ في حالات صارخة من الاستهتار بهذه الشروط . كان قليل الصبر على التفاصيل الدائمة والصغيرة ، ولكنّها ضرورية ، للإدارة اليوميّة ، وقد نشأ الإحساس بانعدام اشرافه الشخصيّ داخل الأقاليم . وسارت مع هذا الضعف في حقل الادارة جنباً إلى جنب أريحيّته غير الحكيمة في التصرّف بوارداته فكلُّ شيء كان يُعطى لجميع طالبيه دونما تردّد . ولقد كتب بهاء الدين يقول : « كنت أحمرّ خجلاً من حجم المطالب المُتَطلّبة منه » . إن حملاته كانت مناسبات للسخاء الأميري بقدر كونها عمليّات عسكريّة . وأولى نظّاره عنايتهم لكي تتمّ تلبية جميع الحاجات العسكريّة الراهنة على نحوٍ كافٍ ، فلم يجري تكديس للاحتياطي . وهذا النقص كان من شأنه أن يبرهن عن كونه إحراجاً خطيراً خلال الحملة الصليبيّة الثالثة .

قام صلاح الدين لدى احتلال حلب عام ١١٨٣ في أول الأمر بتولية ابنه البالغ عشرسنوات من العمر ، الظاهر غازي ، « كسلطان » ، إلى جانب عدد

من القادة الموثوق بهم لدعمه . لكن هذا الترتيب قوبل بالتحدّي من جانب العادل الذي طالب بأن يقايض حكم مصر بحكم حلب . ومهما تكن لوعات صلاح الدين لتنحية ابنه المفضّل ، فإنه وافق على الأمر دون تردّد ، وتمّت صياغة وثيقة التعيين بعبارات من المودّة الأخويّة غير مألوفة في مثل تلك الوثائق الرسميّة ، لكي تسبغ على العادل سلطات غير مقيّدة . وخاضعة للشروط المعتادة . ثم استبدل العادل في مصر ، بناء على نصيحة القاضي الفاضل ، بتقي الدين عمر ، لكنّه لخوفه الذي له ما يبرّره من تهوّر تقي الدين أرسل القاضي الفاضل معه على مضض لكي يمارس عليه تأثيراً اعتداليّاً . وخلال مرضه الخطير بدأ العديد من أقاربه الذين توقّعوا موته في إجراء تصرّفات بالملكيّة لمصالحهم . وقد عمد بسبب هذا الأمر إلى حد ما ، كما بدافع لتوقه إلى توطيد ابنائه جزئيّاً ، إلى إعادة توزيع المقاطعات عام ١١٨٦ . فالعادل ، بناء على اقتراحه هو ، أُعيد تعيينه على مصر ، إنما ليس في ملكيّة تامّة ، بل بصفة وصي على ابن صلاح الدين ، العزيز عثمان. ولم يتقبّل تقي الدين حصّته برحابة صدر ، فأخذ يتهدّد لبرهة بالخروج غرباً واصطحاب قسم كبير من الجيش المصري معه . غير انه أخيراً ما لبث حتى أطاع أمر صلاح الدين بالمثول إلى دمشق ، فأعيد تعيينه على اقطاعاته في الشمال ، بالإضافة إلى ميافارقين في ديار بكر . وتمّ ردّ حلب إلى الظاهر غازي .

يجب إعطاء المكان الرئيسي في أي تقدير لحياة صلاح الدين العمليّة إلى الجهود التي بنى فيها القوّة الماديّة التي أوشكت الآن على الانطلاق صوب الفرنجة بزخم متراكم . غير انه كانت هناك فئة أخرى ، أقلّ جلاء ، من النشاطات التي كان يجري تنفيذها في الوقت نفسه وللغاية ذاتها . إن المدى الذي جرى إليه استخدام ديبلوماسيّة صلاح الدين لعزل الفرنجة في بلاد الشام ولضمان كونه بقدر الإمكان على علاقات سلام ، إن لم يكن صداقة ، مع كل خصم خارجي محتمل قبل افتتاح حملته الحاسمة ، هذا المدى لم يحظ بالتقدير الكافي . لقد

توجّهت ديبلوماسيته على جبهتين . فالمسلمون في الشام ومصر كانوا على وعي تام بالمكانة الكبيرة التي تحتلها المصالح التجاريّة للجمهوريات الايطاليّـــة في الحفاظ على الدول اللاّتينيّة ، وبالمنافسات القائمة بين بيزا وجنوى والبندقيّة . ومنذ بداية حكمه بذل صلاح الدين جهوداً لاجتذاب تجارتهم إلى مصر ، الأمر الذي من شأنه ان ينطوي على حسنة مزدوجة إذ يؤدّي بالتالي إلى زيادة موارده والتقليل من قيمة التجارة الشاميّة . لا سيّما نظراً لسيطرته على البحر الأحمر . إن أقدم معاهدة جرى التأكّد من صحتّها حتى الآن كانت المعاهدة مع بيزا عام ١١٧٣ ، ولقد تبيّن نفعها في السنة التالية عندما قام البيزيون (البياشنة) وغيرهم من التجار الاوروبيين بمساعدة القوات المصريّة ضـــد الصقليين في الاسكندريّة . والرسالة التي بعث بها صلاح الدين ذاته إلى بغداد في هـــذه المناسبة تؤكّد وجود المعاهدات مع جنوى والبندقيّة كذلك . حيث جاء فيها : « وما منهم إلاّ من هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده ، ويتقرّب إلينا باهداء طرائف أعماله وتلاده ، وكلهم قد قرّرت معهم المواصلة ، وانتظمت معهم المسالمة » . ثم تشير رسالة من القاضي الفاضل إلى صلاح الدين ، بعد ٣ سنوات ، بصورة عابرة إلى « رسل الشعوب المختلفة » في القاهرة ، ومما لا يرقى اليه الشك ان هذه التجارة ساعدت إلى حدّ كبير في اعادة بنـــاء الأسطول المصري .

إلاّ أن المفاوضات مع القسطنطينيّة كانت أشدّ فعاليّة بالنسبة لغرض صلاح الدين . فالجهود التي بذلها الروم لإقناع اللاّتينيين في الشام بالتعاون معهم في شن الهجمات على مصر شكّلت خطراً دائماً على أمنها . وفي الوقت ذاته ، كان من الصعب التوصل إلى إتفاق معهم دون تأليب سلاجقة الاناضول ضدّهم لكن الكارثة التي أنزلها كلج أرسلان بجيش مانويل عند « ميريو كفالون» عام ١١٧٦ أنهت لفترة ما الاشتباكات المباشرة بينهما ، ولدى وفاة مانويل عام ١١٨٠ أخذ حلفاؤه زمام المبادرة بفتح العلاقات مع صلاح الـــدين ، وهي

العلاقات التي جرى تثبيتها في معاهدة عام ١١٨١ . لقد زاد العداء المتزايد بين الروم واللاتين من نفع هذه العلاقات وتكرّرها ، وهي التي كانت قائمة بين صلاح الدين واسحق انجلوس في القسطنطينيّة من جهة ، وبينه وبين اسحق كومنينوس في قبرص ، من جهة ثانية . ولقد كانت مثل هذه العلاقات الوديّة مع أعداء الإسلام التقليديين دون ريب مبرّرة على نحوٍ كافٍ في عيني صلاح الدين لجهة منفعتها المباشرة ، لكنّها زوّدته بالرضا الإضافي في إرجاع المؤسّسة القديمة للعبادة الإسلاميّة بالقسطنطينيّة ، ولو مؤقتاً فحسب ، باسم الخلافة العبّاسيّة .

كان كل شيء منظّماً ومعدّاً لاستقبال الإشارة عند نهاية عام ١١٨٦ لكن صلاح الدين مازال حينئذ ملزماً بشروط معاهدة ١١٨٥ وكان عليه ان ينتظر حتى يزوّد بذريعة للحرب . وعرضت فرصة ملائمة مرجوّة على يد النزاع الناشب بين ريموند الصنجيل صاحب طرابلس وغي ، والتحالف الناشيء بين ريموند والسلطان (١١). فقد جرى ارسال بعض قوّاته بالفعل لتعزيز حامية طبريا . وعليه ، فإن نيّة غي الأولى ، بتحريض من فرسان الداوية (الهيكليين) ، في مهاجمة طبريا كان من شأنها أن تؤدّي إلى إشعال نار الحرب . فقد ارتكب رجنالد صاحب الكرك غلطته الفادحة والمميتة في مستهل سنة ١١٨٧ بمهاجمة قافلة ذاهبة من القاهرة إلى دمشق ، فخرق الهدنة ، ورفض تسليم أسلابه استجابة لتهديدات صلاح الدين أو مناشدات الملك . وأرسلت الدعوات إلى كافة نواب صلاح الدين وتابعيه ، بينما انطلق هو على رأس عساكر حرسه في ١٤ آذار لحماية قافلة للحجاج كانت عائدة إلى الديار . فانضمّت الفرقة المصريّة ، التي وصلت متأخرة بعض الشيء ، إلى أعمال التخريب في أراضي الكرك وحصن الشوبك ، ثم عادت معه إلى دمشق بعد شهرين . واحتشدت في

---

١١ – المصدر نفسه ، ص ٦٠٥ .

تلك الاثناء عساكر دمشق وحلب وما بين النهرين والموصل وديار بكر عنـــد « رأس الماء » ، وأغارت عـــلى طبريا . وقامت جماعة من فرسان الداوية والاسبتاريّة (Templars and Hospitallers) عند بلدة صفوريّة ، غير عابئة بتعليمات ريموند ، فاشتبكت مع قوّة ضخمة كانت تشن غارة تظاهريّة بالحرب في ١ أيار ،وقُتل رجالها أو وقعوا في الأسر حتى آخر رجل منهم تقريباً.

وعند نهاية أيار استعرض صلاح الدين الجيوش مجتمعةً في عشترا بحوران . فجنّدت فرق الفرسان النظاميّة ١٢,٠٠٠ فارس ، يقابلها على الأرجح عدد مماثل من القوات الإضافيّة والجنود غير النظاميين . « وعيّن لكل أمير مكانه في الميمنة أو الميسرة ، بحيث لا يجوز له أن يبارحه . فلا تتغيّب فرقة ، ولا يترك رجل واحد مكانه . واختار من كل كتيبة حراس المقدّمة من رمـــاة السهام . . . ثم قال : عندما ندخل أرض العدو ، هذه هي أوامر قواتنا وتلك هي مواقع كتائبنا» (١٢) . وانطلق صلاح الدين يوم الجمعة في ٢٦ حزيران إلى فلسطين ، وبعد أن توقّف لمدة خمسة أيام في الأقحوانة عند الطرف الجنوبي من البحيرة ، تقدّم نحو التلال المشرفة على طبريا . وفيما وقف الجيشان مقابـــل بعضهما بعضاً ، قاد صلاح الدين ، سواء بمحض الصدفة أم وفقاً لخطّة مرسومة، حراسه وقوات حصاره إلى طبريا يوم الخميس الموافق للثاني من تموز . وقامت كونتيسة ريموند بالصمود في القلعة لصدّ هجومه ، لكن نداءها إلى غي في طلب المساعدة أتاح له الفرصة التي حُرمت عليه طيلة هذه السنوات كلّها ، ألا وهي : مواجهة مهيّأة في الميدان مع قوات مملكة الفرنجة .

لقد تجلّى الطابع الساحق للانتصار في حطين (٤ تموز ، ١١٨٧) على الفور عبر مجموع المدن والقلاع التي كانت إما قد سقطت بأيدي صلاح الدين شخصياً

---

١٢ – عماد الدين ، الفتح القسي ، ١٩ . وفيما يتعلق بمعركة حطين ، انظر المجلد الأول من تاريخ الحملات الصليبية ، الفصل التاسع عشر ، ص ٦٠٨ وما يليها .

(عكا واللطرون وصيدا وبيروت) أو في أيدي ألوية منفصلة تحت أمرة قادتها (مثل الناصرة وقيصريّة ونابلس ، الخ) . . ثم تجاوز صور مؤقتاً لكي تنضمّ قواته إلى قوات العادل الذي كان قد اقتحم يافا ، وحاصر عسقلان التي استسلمت في ٥ ايلول بناء على وعد قطعه باطلاق سراح غي وسيّد فرسان الداوية ، فوفى بوعده في نهاية الأمر ، أما القلاع الباقية في هذه المنطقة فقد تمّ الاستيلاء عليها إما في أثناء المسيرة على عسقلان أو بعدها توّاً . وأخيراً ، جمع صلاح الدين عساكره من جديد وزحف صوب هدف مطامحه : الا" وهو الاستيلاء على القدس . فاستسلمت المدينة بعد حصار استغرق أقلّ من اسبوعين في ٢ تشرين الأول وفقاً لشروط اثبتت شهرته ، اذا كانت هناك من حاجة للتثبيت ، في الكياسة والسماحة التي لا تعرف الحدود(١٣) .

شجّع أنهيار مملكة القدس صلاح الدين على الأمل بأنه يمكن الاستيلاء على صور أيضاً قبل بدء الشتاء ، فضرب الحصار حولها في ١٣ تشرين الثاني . وأدى الدفاع العنيد من جانب كونراد المونتفرّاتي (كونرد) إلى تثبيط عزيمة الألوية الشرقيّة التي كانت تتوق للعودة بأسلابها إلى بلادها . بما أن الشتاء صار وشيكاً الآن . فجاءت الهزيمة المشؤومة التي لحقت بأسطول الحصار المصري عند نهاية كانون الأول لتعزز نفاد صبرهم ، وعلى الرغم من حجج صلاح الدين لصالح المثابرة والصمود ، وهي الحجج التي أيّدها قادة عسكر حلب ، فإن الأمراء انتزعوا رجالهم وتفرّقوا . وفي أول كانون الثاني أرغم صلاح الدين على التخلّي عن الحصار وانسحب لقضاء الشتاء في عكا ، حيث حملت إليه سفارات متتابعة تهاني جميع الامراء المسلمين ومن جملتهم منافسيه السابقين في اذربيجان وبلاد فارس .

ترك صلاح الدين عكا لكي يعاد تحصينها تحت اشراف مملوكه المؤتمن بهاء

---

١٣ – راجع تاريخ الحملات الصليبية ، ج. ١ ، الفصل التاسع عشر ، ص ٦١٦ – ٦١٨ .

الدين قراقوش ، ورجع إلى دمشق في الربيع ، فتوقف لفترة قصيرة أمام قلعة الكوكب التي لم يتمّ إخضاعها بعد . وفي ١٠ أيار سار شمالاً مع حرسه لكي ينضمّ إلى ألوية ما بين النهرين تحت أمرة كوكبوري وعماد الدين سنجر ، بينما بقي العادل مع الفرق المصريّة لحراسة الجنوب ومعالجة أمر الكرك وحصن الشوبك . فصدرت الأوامر إلى عساكر حلب وحماه بالوقوف متيقّظة عند طيزين من أية حركة يأتيها بوهموند . أما القوات الباقية بتصرّفه فكانت خفيفة جداً حتى يُعهد إليها القيام بعمليات حصار طويلة الأمد ، لكنها كافية للاستيلاء على مدن الامارة وقلاعها المنعزلة ، حتى تصل إلى حدودها الشماليّة عند بغراس ودربساك . ومع ان انطاكية بالذات لم تكن عرضة لأي خطر حقيقي ، فقد طلب بوهموند في ايلول هدنةً ونالها على مضض لمدّة ثمانية أشهر ، وبعد مفاوضات الهدنة عادت ألوية ما بين النهرين إلى ديارها ورجع صلاح الدين إلى دمشق . فانضمّ إليه العادل هناك مع عساكره ، وجرى على الفور حصار القلعتين المتبقيتين في فلسطين : صفد والكوكب ، والاستيلاء عليهما . وعقب استسلام القلعة الأخيرة في ٥ كانون الثاني تفرّقت بقية قواته ، وقام صلاح الدين بجولة تفتيشيّة على حصونه الساحليّة من عسقلان إلى عكا (١٤) .

إن نجاح صلاح الدين الرائع في تخفيض ممتلكات الصليبيين ببلاد الشام إلى مدن ثلاث ، هي صور وطرابلس وانطاكية ، مع بضع قلاع نائية ، في غضون فترة قصيرة من ١٨ شهراً ، حمل المؤرخين المسلمين والغربيين سواء على اعتباره في الدرجة الأولى بمثابة قائد عظيم وناجح ، حيث كان الفضل في انتصاراته عائداً إلى الصفات العسكرية ذاتها والتي تحلّى بها غيره من قادة الجيوش الناجحين . وهذه اساءة فهم تامّة . حقاً إن صلاح الدين امتلك فضائل عسكريّة شخصيّة ذات مرتبة رفيعة ، لكن انتصاراته جاءت بفضل امتلاكه لصفات

١٤ – بالنسبة للحملات من ١١٨٧ إلى ١١٨٩ ، انظر ايضاً : تاريخ الحروب الصليبية ، المصدر السابق ، ج ١ ، الفصل التاسع عشر ، ص ٦١٥ – ٦١٩ .

معنويّة (أدبيّة) لا تشترك مع المواهب الاستراتيجيّة إلاّ في القليل . كان رجلاً يستمد وحيه من مثال أعلى ذي قوّة وثبات ، ولـــقد جعله تحقيق هذا المثال ينهمك في الضرورة في سلسلة طويلة من النشاطات العسكريّة . وكانت هـــذه النشاطات حتّى سنة ١١٨٦ موجّهة نحو فرض إرادته على النظام العسكري الإقطاعي السائد وتحويله إلى الأداة الّتي تطلّبها غرضه. فقد بيّنت الصفحات السابقة إن الناحية العسكريّة قد احتلّت في ذهنه وعلى صعيد الممارسة إلى حدّ كبير مرتبة أدنى من توحيد القوى السياسيّة لآسيا الغربيّة « على غرض واحد » وصبغها بشيء من عناده وتفرديّة نظرته . وبهذه الوسائل ، وليس بفضل مقدرة استراتيجيّة متفوّقة ، نجح صلاح الدين في حشد ذلك الجيش الذي قُدّر له أن يقضي على مملكة القدس اللاّتينيّة . حتّى ان الحملات اللافتة للنظر عامي ١١٨٧ و ١١٨٨ لا يمكن اعتبارها كبرهان على ان صلاح الدين امتلك براعة عسكريّة بارزة . فانتصار حطّين كان بفضل أخطاء الفرنجة بقدر ما هو مدين لاستراتيجيّة صلاح الدين ، حتّى عندما يُمنح كل تقدير إلى البراعة الّتي جرى فيها اغتنام الفرصة . مثلما يدلّل الانهيار اللاّحق للدفاعات الداخليّة في القدس وانطاكية على الضعف الأساسي في الدويلات الصليبيّة ، وليس بالأحرى على العبقريّة العسكريّة لدى الفاتحين ، وهذه نقطة تشدّد عليها حقيقة كون العديد منها قد سقطت بأيدي قوات صغيرة منفصلة .

وعلاوة على ذلك ، فإن هذه النجاحات تمّ إحرازها إلى حدّ كبير بفضل ممارسة الصفات الّتي ميّزته أشد تمييز عن معاصريه العسكريين . فـــلا شيء يسترعي الانتباه في المصادر اكثر من مناشدته المتكرّرة من انتقادات ضباطه لمبادىء الشرف ، وحسن النيّة ، وايمان ديني راسخ الأركان . وعندما جاء دور المدن والقلاع المسيحيّة فقد استسلمت هذه بتلك السهولة لسبب رئيسي يعود إلى شهرة صلاح الدين في المراعاة الدقيقة للعهود الّتي يأخذها على نفسه وفي سماحة النفس الّتي لا تعرف المكر والحذر . أما اولئك النقّاد الذين عابوا عليه

السماح لتلك الأعداد الكبيرة من الفرسان والتجار بالعثور على ملجأ في صور ، وبذلك تسنّى له ان يبني رأس جسر هناك للهجوم المضاد ، فإنهم قد اخفقوا عموماً في اعتبار ما سيكون عليه مجرى الحملة الصليبيّة الثالثة لو أنها وجدت صلاح الدين لدى وصولها ما زال منهمكاً في مهمّة اخضاع قلاع الداخل . قلعة تلو الأخرى . دون ان يتمتع بحريّة تامة في الحركة وان يأمن مؤخرتـه أماناً تامّاً . وفي انه لم يستولِ بالواقع على صور كذلك ، فقد كان هذا إلى حدّ ما نتيجة للصدفة بوصول كونراد . وإلى حدّ ما بسبب نفاد الصبر وعصيان الأوامر لدى الألوية الشرقية .

ويمثّل السبب الثاني بوضوح على العيوب المستمرّة لدى القوات التي كان عليه ان يجابه بها الصراع المتأخر مع الصليبيين . لكن هذا الأمر كان لا يزال رهن المستقبل . ومن غير التاريخي ان نتصوّر صلاح الدين وكأنّه يعدّ الخطط ويوزّع قواته للتصدّي للجهوم الوشيك من الغرب . لقد انصبّ تفكيره منذ البداية على الحرب الهجوميّة ، وليس على الدفاعيّة منها . من أجل هذا الغرض قام ببنـــاء جيوشـــه ، ذلك الآن إلى حـــدّ كبير وبصورة رائعة . ومع انه حزن لانعدام قوّة الصمود لدى تابعيه امام صور ، ومرّة ثانية أمام انطاكية عام ١١٨٨ ، فهو لم ير في هذه الأمور أكثر من مجرّد قيود عابرة ، وتوقّع بملء الثقة ان يعوّض عنها في حملات لاحقة . وصلته الإشارة الأولى عن الهجوم القادم من الأميرال الصقلّي مارغاريت في اللاّذقية في خريف ١١٨٨ ، فلم ينزعج من التقرير كثيراً حتى انه منح بوهموند هدنةً لغاية أيار ١١٨٩ فقط ، وشغل نفسه خلال الشتاء بإعداد العدّة لمهاجمة انطاكية وطرابلس .

لذا فإنه فوجىء على الأرجح عندما وصلت الطلائع الاولى ونجحت قوات غي في السير على عكا ومحاصرة المدينة في ٢٧ آب، ١١٨٩ . ومنذ تلك اللحظة تحوّل دوره ، فصار يواجه مهمّة جديدة أشد تجهّماً ، وهي مهمّة لم يحاولها أبداً أي قائد اسلامي من قبله طيلة قرون : مهمّة الإبقاء على جيش في الميدان

لمدّة سنوات ثلاث ، وذلك وسط كافة الظروف المثبطّة للعزيمة . فلو انـــه لم يكن سوى مجرد قائد للجيوش ، لما استطاع إنجازها . ولكانت قواته الاقطاعيّة قد تلاشت وتركت ميدان المعركة للفرنجة . لكن عظمة صلاح الدين الحقّـــة والقوة الداخليّة للأداة التي أوجدها تمّ وضعهما على المحك في هذا الاقتران غير المتوقّع كلياً . لقد كان عليه ان يخوض نزاعاً مزدوجاً : الصراع الخارجي مع الصليبيين ، والصراع الداخلي مع النزعات الانقساميّة ومع تقلبّات الجيوش الاقطاعيّة . فالعبقرية العسكريّة لم تلعب سوى دور ضئيل في مجموع الصفات التي حارب بها الهجمة الصليبيّة لكي يوقفها تماماً . والحملة الطويلة كانت تلاحقاً غير متقطّع من الانتكاسات والكوارث العسكريّة تقريباً . كان قوّاده يجاهرون بالنقد ، وغالباً ما تمرّد عساكره . لقد ألهم صلاح الدين تلك المقاومة العنيدة التي انهكت الغزاة في نهاية الأمر بقوّة شخصيتّه الخالصة وفي جذوة الايمان المتقدّة بداخله ، وفي القدوة التي أرساها عن الصمود الثابت .

* * *

الفصل السادس

جيوش صلاح الدين *

١ ـ الجيش المصري

لمّا شنّ شيركوه حملته الثالثة على مصر ، أعطاه نور الدين هبةً بقيمة ٢٠٠,٠٠٠ دينار ، عدا الأسلحة والثياب والدواب ، وسمح له في انتقاء ألفي فارس من عسكره النظامي ، كما أعطى نور الدين لكل فارس من هؤلاء العسكر ٢٠ ديناراً لإنفاقها أثناء تجهيز الحملة (١). فاستأجر شيركوه بالمبلغ ستة آلاف فارس من فرسان التركمان ، يُحتمل انهم كانوا من قبيلة « ياروق » ، لأن قائدهم كان عين الدولة الياروقي (٢) . وأُضيف إلى هذه الآلاف الثمانية من الفرسان ، عساكر شيركوه العاملون في خدمته ، بصفة كونه أمير إقطاع حمص ، والبالغ عددهم خمسمائة مملوك وكردي(٣) ، وربّما انضمّ إلى هؤلاء

---

* Gibb, H.A.R. : « The Armies of Saladin », **Cahiers d'Histoire égyptienne,** série 3, fasc. 4 (Cairo, 1951). pp. 304 – 320

١ – ابن الأثير ، التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية (R.H.C., Hist. Or., II. ii) ، ص٢٤٩ وما يليها وانظر الصيغة المختصرة في كتاب الكامل (طبعة تورنبرغ) ج ١١ ، ٢٢٢–٢٢٣ .

٢ – فيما يتعلق بقبيلةالياروقي التركانية وعلاقتها مع نور الدين ، انظر كتاب كلود كاهن **La Syrie du Nord** (باريس ، ١٩٤٠) ، ص ٣٧٨ .

٣ – ابن أبي طيء في المجلد الأول من تلخيص أبي شامه (القاهرة ، ١٢٨٧ هـ) ص ١٧٣ . وهو يورد هذا الرقم على انه عدد « الأسدية » ، أي الفرقة الشخصية لأسد الدين شيركوه في مصر .

كلّهم عددٌ غير محدود من الأجناد الاضافيين . وبعد أن احتلّ مصر ، «أقطع البلاد لعساكره» الذين جاؤوا معه (٤) وترك المصريين ، في الوقت نفسه ، يحتفظون بما في أيديهم(٥) .

أدّى تعيين صلاح الدين خلفاً لشيركوه إلى إنسحاب التركمان وعدد من أمراء نور الدين الاتراك مع فرسانهم . ومن جهة ثانية ، فإن (فرقة) الأسديّة التي انشأها شيركوه وغيرها من فرسان الاكراد ظلّوا يعملون في خدمته ، وقبل انقضاء سنة واحدة كان قد شكّل فرقة خاصة من الحرس ، تدعى الصلاحيّة ويقودها الأمير أبو الهيجا (٦) . وعلى الرغم من انخفاض عدد قواته ، فقد شرع يستبدل الامراء المصريين المقطعين بمن بقي معه من العساكر(٧) . فازداد حجم جيشه باستمرار خلال السنوات الخمس التالية عن طريق التجنيد في الفرق التابعة

---

٤ – ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٢٥٣ (الكامل ، ج ١١ ، ص ٢٢٤). ويقول ابن الأثير في التاريخ الباهر ص ٢٤٩ (راجع الكامل ، ج ١١ ، ص ٢٢٢) إن العاضد كان قد وعده بتخويله صلاحية القيام بهذا العمل قبل خروجه في الحملة إلى مصر .

٥ – ابن ابي طيء في المجلد الأول من تلخيص ابي شامة ، أسفل الصفحة ١٧٢ .

٦ – المصدر نفسه ، ص ١٧٣ . عماد الدين في المصدر نفسه ، ص ١٧٨ (راجع الكامل ، ج ١١ ، ص ٢٢٩) . إن قوات المشاة الوحيدة التي ذكرها صلاح الدين خلال هذه الفترة المبكرة هي « نقابة الحلبية (انظر الحاشية رقم ٧٧ أدناه) ، وقد جرى استخدامها في الهجوم على غزة عام ١١٧٠ : كتاب القاضي الفاضل (ابوشامة ، ج ١ ، ١٩٣) .

٧ – عماد الدين في تلخيص ابي شامة (ج ١ : ١٧٨) . ويضيف ابن الأثير (ج ١١ : ٢٢٧) عبارة « وأهله » . وكانت هذه المناقلة (التي يبدو انه قد صاحبها الكثير من الفوضى والمصادرة القسرية ، انظر : ابن ابي طيء في تلخيص ابي شامة ، ج ١ : ١٩٧ ، ٢٨ وكذلك ٢٠٠ ، ١٠ . وعماد الدين ، المصدر نفسه ، ٢١٩ ، ٢٤) إحدى الشكاوى التي رفعها الامراء المصريون إبان الثورة عام ٥٦٩ هـ/١١٧٤ م (ابن ابي طيء ، تلخيص ابي شامة، ج ١ : ٢٢٠، ٨). ويقول كتاب بستان الجامع (طبعة كاهن ، في B.E.O. VII – VIII, p. 138) عن شتاء ١١٦٩ – ٧٠ ما يلي : « غرق في تلك السنة عسكر المصريين في بحيرة الأشنوع وهلك اكثرها وكانت آخر سعادتهم » .

له وتحت لواء أمرائه . لما حل العام ١١٧٤ ، وهو العام الذي خرج فيه توران شاه بحملته على اليمن ، استطاع صلاح الدين تزويده بجيش قوامه ١,٠٠٠ فارس عدا الفرسان الذين سيّرهم من حلقته الخاصّة(٨) .

إن المصادر التي في متناولنا لا يبدو عليها انها تورد أية تفصيلات عن توزيع الإقطاعات العائدة للعساكر أو لصلاح الدين نفسه ، وهو الذي يفترض انه ورث إقطاعات الوزراء المصريين وإيراداتها(٩) . فالمعلومات التي نملكها تتعلق فقط بالإقطاعات المعطاة لأفراد أسرته . وعندما وصل والد صلاح الدين إلى مصر عام ٥٦٥ هـ — ١١٧٠ م أقطعه هذا الاسكندرية ودمياط والبحيرة(١٠) . وفي الوقت نفسه أَقطَع أخاه توران شاه الاقاليم الجنوبية من صعيد مصر (قوص وأسوان وعيذاب) ، بعبرة بلغت قيمتها ٢٦٦,٠٠٠ دينار . ثم تسلّم أخوه بعد أشهر قليلة علاوة على ذلك إقطاعات بوش وأعمال الجيزة وسمنود(١١) وعندما وصل ابن اخيه تقي الدين عمر في السنة ٥٦٧ هـ — ١١٧٢ م ، بصحبة فرقته الخاصّة و ٥٠٠ جندي ، تقرّرت حوالتهم في النفقة عليهم على كورة البحيرة (١٢) .

---

٨ — ابن ابي طيء (تلخيص ابي شامة ، ج ١ : ٢١٧) . والعبارة الأخيرة هي « خارجاً عمن سيره من حلقته » . مما يترك مجالا لبعض الشك فيما إذا كانت لفظة « حلقته » تعود إلى صلاح الدين أم إلى توران شاه . ويبدو انها المرة الأولى التي يستخدم فيها هذا الاصطلاح .

٩ — جاء في كتاب السلوك المقريزي (ج ١ ، ص ١١) بان المتحصلات في « الديوان الخاص السلطاني» عام ٥٨٨ هـ/١١٩٢م (أي عند نهاية حكم صلاح الدين) تقررت بمبلغ ٣٥٤,٤٤٤ ديناراً.

١٠ — ابن ابي طيء في تلخيص ابي شامة (ج ١، ١٨٤). وبلغت قيمة إقطاع البحيرة ٤٠٠,٠٠٠ دينار (انظر المقريزي ، المصدر السابق ، ص ٩١ ، حاشية ٣) .

١١ — ابن ابي طيء ، المصدر نفسه ، ١٨٤ ، ١٩٢ . ويقول المقريزي (في المكان نفسه من السلوك) إن عبرة بوش وملحقاتها بلغت ٧٠,٠٠٠ ، وعبرة سمنود وملحقاتها ٦٠,٠٠٠ دينار .

١٢ — المقريزي ، السلوك ج ١ ، ٤٨ : «تقررت حوالتهم في النفقة عليهم على كورة البحيرة». ويذكر مؤلف البستان (ص ١٣٩ وما بعدها) انه تم استخدامهم فوراً في الحملات على برقه والمغرب . ومن المحتمل ان يكون ذلك بديلا عن إقطاعهم البلاد .

ويظهر من ملاحظة ذكـَرَها ابن الاثير ان الاقطاعات في نظام نور الدين الإقطاعي كانت متوارثة ، وقد جرى الاحتفاظ بسجلّ للعدّة والرجال ممّا التزم كل تابع بتقديمه(١٣) . ويبدو ان نظام صلاح الدين كان على غراره تماماً(١٤) . فالامراء والأجناد الرئيسيون كان لكل واحد منهم إقطاع ،وتسلّم مماليكهم «جامكيّة» أو عطاءً معيّناً ، أو تعيّنت لهم إقطاعات أو حصص في إقطاع(١٥) ، ونفقات ، أي المؤن ، والعلف (العليق) عيناً(١٦) . أما الجنود الذين لم يتسجّلوا على لوائح العطاء والنفقات في الدواوين العائدة للأجناد فقد عُرفوا بتسمية «البطّالين» (١٧) .

---

١٣ – ابن الاثير ، التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية ، ٣٠٨ .

١٤ – إن منشور تعيين ابن المقدم والياً على دمشق في ٥٧٨ هـ/١١٨٢ م اشترط عليه القيام بعرض «العسكر وإلزامهم بعدة أجنادهم وعدة رجالهم» : عماد الدين، البرق الشامي، ج ٥ ، الورقة ٤٧ أ.

١٥ – يبدو من هذا المنشور نفسه ان « الاقطاعة » أو « الجامكية » تجوز مقاسمتها بين أمير ومملوكيه ، لأنه يأمر الوالي بحظر الأمراء عن « الحيف على رجالهم في القرار والإقطاع (المصدر نفسه ، ٤٧ ب) . وقارن ابن المـماتي ، قوانين الدواوين (١٩٤٣) ، ٣٦٥ : ٢,١ . وقارن ايضاً ابن الاثير (الكامل ، ج ١١ : ٣٥٠) ، حيث يعرف الجنود النظاميين بعبارة « من له الإقطاع لا الجامكية » .

١٦ – ابن ابي طيء (تلخيص أبي شامة ، ج ١ : ٢١٩) : « فأراه جرائد الأجناد بمبالغ اقطاعهم وتعيين جامكيتهم ورواتب نفقاتهم » . راجع ايضاً ابن المماتي ، المصدر السابق ، ص ٣٥٤ و ٣٥٥ ، حيث يعطي رقم ١,٠٠٠ دينار كقيمة نموذجية للجامكية السنوية . وراجع الفقرات المذكورة في الحاشية ١ أعلاه ، حيث يستبدل ابن الاثير عبارة « من القرار الذي له » بقوله « من جامكيته » . وحين يقول المقريزي (السلوك ، ج ١ ، ٦٥) عن صلاح الدين عقب معركة تل الجزر (تل الرملة) بانه « قطع أخباز جماعة من الأكراد » ، فمن المرجح ان «خبز» تعني هنا « العطاء » وليس « الإقطاع » ، كما جرت العادة في العرف المملوكي المتأخر . قارنه ايضاً بابن طيء (تلخيص ابي شامة ، ج ١ : ١٩/١٩٦ .

١٧ – ابن ابي طيء (تلخيص أبي شامة ، ج١ : ٢٠٩) « أنفذ معه جماعة « من الأكراد البطالين » . وخلال حصار عكا بذل صلاح الدين جهوداً لتجنيد عدد من البطالين لقاء وعود بمنحهم العطاء والنفقات (عماد الدين ، الفتح ، ص ٣١٣ – ٣١٤ .

لم يتمتّع المُقْطَع أو صاحب الإقطاع بحقّ التصرّف في الإيراد كلّه المتحصّل من إقطاعه، إلاّ بموجب إذن خاص . وعليه، فعندما تعيّن تقي الدين نائباً لعمه في مصر عام ٥٧٩ هـ – ١١٨٣ م فإنه أُقطع الاسكندرية ودمياط ، لكنّه أُعطي بالإضافة إلى ذلك البحيرة والفيوم وبوش بمثابة «خاصّة» له(١٨) . ويمكن الاستنتاج من إشارات متفرّقة بأن المُقْطَع كان مسؤولاً عن إيلاء عنايته لحراثة الأرض وسقايتها على وجه كاف (١٩) ، وعن صيانة السدود (٢٠) ، والاهتمام بجمع الخراج نقداً أو عيناً عن كل محصول (٢١) . أما المرحلة التي كان عندها المقطع يقوم بجمع إيراده المحدّد نقداً وعيناً ، فلا يرد ذكرها ، هذا إذا كان حقّاً يقوم بذلك على الإطلاق . الاّ أنه بخلاف المُقطعين المتأخرين، فقد أشرف كل مُقطع بشخصه على الغلال في فصل الربيع . وجرى اختيار موعد المؤامرة الفاطميّة في شهر نيسان من سنة ١١٧٤ ، باعتباره الوقت الذي تكون فيه «العساكر متباعدة في نواحي إقطاعاتهم وعلى قرب من موسم غلاتهم وانه لم يبق في القاهرة إلاّ بعضهم»(٢٢) . وحين قام الاسطول الصقلّي بمهاجمة

---

١٨ – ابن ابي طيء (تلخيص أبي شامة ، ج ٢ : ٥٣) . ويقول المقريزي (السلوك ١ : ٨٢) : «ارتجع (الملك المظفر تقي الدين) عن العادل إقطاعه بمصر ، وهو سبعمائة الف دينار في كل سنة». لكنه يضيف إلى هذا القول في أحد الهوامش اللاحقة (ص ٩١ ، هامش ٣) ما يلي : «كان إقطاع المظفر تقي الدين عمر البحيرة جميعها ، وهي بأربعمائة الف دينار ، والفيوم بثلثمائة الف دينار ، وقاي وقايات وبوش وهي بسبعين ألف دينار» . يستتبع عن هذا انه يستخدم لفظة «إقطاع» بمعنى «خاصة» . ويذكر على نحو مماثل في الخطط (ج ١ : ٨٧) بأن ايرادات (عوائد) «الديوان العادلي» في سنة ٥٨٥ هـ/١١٨٩م بلغت ٧٢٨,٢٤٨ ديناراً .

١٩ – ابن مماتي ٣٦٦ .

٢٠ – المصدر نفسه ٢٣٢ – ٢٣٣ .

٢١ – المصدر نفسه ، ص ٢٥٨–٢٧٦ .

٢٢ – من رسالة للقاضي الفاضل استشهد بمقاطع منها ابو شامة (ج ١ : ٢٢١) . ويقول ابو شامة ايضاً عن جنود نور الدين إبان هجوم الفرنجة الثالث على مصر : «وعسكر الشام متفرقون ، كل منهم في بلده حافظ لما في يده» (ج ١ : ١٥٤) .

الاسكندرية عند نهاية تموز من العام نفسه ، تمّ تعزيز المدافعين ، على جناح السرعة ، بمدد من الفرسان الذين كانوا في إقطاعاتهم بالجوار (٢٣).

وفي حاشية موجزة وناقصة ، ملحقة بكتاب ابن مماتي ، تُدرج معدّلات العطاء والنفقات العينيّة لكل فئة من الجند ، على أساس العبرة المقدّرة لكل إقطاع (٢٤) . فالتقدير جرى على حساب النقد المسمّى «دينار جندي» . وتلقّى الجنود النظاميون من الاتراك والأكراد والتركمان عطاءهم بالمعدّل الكامل . أما الفئة الثانية فقد تألّفت من الكنانيّة(٢٥) والجنود السابقين من عسقلان (العساقلة) (٢٦) ومن عساكر أخرى مماثلة كانت مسجلّة في الديوان المصري

---

٢٣ – ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ٢٧٢ . وفي خريف سنة ١١٧٥ أرسل صلاح الدين العساكر المصرية إلى بلادها ، وأمرهم بالعودة متى جمعوا حاصلات اقطاعاتهم (« إذا اشتغلوها ») العماد الاصفهاني في تلخيص أبي شامة ، ج ١ ، ٢٥٢ .

٢٤ – ابن المماتي ، ص ٣٦٩ .

٢٥ – الكنانية هم الامراء وغيرهم من المقطعين من قبيلة كنانة العربية ، هاجروا من جنوب فلسطين بعد سقوط عسقلان عام ١١٥٣ ، وأسكنهم الوزير طلائع بن رزيك في دمياط وجوارها (القلقشندي ، ج ١ : ٣٥٠) . وفي الحملة على تل الجزر (جنوب شرقي الرملة) كان القاضي الفاضل مصحوباً « بالكنانية والأدلاء » (كتاب البرق ، ج ٣ ، الورقة ١٥ ب . قارن هذا مع ابي شامة ، ج ١ : ٢٧٣ – ٣٠) ، مما يدل بوضوح على كون عرب بني كنانة حسني الاطلاع على مناطق الحدود . انظر ايضاً المقريزي : الخطط ، ج ١ ، ٨٧ السلوك ، ج ١ ، ٧٥ . راجع الخطط (طبعة Wiet ، ج ٤ ، ٢ ، ص ٦١) حول امراء الكنانيين بدمياط في القرن التالي . لكن في بعض الفقرات قد يكون من المشكوك فيه ما إذا كانت الكلمة يجب ألا تقرأ ب «كتابية». انظر بهذا الصدد ما يلي :

Gaudefroy – Demombynes, **La Syrie à l'époque des Mamelouks** (1923), p. xxxiii, n.5

حيث ترد هذه العبارة :

« مماليك صغار قيد التدريب للدخول في خدمة السلطان » .

D. Ayalon in J.A.O.S. vol. 69, No. 3 (1949).p. 141, No.36

٢٦ – يبدو من السجل المقتبس في خطط المقريزي (ج ١ ، ٨٧) بأن العساقلة كانوا يقيمون ايضاً كجند للحاميات في دمياط وتنيس .

(الفاطمي) . وتقاضى هؤلاء نصف العطاء . بينما تقاضت الفئة الثالثة . وهي المؤلّفة من عساكر الاسطول و «قوّادهم» (؟). ربع العطاء(٢٧) . واخيراً، كانت هناك فئة «العربان» التي تقاضى جنودها ، إلاّ في بعض الحالات الشاذّة، ثمن (١/٨) العطاء الكامل . ويذكر ابن مماتي القول التالي : « والسعر الكامل عبارة عما يُطلق في حوالة الأجناد وهو عن كل دينار واحد اردب واحد وثلثا اردب قمح وثلث اردب شعيراً . والحوالة على بيت المال في مستحقّ الأجناد كل دينار جندي ربع دينار عيناً على سبيل المصالحة ، ومنهم من أحيل عن عن الدينار بثلثي دينار عيناً وبثلث دينار على ما يؤمر به »(٢٨) . يبدو من هذا القول أن كل واحد من الفرسان النظاميّين تلقّى نقداً بما لا تقلّ نسبته ابداً عن ربع العبرة المقدرّة لإقطاعه ، وأخذ كميّة من الحبوب بمعدّل اردب واحد لكل دينار من العبرة المقدّرة . وتلقّت الفئات الدنيا كميّات أقلّ من غلال الحبوب. إلاّ أنه يتعذّر علينا استخلاص شيء اكيد من هذا القول بصدد عطائها نقداً .

لقد حفظ لنا المقريزي سجلّين من مفكرة القاضي الفاضل — « المتجدّدات » وهما يعطيان أرقاماً لعدد الجيش المصري أيام صلاح الدين (٢٩) . فالسجلّ الاوّل يذكر بان صلاح الدين أقام عرضاً لجميع عساكره ، قديمها ومحدثها ، بحضور رسل الروم والفرنجة ، يوم الثامن من محرّم ٥٦٧ هـ (١١ ايلول ، ١١٧١) . وكان العدد الإجمالي للطُلب المعروضين ١٧٤ طُلباً، وتغيّب منهم

---

٢٧ — يذكر المقريزي في السلوك (ج ١ ، ٤٥) بأن صلاح الدين قام في سنة ٥٦٧ هـ/١١٧٢م برفع معدل دينار الاسطول من خمسة أثمان الى ثلاثة أرباع المعدل الكامل . لذا يبدو من المشكوك فيه ان « غزاة » في هذا المقطع تحمل المعنى المعتاد لجنود البحرية . من المحتمل ان يتقرر المعنى الدقيق بواسطة لفظة « قواد » المربوطة بها ، وهي لفظة عجزت عن تعيين مدلولها .

٢٨ — لست متأكداً من المعنى الدقيق لبعض العبارات المستعملة في هذه الفقرة .

٢٩ — الخطط ، ج ١ ، ٨٦ . ويرد السجل الثاني بصيغة مختصرة في كتاب السلوك ، ج ١ : ٧٥ .

عشرون طلباً . «والطلب في لغة الغُزّ هو (وحدة مؤلّفة من) الأمير المقدّم الذي له علم معقود وبوق مضروب ، وعدّة من مائتي فارس إلى مائة فارس إلى سبعين فارساً» (٣٠). لقد بلغ مجموع هؤلاء الفرسان قرابة ١٤,٠٠٠ فارس ، اكثرهم من «الطواشية» (٣١) والباقي من «القره غلاميّة» (٣٢) وفي الوقت نفسه

---

٣٠ – انظر الحاشية المطولة في كتاب كاترمير **Histoire des Sultans Mamlouks** (I, i, 34 – 5 ; ii, 271 – 2) ، حيث يفسر « غز » بانها تعني الاكراد .

٣١ – يعرف المقريزي « الطواشي » في هذه القرينة بأنها « من رزقه من ٧٠٠ إلى ١,٠٠٠ أو ١,٢٠٠ (دينار) (ويرد الرقم الأخير في النص الأصلي بمائة وعشرين ديناراً) ، وما بين ذلك ، وله برك من عشرة رؤوس إلى ما دونها ما بين فرس وبرذون وبغل وجمل وله غلام يحمل سلاحه » . ومهما يكن أصل هذه اللفظة ، فانها لا تعني ، هنا على الأقل، (كما لاحظ كاترمير في المصدر السابق ، ج ١ : ١٣٢) « الخصي » . ويساوي بولياك (في كتابه عن الاقطاعية ، ص ٢١ ، حاشية ١ من الترجمة العربية) بين « الطواشية » ومماليك الأمراء . قارن مع ابن مماتي ٣٥٦ : ١ ، ٢ . إلا أنه يتضح من هذه الفقرة بأن « الطواشي » في هذه الفترة كانت تدل على جندي ينتمي إلى الرتبة الأعلى من رتبتيّ الجند النظاميين ، والرتبة الأدنى كانت تدعى بالقره غلامية (انظر الحاشية التالية) . هذا ما يؤكده الوصف الشهير الذي وصفه غليوم الصوري لجيش صلاح الدين إبان حملة عام ١١٧٧ . (xxii, cap. 23) وفي الترجمة المطبوعة بنيويورك، ١٩٤٣ : (ii, 430 – 1) . ويقول فيه : « وكان من بين هؤلاء ثمانية آلاف يدعونهم الطواشية بلغتهم ، والباقون هم ثمانية عشر أيضاً يدعونهم قره غلامية »)

(ويشير المترجمون ، في المصدر ذاته ، إلى التفسير غير الموفق الذي أعطاه نولدكه لهذه اللفظة في : (Roehricht, G.K.J., 377, n.1) . إن غليوم الصوري يشمل حرس صلاح الدين ضمن « الطواشية » (فيقول عن الحرس : « ألف من أشجع الفرسان ») . وفي الواقع إن صلاح الدين يخاطب سنقر الخلاطي الشهير بكلمتيّ « يا طواشي » (ويقول عنه عماد الدين في تلخيص أبي شامة ، ج ٢ : ١٤٩ ، السطر الخامس من الأسفل : « أخص مماليك السلطان وأخلصهم وقد قدمه على مماليكه » . انظر ايضاً ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة (طبعة القاهرة ، ١٩٣٦)، ص ١٢ : ١ ، ٤ .

٣٢ – إن لفظة « قره غلام » لا يمكنها ان تعني « عبداً أسود » بالمعنى الحرفي . فغليوم الصوري (انظر الحاشية ٣١) يصف القره غلامية بمثابة « جنود عاديين » ، ومن المؤكد انه كان يلاحظ هذا لو أنهم كانوا سودانيين . لذا فان تفسير ستانلي لين – بول (في كتابه عن صلاح الدين ، ص ١٥٤) : « مما لا ريب فيه انهم يمثلون فرقة المشاة المصرية القديمة ، ذات السلاح الثقيل والمتحدرة ⇐

عرّض السلطان عرب بني جذام العاملين في خدمته ، فبلغ عددهم ٧,٠٠٠ فارس، « واستقرّت عدّتهم على ١,٣٠٠ فارس ، لا غير » .

غير أن مؤسّسة عسكريّة في هذا الحجم كان لا بدّ لها من إجهاد موارد مصر الماليّة ، وهذا ممّا يعلّل تذمر نور الدين من انه لم يتلقّ أية مساهمة من مصر في نفقات الجهاد ، وإيفاده من يقوم بتدقيق حسابات صلاح الدين (« بعمل حساب البلاد واستعلام اخبارها وارتفاعها وأين صرفت أموالها») (٣٣) . والحقّ يقال ان صلاح الدين ذاته اتخذ خطوات لتخفيض الاعباء والنفقات ، أولاً بواسطة إرسال فرقة كبيرة من الجند إلى اليمن سنة ١١٧٤ (٣٤) ، كما سبق ذكره ، ثم في إقدامه على «قطع أخباز جماعة من الأكراد» سنة ١١٧٧ بحجّة مسؤوليتهم عن هزيمة السلطان وعسكره عند تل الجزر (الرملة) (٣٥) . وأخيراً، في سنة ٥٥٧ — ١١٨١ فإنه أعاد تنظيم القوات النظاميّة في مصر ، على النحو المذكور في المقتطف الثاني من «متجدّدات» القاضي الفاضل (٣٦) . «إلى أن

⇐

من السودان » ، يقع في خطأ مزدوج . فاللفظة التي يبدو انها سقطت من الاستعمال خلال العهد الأيوبي، كانت تطلق في الظاهر إما على المماليك من ذوي الرتبة الوضيعة ، أو ، كما يبدو ان الأعداد هنا تدل عليه ، على رجال الخيالة من غير المماليك . والفرق المصرية السابقة كانت — كما سوف يتبين أدناه — في سجلات منفصلة . وعلى أية حال ، ينبغي عدم الخلط بين « قره غلام » واللفظة المنغولية المتأخرة « قره غول » (انظر Dozy, **Supplement** s.v.)

٣٣ — عماد الدين (تلخيص ابي شامة ، ج ١ ، ٢٠٦) .

٣٤ — جرى في السنة ذاتها تسريح القسم الأكبر مما تبقى من الجيش الفاطمي بعد فشل المؤامرة، (انظر القاضي الفاضل في تلخيص أبي شامة ، ج ١ : ٢٢١ ، ٢٨–٢٩) مع ان بعض فرق هذا الجيش — كما سيتبين أدناه — جرى إما إدماجها في قوات صلاح الدين أو اعادة تشكيلها داخل تلك القوات .

٣٥ — المقريزي ، السلوك ، ج ١ : ٦٥ .

٣٦ — المقريزي . الخطط ، ج ١ ، ٨٦ . وهناك صيغة أوجز في السلوك ، ج ١ ، ٧٥ .

استقرّت العدّة على ٨,٦٤٠ فارساً ، منهم أمراء مائة وأحد عشر أميراً . و ٦,٩٧٦ طواشياً ، و ١,٥٥٣ غلاماً من القره غلامية . والمستقر لهم جميعاً من المال ٣,٦٧٠,٦٠٠ دينار ، وذلك خارج عن المحلولين من الأجناد الموسومين بالحوالة على العشر (٣٧)، عن عدة العربان المقطعين بالشرقية والبحيرة ،وعن الكنانيين(٣٨) والمصريين (أي الفاطميين) ؛ والفقهاء والقضاة والصوفيّة ،وعما يجري بالدينار ، ولا يقصر مجموعه عن ألف ألف دينار» .

ويلي هذا المقتطف في كتاب **الخطط** مقطعٌ آخر من **المتجدّدات** يتضمّن تفاصيل الحسابات («استقرار العبرة») في شهر شعبان من السنة الهجريّة ٥٨٥ (تشرين الاول ، ١١٨٩) . فقد بلغ مجمل «العبرات» ٤,٦٥٣,٠١٩ ، منها ما مجموعه ١,١٩٠,٩٢٣ ديناراً جرى تخصيصها للأغراض المعيّنة ، ومن المرجح أنّه تمّ تخصيص الرصيد المتبقّي ، وهو ٣,٤٦٢,٠٩٦ ديناراً ، للجنود النظاميين . وتوزّعت مستقرّات العبرة بالنسبة للأغراض المعيّنة على النحـــو التالي :

الديوان العادلي السعيد	٧٢٨,٢٤٨	ديناراً
الأمراء والأجناد المرسوم بإبقائهم في إقطاعاتهم		
بالأعمال المسجّلة خارج العبرة	١٥٨,٢٠٣	ديناراً
ديوان السور المبارك (سورالقاهرة) والأشراف	١٣,٨٠٤	دنانير

---

٣٧ — « المحلولين من الأجناد الموسومين (إقرأ: المرسومين (lege marsumina) بالحوالة على العشر » .

٣٨ — ترد لفظة « الكاتبين » في نص كتاب الخطط . انظر الحاشية رقم ٢٥ أعلاه . وقدر القاضي الفاضل (في رسالة إلى صلاح الدين) إيرادات الكنانيين من الإقطاعات والرواتب بانها تتجاوز ٢٠٠,٠٠٠ دينار ، أو ربما بلغت ٣٠٠,٠٠٠ دينار . انظر : ابا شامة ، عيون (المتحف البريطاني ١٥٣٧ ، الورقة 146 v) .

العربان	٢٣٤,٢٩٦ ديناراً
الكنانيّة	٢٥,٤١٢
القضاة والشيوخ	٧,٤٠٣
الجند القيماريّة والصالحية والأحفاد المصريين	١٢,٧٢٥
الغزاة والعساقلة المركزة بدمياط وتنيس وغيرهم	١٠,٧٢٥ ديناراً

غير أنّه مما لا يجب افتراضه ان صلاح الدين كان قادراً على استخدام الجيش المصري كلّه في حملاته الشاميّة . فالظروف المحيطة بتوطيد مركزه في مصر ، والحملات البحريّة اللاّحقة التي شنّها الصليبيون ، أقنعته بان الفرنجة لم يتخلّوا أبداً عن الأمل في الاستيلاء على مصر بواسطة هجوم مباغت . ولذا فقد تعذّر عليه توفير النصف من القوات المصريّة العاملة في خدمة حاميات الحراسة بمصر. أما المناسبة الوحيدة التي يبدو فيها ان صلاح الدين قاد نسبة اكبر من الجيش المصري إلى بلاد الشام فكانت إبّان الحملة على الرملة في العام ١١٧٧ (٣٩) ، ومن المرجح أن تكون الكارثة التي أسفرت عنها تلك الحملة عند «تل الجزر» قد أثبتت قراره بعدم المجازفة مرّة ثانية . ويقال ان عدد فرسانه بلغ ٦,٠٠٠ فارس خلال حملته الأولى على بلاد الشام (١١٧٥ — ١١٧٦) ، وعقب احتلال دمشق . لكن بما ان هذا الرقم شمل عسكر دمشق (انظر ادناه) وحرسه الخاص، يمكن تقدير الفرقة المصريّة برقم لا يتجاوز ٤,٠٠٠ (٤٠) . ويذكر عماد الدين بالضبط أن صلاح الدين عندما خرج من مصر ٥٧٧هـ — ١١٨٢ م

---

٣٩ — يمكن استنتاج هذا الأمر من أقوال غليوم الصوري (انظر الحاشية رقم ٢١ أعلاه) . مع العلم بأن أرقامه مبالغ فيها ، على الأقل بالنسبة للقره غلامية . لكن صلاح الدين استطاع الخروج إلى بلاد الشام على رأس قوات جديدة عقب ثلاثة أشهر فقط .

٤٠ — ابن الأثير . الكامل ج ١١ ، ٢٨٤ . ويقول عماد الدين (تلخيص ابي شامة ، ج ١/ ، ٢٤٨) بأن القوات المصرية تألفت من ١٠ مقدمين ، بينهم فروخ شاه وتقي الدين .

«استصحب نصف العسكر وأبقى النصف الآخر لحماية الحدود» (٤١). هذا ما تؤيّده أعداد القوات الإسلاميّة في معركة حطّين ، كما سيتبيّن أدناه . ولقد انطوت هذه السياسة على حسنة إضافيّة كذلك ، حيث ان صلاح الدين كان قادراً بهذه الوسيلة على الاحتفاظ بمدد من الجند المفعم بالنشاط في الميدان وعلى إرجاع الذين انهكتهم المعارك لأخذ قسطهم من الراحة وتجهيز أنفسهم من جديد في مصر (٤٢) .

٢ — الفرق الشاميّة والعراقيّة .

لقد أضاف صلاح الدين إلى النواة المصريّة لقوتّه العسكريّة على نحو تدريجي العساكر النظاميين لدى أمراء الشام وما بين النهرين . وعليه ، فإن المهمّة التالية هي إجراء تقييم لقوّة هذه الأجناد .

دمشق : انشقّت القوات الإقطاعية لجيش نور الدين عقب وفاته فانقسمت بين دمشق وحلب وبعض الإمارات الصغرى (مثل حمص وحماه وحرّان ، الخ). ولا يرد ذكر ، على ما يبدو ، للقوّة الإجماليّة الّتي كان عليها عسكر نور الدين في أي مصدر موجود لدينا ، لكن المرجح على ما يظهر هو ان النسبة الأكبر من عسكره (وربما بلغت الثلثين ، على سبيل التخمين) انضمّت أصلاً إلى الملك الصالح في حلب . أما الذين بقوا في دمشق ، فوُضعوا تحت أمرة قائد نور الدين ، شمس الدين ابن المقدّم ، الذي أقطع بعلبك أيضاً (٤٣) . وخلال العصيان المؤقت الذي أعلنه ابن المُقَدّم ، من جرّاء رغبة توران شاه في الحصول

---

٤١ — ابو شامة ، ج ٢ ، اسفل ٢٧ .

٤٢ — يبدو ان المناسبة الأولى جاءت عام ١١٧٩ . انظر : عماد الدين (تلخيص ابي شامة . ج ٢ ، حاشية ٦ ، ص ٢٨ وحاشية ٨ : ٢٤ .

٤٣ — يقول عماد الدين (في تلخيص أبي شامة ، ج ٢ : ص ٢) عن صلاح الدين ما يلي : «وكان السلطان ... أنعم بها عليه (أي على ابن المقدم) ورد أمورها اليه ، فأقام بها مستقراً ولأخلاف أعمالها مستدراً » .

على بعلبك لنفسه ، قام صلاح الدين بتعيين ابن أخيه فروخ شاه قائداً لعسكر دمشق ، وأوفده مع هذا العسكر لمجابهة القوة المهاجمة للفرنجة بقيادة همفري (هنفري) الطروني في العام ٥٧٤ هـ — ١١٧٨ م . إن رسالة القاضي الفاضل التي تتحدّث عن النصر الذي أحرزه فروخ شاه بهذه المناسبة تذكر على وجه التخصيص بأن حجم عسكره كان «لا يبلغ ألفاً» (٤٤) . وبما أن الجند الخاص لابن المُقَدَّم كان دون ريب يدافع عن قلعة بعلبك حينذاك ، يمكن تقدير مجموع عسكر دمشق بـ ١,٠٠٠ جندي أو ما يربو عن ذلك بقليل .

حمص : عقب حملته الأولى في شمال بلاد الشام (١١٧٥ — ١١٧٦) أقطع صلاح الدين ابن عمه لأبيه نصير الدين محمد بن شيركوه على حمص ، بالإضافه إلى إقطاعة الرحبة التي كان مقطعاً عليها قبل ذلك (٤٥) . ولدى وفاة القاهر محمّد هذا ، في ٥٨١ هـ — ١١٨٦ م ، أبقى صلاح الدين اقطاعه على ولده شيركوه البالغ من العمر إثنتي عشرة سنة ، وعَيَّن أميراً كردياً ، هو الحاجب بدر الدين ابراهيم الهكّاري ، آمراً للحصن (٤٦) . فالمصادر لا تذكر أية أرقام لعدد أجنادهم ، لكن عسكر شيركوه الاكبر ، كما سبقت الإشارة ، بلغ تعداده إبّان توليه إمارة حمص ٥٠٠ رجل ، ويمكن اعتبار هذا الرقم بمثابة الرقم التقريبي .

حماه : كان الحاكم الأول الذي ولاّه صلاح الدين على حماه (١١٧٦)

---

٤٤ — عماد الدين في البرق ، ج ٣ ، الورقة ١١٧ أ : «وهو في عدة من عسكرنا المنصوري لا يبلغ ألفاً » . وترد الإشارة في الرسالة نفسها (الورقة ١١٧ ب) إلى هؤلاء الجند بعبارة «مماليكنا الترك» . كانت التعليمات المعطاة لهم تقضي بتعقب الفرنجة خلسة وابلاغ الخبر الى صلاح الدين، لكي يعمد بدوره إلى حشد الأجناد المحليين لموازرتهم («ونحن نجمع عليهم من الأطراف إلى أجناد الأجناد» .

٤٥ — عماد الدين (تلخيص أبي شامة ، ج ١ : ص ٢٥٠ حاشية) .

٤٦ — المصدر نفسه ، ج ٢ : ٦٩ .

شهاب الدين محمود الهارم (الحارمي)[٤٧] ، وقد خلفه بعد وفاته (٥٧٤ هـ — ١١٧٩ م) ابن أخي صلاح الدين ، تقي الدين عمر[٤٨] . وأشرك مع تقي الدين القائد السابق في دمشق ، ابن المُقدَّم ، كمُقطَع على بعرين وكفرطاب ورعبان[٤٩] ، والمقدّم الكردي المشهور سيف الدين المشطوب . ثم ترتّب على تقي الدين وابن المقدّم ، عقب ذلك فوراً ، ان يزحفا صوب الشمال للدفاع عن رعبان (حصن) ضد سلطان السلاجقة الروم . وتذكر المصادر ان قواتهما المشتركة في هذه الحملة قد بلغ عددها ١,٠٠٠ رجل[٥٠] . وبناء عليه ، يمكن اعتبار هذا الرقم ممثلاً لقوة عسكر حماه بالإضافة إلى القوات التي احتفظ بها قادة القلاع والحصون ضمن إقليم حماه ، ومن جملته شيزر[٥١] .

حلب : إن القسم الأكبر من عسكر نور الدين ، كما سبق ذكره ، انضمّ على الأرجح إلى الملك الصالح ودعمه في الدفاع عن حلب ضد صلاح الدين . غير انه كان يحقّ لصلاح الدين ، بموجب الاتفاق المعقود بينه وبين الملك الصالح عام ١١٧٦ ، في ان يستنفر خدمات عسكر حلب ضد الاعداء الخارجيين ، ولقد خدم هذا العسكر تحت أمرته في العمليّات التي شنّها ضد الأرمن في كيليكية عام ٥٧٦ هـ — ١١٨٠ م[٥٢] . ومما أدّى إلى تخفيض موارد حلب هذا

---

٤٧ — المصدر نفسه (حاشية رقم ٤٥) . توفي هو وابنه تكش ، ابن خال صلاح الدين ، في جمادى الثانية ، عام ٥٧٣ هـ (المصدر نفسه ، ج ١ : ٢٧٥) .

٤٨ — المصدر نفسه ، ج ٢ : ٨ .

٤٩ — المصدر نفسه ، ج ٢ : ٥ ، ٩ .

٥٠ — يتضح ذلك أشد الاتضاح من كتاب البرق ، ج ٣ ، الورقة ١٣٨ أ : «وهما في ألفين»

٥١ — البرق ، ج ٣ ، الورقة ١٢٢ أ : «و صاحب شيزر بعسكره محتاط في موارده ومصادره» . ويضيف عماد الدين : «وأمرهم بالاستكثار من الرجال» والظاهر ان يكون هذا الاستكثار بواسطة تجنيد التركمان ، الذين يشار إليهم في الحملة التالية .

٥٢ — بهاء الدين (طبعة Schultens) ٤٧ . راجع ما يقوله عماد الدين في تلخيص أبي شامة ج ١ : ٢٦١ ، وابن الاثير في الكامل ، ج ١١ : ٢٨٦ .

التخفيض الكبير ، انفصال حماه وغيرها من المناطق الواقعة إلى الجنوب عنها ، بالإضافة إلى مناطق واقعة على الفرات (٥٣) ، حتّى انه ليبدو مستبعداً ان تكون حلب قادرة على القيام بنفقة ما يتعدّى فرقة نور الدين الخاصّة من الحراس النوريّة ، والقوات الصغيرة للأمراء الباقين . لا تتوافر لدينا أية أرقام دقيقة ؛ لكن إذا كانت النوريّة تعدّ أصلاً ١,٠٠٠ فارس (كما يبدو انه كان مألوفاً)، فلا يحتمل ان يكون مجموع قوات حلب النظاميّة قد تجاوز هذا الرقم كثيراً . إن صلاح الدين عقب احتلاله لحلب في سنة ٥٧٩ هـ – ١١٨٣ م ، أعطاها أولاً لابنه الظاهر ، ثم إلى أخيه العادل في السنة نفسها ، وأخيراً إلى الظاهر مرّة أخرى عام ٥٨٢ هـ – ١١٨٦ م ، لكن لا يوجد ثمة دليل على حصول أية زيادة ملحوظة في عدد الجنود النظاميين .

الموصل والجزيرة : يدلي ابن الاثير ، في روايته عن حملة الموصل ضد صلاح الدين عام ٥٧١ هـ – ١١٧٦ م ، ببيان قيّم حول حجم قواتها . فقد كان عسكر الموصل في هذه الحملة مصحوباً بأجناد كل الولايات التابعة ،ومن جملتها حصن كيفا وماردين . ويقول ابن الاثير ، في دحض موجّه لعبارة عماد الدين الّتي جاء فيها ان قواتهم كما ذُكر عنها قد بلغ عددها ٢٠,٠٠٠ محارب، – يقول بأنّها بلغت «على التحقيق» أقــلّ من ٦,٥٠٠ بقليل . ثم يضيف : «فانني وقفت على جريدة العرض وترتيب العسكر للمصاف ميمنة وميسرة وقلباً وجَاليشية وغير ذلك . وكان المتولي ذلك والكاتب له أخي مجد الدين . . . ثم يا ليت شعري كم هي الموصل وأعمالها إلى الفرات حتّى يكون لها وفيها عشرون الف فارس»(٥٤) .

---

٥٣ – تم الاستيلاء على بزاعة عقب الهزيمة الثانية لجيوش الموصل عام ٥٧١ هـ : ١١٧٦ م ، وأقطع عليها عز الدين خوشتارين الكردي (ابن ابي طيء في تلخيص أبي شامة ، ج ١ ٤: ٢٥٦) . وقد لعب خوشتارين هذا دوراً بارزاً في معركة مرج عيون (٥٧٥ هـ : ١١٧٩ م) ، فأسر باليان الأصغر (ابن بارزان) : عماد الدين ، البرق ، ج ٣ ، الورقة ١٢١ أ .

٥٤ – الكامل ، ج ١١ : ٢٨٤ .

خلال حملته الأولى في الجزيرة (٥٧٨ هـ — ١١٨٢ م) ضمن صلاح الدين انتقال السيادة اليه في إمارات حرّان (وصاحبها مظفر الدين كوكبوري ،بالإضافة إلى الرها)، وحصن كيفا وآمد (وصاحبها الارتقي نور الدين بن قره ارسلان)، وسنجار ودارا ونصيبين ، وغيرها من الولايات الصغرى . فانتقلت سنجار في السنة التالية إلى عماد الدين زنكي مقابــل تنازله عن حلب . وفي ٥٨٠ هـ — ١١٨٤ م قبلت اربيل وأعمالها بسيادة صلاح الدين عليها بعد أن كانت مقطعة لزين الدين ، أخي كوكبوري(٥٥) ، ثم رضخت له ماردين وميافارقين أيضاً في العام ٥٨١ هـ — ١١٨٥ م ، فأقطع ديار بكر بكاملها لمملوكه حسام الدين سنُقُر الخلاطي (٥٦) .

ويمكن تقدير العدد الاجمالي لهذه القوات المحليّة الّتي أخذت منذ ذلك الحين فصاعداً تأتمر بأوامر صلاح الدين مباشرة في قرابة ٤,٠٠٠ رجل(٥٧) . بناء على ما تقدّم ، فإن عسكر الموصل الذي خضع لأمرة صلاح الدين بموجب معاهدة ٥٨١ هـ — ١١٨٦ م ، يكون عدده حوالي ٢,٠٠٠ من الجند النظاميين .

هذه الأرقام ، وإن تكن إلى حدّ ما مجرد تقديرات بسيطة ، تثبتها من كافة الجوانب الأرقام الواردة في روايات الحملات الّتي جرت العام ٥٨٣ هـ—

---

٥٥ — يستشهد عماد الدين (تلخيص أبي شامة ، ج ٢ : ٦٠) بمنشور القبول أو شروط الولاية .

٥٦ — عماد الدين (تلخيص أبي شامة ، ج ٢ : ٦٤) .

٥٧ — مما يجوز ذكره ان البيان الذي يورده ابن شداد لايرادات حران في سنة ٦٤٠ هـ/١٢٤٢م (وقد استشهد به كلود كاهن في R.E.I. VIII, III) يشتمل على نفقات مؤن عينية لـ ١,٠٠٠ فارس . لكن بما ان الإيرادات السنوية الاجمالية كانت حوالي مليوني درهم ، فلا بد من كون العسكر أقل من ١,٠٠٠ بكثير — والمرجح ان عددهم قد تراوح بين ٣٠٠ و ٤٠٠ فارس إلى أبعد حد . ويذكر ابن الاثير في الكامل (ج ١١ : ٢٣٢) ان عسكر البيره بلغ عدده ٢٠٠ خيال في سنة ٥٦٥ هـ/ ١١٧٠ م.

١١٨٧ م . ففي شهر مُحرَّم (آذار) ترك صلاح الدين ابنه الأفضل لكي يعمل على تجميع الأجناد الشماليّة عند راس الماء ، وقاد بنفسه حلقة حرسه متجهـــاً صوب الجنوب لشنّ حملة هناك بالاشتراك مع العسكر المصري . وعلى أساس أرقامنا ، تكون هذه القوات التي سار على رأسها قد بلغت ١,٠٠٠ فارس ، يضاف إليـــهم ٤,٠٠٠ من الأجناد الـــذين يؤلّفون نصف الجيش المصري النظـــامي(٥٨) . في تلك الاثناء ، احتشد عند راس الماء فرسان الجزيرة ، والشرقيين (أي : عسكر الموصل) وديار بكر ، بقيادة كوكبوري ، وعسكر حلب تحت امرة دلدرم بن ياروق ، وعسكر دمشق تحت راية صارم الدين قايماز النَّجمي . وخلال غياب صلاح الدين قامت هذه الجيوش مجتمعةً بشنّ غارة تظاهريّة على أراضي طبريا وسحَقَت قوّة من الداوية (الفرسان الهيكليين) عند صفوريّة. إن المصادر الغربيّة تقدّر عدد تلك الجيوش بـ٧,٠٠٠ فارس(٥٩). وأخيراً ، رجع صلاح الدين مع جنده من الجنوب وعرضَ القوّة كلها ، والبالغ عددها ١٢,٠٠٠ رجل من الفرسان ، عند عشترا قبل خروجه في الزحف الذي انتهى به إلى حطّين(٦٠) . يمكن توزيع هذه القوات بناءً على ذلك ، تقريبياً على النحو الآتي : ١,٠٠٠ من الحرس ، ٤,٠٠٠ من العسكر المصري ، ١,٠٠٠ من عسكر دمشق ، و ١,٠٠٠ من عسكر حلب وشمال بلاد الشام (مما يترك هناك ١,٠٠٠ جندي للحراسة) ، و ٥,٠٠٠ من الجزيرة والموصل وديار بـــكر .

---

٥٨ – انظر الفصل الذي يتناول كتاب البرق الشامي من كتابنا هذا .

٥٩ – Ergoul 146 (وفي بعض المخطوطات يرد الرقم ٦,٠٠٠) . **Libellus** ، كما استشهد به لين – بول في كتابه عن صلاح الدين ، ص ٢٠١ حاشية . للإطلاع على تركيب القوة الشرقية المغيرة ، راجع عماد الدين : الفتح ١٤ ، وقارن بابي شامة ، ج ٢ : ٧٥ .

٦٠ – عماد الدين (في تلخيص أبي شامة ، ج ٢ : ٧٦ . راجع ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ : ٣٥٠ .

٣ — القوّات الإضافيّة

اشتملت جيوش صلاح الدين ، بالإضافة إلى العساكر النظاميّة من رماة النبّال الراكبين وحَمَلَة الرماح (الرمّاحة) ، على أعداد متغيّرة من الجند الإضافيين ، من راكبين وراجلين .

التركمان : لقد استخدم نور الدين ، كما سبقت الإشارة إليه ، التركمان الإضافيين على نطاق واسع ، وتابع صلاح الدين هذه الممارسة . وهكذا ، قبل الهجوم النهائي على الحصن الواقع عند « مخاضة الأحزان » (Jacob's Ford) في السنة ٥٧٥ هـ — ١١٧٩ م ، فإنّه «سَيَّر إلى التركمان وقبائلها وإلى البلاد لجمع رجالها ألوفاً مصريّة تفرّقوا في جموعهم وحشودهم وتطلق لهم فوائد وفودهم...» وأمرَ بتوزيع كميّات كبيرة من الدقيق على التركمان ، وتزويدهم في سخاء بكل ما يحتاجونه من الضروريات (٦١) . فالتركمان من قبيلة الياروقي لعبوا ، في الواقع ، دوراً بارزاً في الحرب الصليبيّة الثالثة ، لأن وصولهم في لحظة حرجة وهجماتهم على خطوط تموين القوات الصليبيّة خلف القدس هو الذي أسهم إلى حد كبير في انسحاب ريتشارد (ريكاردوس) .

الأكراد : كانت هناك ، بالطبع ، أعداد كبيرة من الاكراد الذين انخرطوا ، على غرار الأسرة الايوبيّة ذاتها ، كأعضاء في سلك العساكر النظاميّة ،وتسلّموا إقطاعات أو «جامكيّات» مثل المماليك الاتراك . فلم يكن ليعثر عليهم في قوات نور الدين النظاميّة فحسب ، بل وفي قوات غيره من الامراء الزنكيين والأرتقيين

---

٦١ — عماد الدين — البرق ، ج ٣ ، الورقة ١٣٩ ب . وخلال المجاعة في العام الأسبق ، ٥٧٣ هـ : ١١٧٨ م . كتب القاضي الفاضل إلى صلاح الدين ناصحاً إياه بعدم استدعاء العساكر « وحشد جميع الكتائب واستدعاء أمداد الأجناد . وأحسب ان هذا القول يعني : « وحشد جنود الفرسان التركان ، واستدعاء التعزيزات من القوات المحلية » .

أيضاً(٦٢) . إلاّ أنه كان يوجد ، بجانب هؤلاء ، عددٌ وفير من الجنود الأكراد المغامرين والمرتزقة ، وعلى الأخصّ ، وهذا ما يجوز افتراضه بحقّ ، في خدمة الامراء الايوبيّين . إن وجودهم في مصر تشهد عليه مقاطعٌ عديدة (٦٣) ، ويشير عماد الدين إلى رجال القبائل الأكـــراد في جيش نور الدين الارتقي صاحب حصن كيفا(٦٤) . وخلال حصار الموصل الثاني ، في العام ٥٨١ هـ — ١١٨٥ م ، قام صلاح الدين بإرسال سيف الدين المشطوب وغيره من امرائه الأكراد إلى كردستان لاحتلال الحصون والقلاع هناك(٦٥) ، ومن المفترض ايضاً، للقيام بدور عملاء التجنيد من أجل عمليّاته المرتقبة في بلاد الشام . غير ان العداء الطويل الأمد والشامل الذي نشب بين الأكراد والتركمان في ديـــار بكر وما بين النهرين عند اواخر السنة نفسها(٦٦) وضع حدّاً ، على وجـــه التأكيد تقريباً ، لأيّة آمال معقودة على تدبير جنود اكراد من هذه الأقاليم .

العرب : اشتملت القوات النظاميّة أيضاً على عدد من الخيّالة العرب ، وأبرزهم في مصادرنا بنو منقذ أصحاب شيزر (٦٧) . ويرد ذكر القبائل البدويّة في الشام ومصر تكراراً ، وإن لم يكن هذا الذكر إطرائيّاً دوماً فكما سبق

٦٢ — بهاء الدين (طبعة شولتنز) ، ٢٢٩ و ٢٣٠ .

٦٣ — انظر الحاشيتين رقم ١٦ و ٣٥ أعلاه .

٦٤ — البرق ، ج ٥ ، الورقة ١٤ أ : « ومن جنوده قبائل الكرد » ، ثم يضيف : «والأكراد اكدار الورد» ، مما يوحي بعدم انضباطهم . ومن المرجح انهم استؤجروا بالطريقة نفسها التي استؤجر بها رجال التركمان .

٦٥ — عماد الدين (في تلخيص أبي شامة ، ج ٢ : ٦٢) .

٦٦ — « مخايل السوري » ترجمة شابو ، III ٤٠٠ — ٢ وبهاء الدين : ٦٣ وابن الأثير ، ج ١١ : ٣٤٢ .

٦٧ — لعب إثنان من ابناء هذه الأسرة ، وهما شمس الدولة المبارك بن كامل وأخوه حطان (كذا في مخطوطة البرق) دوراً بارزاً في صفوف الجنود الايوبيين باليمن : ابو شامة ، ج ١ : ٢٦٠ و ج ٢ : ٢٥—٢٦ . انظر ايضاً الحاشية ٥١ أعلاه .

الحديث عنه ، كان رجال القبائل مُقطعين على مناطق معيّنة من الشرقيّة والبحيرة ، وانخرط ١٫٣٠٠ رجل من بني جُذام في صفوف الجيش . لكن صلاح الدين أمر ، في العام ٥٧٧ هـ — ١١٨١ م ، بمصادرة أراضيهم في الشرقيّة. وأمرهم بالانتقال إلى البحيرة ، بسبب تهريبهم المدمن للحبوب إلى الفرنجة (٦٨). وبعد ثلاث سنوات تطلّب الأمر ارسال جيش إلى البحيرة لإخماد الاضطرابات بين رجال قبيلة بني جذام(٦٩). أما رجال القبائل في جنوب فلسطين وشرقي الاردن فكانوا مصدر ازعاج دائم . وقام صلاح الدين بحملته على الكرك سنة ٥٦٨ هـ — ١١٧٣ م لتطهيرهم من المنطقة والحيلولة دون مساعدتهم للفرنجة بالعمل كادلاّء لهم (٧٠) ، حتى انهم نهبوا بقايا عسكره وامتعتهم (٧١) في اعقاب هزيمته عند تل الجزر (أرض الرملة) . إلاّ أن الفضل يُذكر لبدو الشام في انهم زوّدوا صلاح الدين بقوات إضافيّة للإغارة على العدو ، وقد استخدمها بشكل فعّال في عدّة مناسبات ، أبرزها عمليّات سنة ٥٧٤ هـ — ١١٧٩ م . وكان «يسيّر قبائل العرب إلى بلد صيدا وبيروت حتى يحصدغلاّت العدو ، وما يبرح مكانه (في بانياس) حتى يعودوا بجمالهم وأحمالهم موثقة

---

٦٨ — المقريزي ، السلوك ج ١ ، ٧١ . ويبدو من ملاحظة أخرى في المصدر نفسه ، ص ٧٤ انه كان لهم اسطول للقرصنة في بحيرة المنزلة ، وقد حاول صلاح الدين القضاء عليه لكنه لم ينجح في ذلك .

٦٩ — المصدر نفسه ، ٨٧ .

٧٠ — عماد الدين (في تلخيص أبي شامة ، ج ١ ، ٢٠٦ . ويؤكد على ذلك غليوم الصوري (XX. 28 (tr. ii, 390) . ورد في التعليمات الصادره إلى والي دمشق (البرق ، ج ٥ : الورقة ٤٧ ب) أمر يقول : « ومن يترك من العرب في بلد الفرنج فله إنهاض العسكر إليه وشن الغارة عليه حتى ينتظموا في سلك الطاعة رغبة ورهبة .

٧١ — غليوم الصوري (XXi. 24 (tr. ii, 433) . وفي البرق (ج ٣ ، الورقة ٧٠ أ) يستشهد عماد الدين أيضاً بملاحظة حادة أبداها القاضي الفاضل ، حيث قال : « العرب كالحنظل كلما زيد سقياً بالماء الحلو أفرطت مرارة ثمرته وغرت نضارة خضرته » .

بأثقالها (٧٢) . وفي اثناء الحروب النهائيّة مع ريكاردوس على طريق القدس أسهم العرب بتقديمهم الخيّالة وعساكر للإغارة» (٧٣) .

الأجناد : يجري استخدام هذه اللفظة في المصادر على معاني ثلاثة . فهي تستخدم بصيغة الجمع من «جندي» للدلالة على أي جنود ، ومنهم الفرسان في القوات النظاميّة . وتستعمل في صيغة اسم الجمع للدلالة على القوات العسكريّة كلّها في منطقة ما (وكل من هاتين الصيغتين في استخدامها قد جاءت بطبيعة الحال ملائمة لأسلوب النثر المسجّع الذي اعتمده القاضي الفاضل وعماد الدين . غير أنه توجد هناك آثار لاستعمال أقدم وأكثر تخصيصاً في الدلالة على القوات المحليّة أو قوات المليشيا ، التي تميّزت عن العساكر في انها لم تكن من رماة النبال الراكبين ، بل قاتلت بالرمح والسيف (٧٤) . ومن المحتمل ، مع مجيء هذا الوقت ، أن تكون تنظيمات المليشيا القديمة في بلاد الشام قد أخذت في

---

٧٢ – عماد الدين (في تلخيص ابي شامة ، ج ٢ : ٨) (البرق ، ج ٣ ، الورقة ١٢٤ أ) ؛ وراجع غليوم الصوري ، المصدر السابق (xxi.28 ; tr. ii, 440, 441) . كان والي دمشق « محكم في جميع قبائل العرب وعشائرهم ... وهو يتولاهم ويجريهم على معتادهم في رسمهم ومعيشتهم وعدادهم (في المخطوطة : وإعدادهم وجباية الرسوم المعتادة منهم) . راجع كاترمير وبشأن « أعداد » : ج ١ من « السلاطين المماليك » ، القسم الأول ، ص ١٨٩) ؛ البرق ، ج ٥ ، الورقة ٤٧ أ ب .

٧٣ – بهاء الدين ، ٢١٥ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ . وفي الفقرة الثانية يجري تمييزهم على نحو ذي مغزى بأنهم « عرب الإسلام » .

٧٤ – انظر ذيل تاريخ دمشق ، المقدمة ، ص ٣٦ – ٣٧ ، والحاشية رقم ٦١ أعلاه . ويستخدم المقريزي (السلوك ، ج ١ : ٦٩) اللفظة بهذا المعنى ايضاً في صيغته للفقرة الأولى المذكورة في هذه الحاشية : « كتب إلى التركمان وأجناد البلاد » ، حيث تحل « أجناد » محل لفظة « راجل » التي يستعملها عماد الدين . وكذلك في رواية المحاولة الثانية لاغتيال صلاح الدين ، خلال حصار أعزاز عام ٥٧١ هـ : ١١٧٦ م ، فان الحشيشة تخفوا « في زي الأجناد (والكاتب ليس في موقع السجع هنا) أي انهم تسللوا بين صفوف الجنود الإضافيين ⇐

الزوال ، نتيجة الاستخدام المتزايد للعساكر الأتراك ومن جراء قمع الإمارات المحليّة(٧٥) . وحل محلهم بصفة كونهم من الجنود الإضافيّين في جيش صلاح الدين المتطوعون (المطّوعيّة) الذين توافدوا من كل مكان للمشاركة في الجهاد. فمن النادر ان ترد إشارة خاصة لهم في روايات الأخبار ، لكن عماد الدين يسجّل حضورهم في المعارك عند «مخاضة الأحزان» في العام ٥٧٥ هـ — ١١٧٩ م ويقول بان «بعض الغزاة المطوعيّة في الجهاد» كانوا هم الذين قاموا باشعال النار في العشب اليابس يوم معركة حطّين (٧٦) .

المشاة (الراجلون) : استثنت الحركة السريعة لحملات الخيّالة استخدام جنود المشاة في المجرى العادي للقتال ، ولا يأتي ذكر هؤلاء في المصادر إلاّ مقروناً بعمليّات الحصار ، سواء كمدافعين أو مهاجمين(٧٧) . ففي الحالة الأخيرة

⇐
(المقاتلة) الذين كانوا يديرون آلات الحصار (عماد الدين في تلخيص ابي شامة ، ج ١ : ٢٥٨ حاشية ٤ . ويقول ابن ابي طيء ، المصدر نفسه ، ١ : ٢١ ، « جاؤوا بزي الأجناد ودخلوا بين المقاتلة ») . فمن غير المرجح جداً انهم انتحلوا شخصية العساكر . وبطريقة مماثلة، يوجد في رواية ابن ابي طيء لحملة قراقوش على برقة (تلخيص أبي شامة ، ج ١ : منتصف ص ٢٦٠) تمييز بين « أجناد » تقي الدين و « مماليكه » . فالأجناد هم على الأرجح من الأكراد والعرب .

٧٥ — حتى فترة متأخرة تعود إلى حصار عكا كانت تصحب الكتائب القادمة من حمص وشيزر « جموع من الأجناد والأعيان وحشود من العرب والتركمان » : عماد الدين ، الفتح ، ٢٤١ : ٢ — ٣ .

٧٦ — ابو شامة ، ج ٢ : ١١ (وفي كتاب البزق ، ج ٣ ، الورقة ١٤٣ ب) : «الغزاة وصفحة ٧٦ : « بدو مطوعية المجاهدين » .

٧٧ — كان مشاة (رجالة) حلب يشتهرون خاصة «كزارعي ألغام » (نقابين) . انظر الحاشية رقم ٦ أعلاه . واستخدم ريكاردوس « نقابين » من حلب في حصار الدارون : بهاء الدين ٢٢٧ . وفي المنشور الذي اقطع العادل على حلب عام ١١٨٣ (البرق ، ج ٥ ، الورقة ١٢٤ أ — ١٢٦ ب) ، طلب إليه تقديم عدد محدد من المشاة (الراجلين) ، وفي العام ١١٨٧ ، كان عسكر حلب مصحوبين في الواقع بجنود للحصار (الفتح ٧٥) . كما يأتي كتاب الفتح ٤١٣ ، على ذكر كتيبة من الجساسين جاءت من الموصل .

يجري تصنيفهم كصُنَّاع ، أو تقنيين . وهناك ثلاث طوائف منهم يرد ذكرها ذكرها مراراً : «الحجّارين» ، وهم الذين أشغلوا المنجنيقات والعرّادات . و «النقّابين» الذين نقبوا الحفر تحت الاسوار ، و «الخراسانيّة» ، الذين قاتلوا في «الدبابات»(٧٨) . وإلى جانب هؤلاء يرد ذكر «الجاندريّة» (٧٩) ، الذين يبدو عليهم من دلالة القرينة ، انهم كانوا من المولجين بعمليّات الحصار .

٤ ــ الأعتدة والمؤن (٨٠)

كان الجيش النظامي ، كما لاحظنا أعلاه ، منتظماً في أطلاب عديدة (طُلبخانات) يتراوح عدد أفراد كل طُلب منها بين ٧٠ و ٢٠٠ رجل تحت قيادة أمير . وقبل الخروج في الحملة كان يجري توزيع الدروع والأسلحة المخزونة في «الزردخانة» على الجنود . ويُعطى لهم عطاء خاص ٌ لانفاقه في أمور الحملة . وأخذ معه كل أمير وجندي كميّات من المؤن والعَلَف (العليق) ، إمّا كجزء من عطائه العيني من الحبوب أو مشتراة على حسابه الخاص . أما المؤن الإضافيّة فقد تمّ ابتياعها من التجّار («السابلة») الذين مارسوا البيع والشراء عند قاعدة العمليّات أو لحقوا بالحملة . ويحدّثنا عماد الدين انه عندما وصل الجيش إلى «السدير» إبان الحملة على الرملة سنة ٥٧٣ هـ ــ ١١٧٧ م ، نودي في المعسكر بأن على جميع الجند ان يتزوّدوا بمؤونة تكفيهم لعشرة أيام أخرى

---

٧٨ ــ البرق ، ج ٣ ، الورقة ١٤٢ أ : « جمع عليه الصناع النقابين والحجارين وجاء لخراسانية وراء الجفاتي جارين ولإثقالها جارين . وهناك روايات اكثر شمولا لعمليات الحصار في آمد (البرق ، ج ٥ ، الورقة ٥٤ أ ــ ٤٤ أ ، وفي صور (الفتح ، ٧٥) .

٧٩ ــ البرق ، ج ٣ ، الورقة ١٤٣ أ : « حضر الجاندرية والصناع » . وعلى نحو مماثل ، عندما قام صلاح الدين بمهاجمة طبريا قبل معركة حطين ، فانه أرسل في طلب « الجاندرية والنقابين والخراسانية والحجارين » : عماد الدين في تلخيص أبي شامة ، ج ٢ : ٧٦ .

٨٠ ــ للإطلاع على وصف كامل لاسلحة الدروع ومدفعية الحصار زمن صلاح الدين ، أنظر ما يلي :
C. Cahen, « Un Traité d'armurerie composé pour Saladin ». in **Bull. d'Etudes Orientales**, T. XII (Beirut, 1948). pp. 108 – 163

«زيادة للاستظهار ولإعواز ذلك عند توسط ديار الكفّار» . ثم يتابع قائلاً : «فركبت إلى سوق العسكر للابتياع ، وقد أخذ السعر في الارتفاع . فقلت لغلامي : قد بدا لي ، وقد خطر الرجوع من الخطر ببالي . فأعرض للبيع أحمالي وأثقالي ، وانتهز فرصة هذا السعر الغالي»(٨١) . وعندما كان صلاح الدين منهمكاً في حصاره الأول للموصل ، عام ٥٧٨ هـ - ١١٨٢ م ، قام الجند في سنجار بقطع السبيل «ومنعوا السابلة من جلب الميرة في الكثير والقليل»(٨٢). ويحدّثنا غليوم الصوري في روايته لحصار الكرك الثاني ، عام ٥٨٠ هـ - ١١٨٤ م فيقول بأن « الذين قاموا بدور الطهاة والخبّازين في جيش العدو ، والذين زوّدوا السوق بكافة انواع السلع . . . تابعوا عملهم بحريّة وسط تسهيلات من كل الوجوه»(٨٣) .

خلال الحملة الفعليّة لم يتمكّن الفرسان من التحرّك بعيداً عن «أثقالهم» ، التي ما كانت تضم ميرتهم فحسب بل دروعهم ايضاً . فالدروع لم تلبس إلاّ متى كان هناك احتمال فوري لنشوب القتال . ومن هنا جاء العائق في أن يؤخذ العسكر على حين بغتة ، اي ما مؤدّاه بالفعل ان يُفاجأ وهو غير مسلّح (أعزل)(٨٤) . لقد جرى القيام من حين إلى آخر بحملات قصيرة و «جريدة»

---

٨١ - ابو شامة ، ج ١ : ٢٧١ ، وهو مختصر عن البرق ، ج ٣ ، الورقة ٨ ب .

٨٢ - البرق ، ج ٥ ، ٢٣ ب . تدعى قافلة العلف والمؤن في رسالة القاضي الفاضل ب « أطلاب المسيرة » (ذكرها ابو شامة ، ج ٢ : ٢٨ - ٩) ، وقد كانت تسير تحت أمرة أحد الامراء من ذوي الرتب العالية . راجع ايضاً ابن جبير : (G.M.S., V) p. 299

٨٣ - XXii. 30 (trans., ii, 503)

٨٤ - في رسالة من رسائل القاضي الفاضل تعزى (« كسرة ») هزيمة صلاح الدين عند تل الجزر (الرملة) عام ١١٧٧ بصورة رئيسية إلى تشتت الجند : « وخلو من الأسلحة التي احتاجت في لباسها إلى لحاق أثقالها » (البرق ، ج ٣ : ١٧ أ) .

أي بدون أثقال، ولذا كانت بدون دروع واسلحة ثقيلة للفرسان . وتطلق لفظة «جريدة» ذاتها على القوات الخفيفة أسلحتها في معسكرت الشتاء(٨٥).

* * *

٨٥ – ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ٣٢٢ ، حاشية ٧ . من الامثلة على استخدامها بالمعنى الأول : الحملة على بيروت في ٥٧٨ ﻫ/١١٨٢ م (عماد الدين ، في تلخيص أبي شامة ، ج ٢ : ٢٩ ، ج ١ : ٢٥ . الزحف على الكرك في سنة ٥٨٣ ﻫ / ١١٨٧ م (ابن الأثير الكامل ، ج ١١ ، ٣٤٩ (والترجمة الموجودة في Receuil, Hist. Or. I, 678 هي غير صحيحة) قارن ايضاً مع معجم دوزي **Supplément aux dictionnaires arabes,** s.v.

الفصل السابع

مآثر صلاح الدين*

تتجه النزعة الحديثة لدى الدارسين ، في جهودهم الرامية للنفاذ إلى ما وراء الظواهر الخارجيّة من تاريخ شخص ترتكز شهرته على بعض الانجازات العسكريّة ، نحو القيام بتحليل لمركّب الظروف التي اكتنفت أعمال ذلك الشخص ، مع الإيحاء الصريح أحياناً بأن الفرد هو صنيعة الظروف وليس بالأحرى صانعها ، أو على نحو اكثر إنصافاً ، بان إنجازات هذا الفرد يجب تفسيرها في ضوء التكيّف المنسجم من جانب عبقريته مع الظروف التي أحاطت بأعمال هذه العبقريّة . ولا حاجة إلى الجدال في صحّة هذا الأمر بوجه عام . لكن التاريخ ، ولا سيما تاريخ الشرق الأدنى ، يحفل بالملوك الفاتحين الذين لا يبدو انهم مدينون لظروفهم بشيء سوى امتلاكهم لجيش قوي والضعف الذي كان عليه أخصامهم . فالسؤال الذي تطرحه حياة صلاح الدين العمليّة هو فيما إذا كان مجرّد واحد من اولئك الفاتحين . أم ان سيرته قد انطوت على عناصر مناقبيّة مميّزة ، مما أضفى بدوره صفة فريدة على انتصاره الأوليّ وصراعه اللاحق مع الحملة الصليبيّة الثالثة . ولا يكفي انه حارب ضد الصليبيين في سبيل

---

* Gibb, H.A.R., « The Achievement of Saladin», **Bulletin of the John Rylands Library**, 35, no. 1 (Manchester, 1952), pp. 44–60

نصرة الإسلام للإجابة بالإيجاب على الشق الثاني من السؤال . لا بل ربما كان هذا الأمر غير وثيق الصلة بالموضوع . ولنضع المسألة بصورة دقيقة ، فنتساءل : هل كان صلاح الدين واحداً من اولئك القادة العديمي الضمير . إنما من المحظوظين . الذين كان باعثهم المحرّك لهم هو الطموح الشخصي وشهوة الفتح . وجلّ ما فعلوه انهم استغلّوا الشعارات والعواطف الدينيّة لتحقيق مآربهم الخاصّة ؟

فالمشكلة ، إذن . هي مشكلة تنطوي على إطلاق حكم في مسائل داخليّة تتعلّق بالشخصيّة والدوافع . ومن النادر حقّاً أن نجد بتصرّفنا في تاريخ القرون الوسطى موادّاً موثّقة بحيث يمكننا ان نستخلص منها نتائج إيجابيّة بشأن الدوافع التي حرّكت أعلام التاريخ البارزين . وان تصمد هذه النتائج أمام النقد التاريخي الصارم . لذا يلزمنا . قبل الدخول في مجال البحث إطلاقاً . التأكّد من ان بعض مصادرنا . على الأقل . هي من النوع الذي يتيح إمكانية التوصل إلى جواب . وفيما يتعلّق بحياة صلاح الدين ومنجزاته ، نحن نمتلك ، لحسن الحظّ ، خمسة مصادر عربيّة معاصرة . منها ما هو كامل أو جزئي ، إلى جانب الإشارات العابرة التي وردت في كتابات الرحالة وغيرهم . ثمة مصدر واحد فقط . من بين هذه المصادر الخمسة ، لم تصلنا منه سوى الشذرات والنتف . هذا المصدر هو تاريخ ابن ابي طيء ، وبصفة كون مؤلّفه شيعياً من حلب ، فالمرء يتوقّع ان يجده معادياً لصلاح الدين (مثلما كان على عداء واضح لسلفه نور الدين) ، لكن الأقوال المقتبسة من أعماله في كتب غيره من المؤرّخين تظهره على ميل إطرائي بالأحرى نحو صلاح الدين .

والمصادر التاريخيّة الثلاثة الأخرى وضعها كلّها مؤلفون مشرقيّون ، ليس بينهم واحد من الشاميين . وأشهر هؤلاء المؤلفين هو ابن الأثير المؤرخ الموصلي ، وسليل أسرة إقطاعية كانت على صلات وثيقة بأمراء الموصل (الاتابكة) من آل

زنكي ، وقد وضع في تخليدهم كتابه المعروف بتاريخ اتابكة الموصل («التاريخ الباهر في الدولة الاتابكيّة») . إن تصويره لصلاح الدين يعكس بشيء من الاعتدال عداءَ أنصار الزنكيين له في بداية الأمر ، ثم ما قابلوه به لاحقاً من إعجاب متكلّف وولاء تشوبه الضغينة . وفيما عدا هذا الموقف السيكولوجي : لا يشكّل كتاب ابن الأثير مصدراً مباشراً . لقد استقى كل رواياته المتعلّقة بصلاح الدين ، أو معظمها تقريباً ، من مؤلّفات عماد الدين الأصفهاني ، كاتب صلاح الدين ، وأعاد كتابتها بتحريف بعضها أحياناً أو بمزجها في أحيان أخرى بشيء من تصوّراته الخياليّة (١) . إلاّ أنه من الجليّ ، بغضّ النظر عن موقفه الشخصي بأنه لا يمكن الاعتماد على جامع ومصنّف للأحداث التاريخيّة ، حتّى ولو كان معاصراً ، في حلّ المسائل المتعلّقة بالشخصيّة والدوافع الداخليّة. فلو لم يتوفّر لدينا شيء باستثناء المصنّفات التاريخيّة لكلّ من ابن ابي طيء وابن الأثير ، لما توفرت لدينا أيـــة وسائل لاستكشاف الصفة الحقيقيّة لمنجزات صلاح الدين .

وتضاهي هذين المصدرين من حيث الشهرة سيرة حياة صلاح الدين التي وضعها قاضي عسكره ، بهاء الدين بن شدّاد ، وهو من الموصل أيضاً . فقد أصبح بهاء الدين منذ سنة ١١٨٨ فصاعداً هو المؤتمن على أسرار صلاح الدين وصديقه الحميم . وتاريخه المكتوب بأسلوب سهل وصريح يصوّر لنا صلاح الدين في شخصيّته كإنسان تصويراً يعجز عن بلوغه أي مصنّف عادي للتاريخ. ربما جاز لنا اعتبار بهاء الدين غير ممحّص للأخبار والروايات ، لكنّه لم يؤخذ بعبادة الأبطال . بل كان إعجابه بصلاح الدين هو إعجاب الصديق المستقيم

---

١ — انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب ، وحيث ترد الإشارة إلى دراسة المؤلف « المصادر العربية عن حياة صلاح الدين » ، والمنشورة أصلا في مجلة
Speculum, XXV, no. i, pp. 58 – 72 (Cambridge, Mass., 1950).

والنزيه الذي لا يُكْتَم عنه شيء . ومما لا ريب فيه انه لم يتعمّد إخفاء الحقيقة أو تحريفها في روايته لأخبار السنوات الخمس الأخيرة من حياة صلاح الدين . ومن الأمور النادرة حقاً ، أن يتوفر وجود مثل هذا المصدر عن تاريخ أي أمير من أمراء القرون الوسطى . بيد ان الصورة التي يقدّمها لنا ابن شدّاد هي صورة صلاح الدين في ذروة نجاحه وفي غمرة الصراع المستميت ضد الحملة الصليبيّة الثالثة . ولذا فإن سيرة صلاح الدين لابن شداد تزوّدنا باليسير من الأدلّة المباشرة على الكفاح الطويل الشاق الذي خاضه صلاح الدين لكي يشيد صرح سلطانه .

ومن حسن الحظّ الذي لا يُصدَّق إزاء هذه الظروف ، ان يكون مصدرنا الرابع على درجة مماثلة تقريباً من الجدارة بالاعتماد والقبول ومن معاينة الأحداث عن كثب ، فهو يتناول (في نصّه الأصلي أو في مختصرات يمكن التعويل عليها) مجمل حياة صلاح الدين العمليّة . هذا المصدر هو مؤلّفات الكاتب عماد الدين الأصفهاني . فقد انتمى عماد الدين إلى تلك الطبقة الجديدة نسبياً من موظفي الخدمة المدنيّة الذين تدرّبوا في المدارس ، ودخل أول الأمر في خدمة السلاطين السلاجقة والخلفاء في بغداد ، ثم ارتفع إلى رتبة عالية بدمشق في خدمة نور الدين ، وأصبح أخيراً كاتب صلاح الدين الشخصيّ في سنة ١١٧٥ . لقد وضع عماد الدين ، بالإضافة إلى المجلّد الذي دوّن فيه تاريخ الحملات بين عامي ١١٨٧ — ١١٨٨ وأخبار الحملة الصليبيّة الثالثة (٢) ، مؤلّفاً كبيراً يقع في سبع مجلّدات بعنوان «البرق الشامي» ، وتناول فيه تلك الفترة من حياته العمليّة في خدمة نور الدين وصلاح الدين على التوالي . ولم يصل إلينا من هذا المؤلّف سوى مجلّدين بالأصل ، لكن ابا شامة الدمشقي (توفي ١٢٦٧) لخصّ الكتاب كلّه بعناية وافية .

---

٢ – **Conquête de la Syrie et de la Palestine,** ed. Carlo de Landberg (Leyden, 1888).

ولم يستخدم مؤرخو الحروب الصليبية هذا النص إلا لماماً حتى الآن

كان عماد الدين واحداً من أشهر كتّاب عصره ، وقد اعتمد في تأليف كتبه أسلوب النثر المسجّع على تنميق وزخرفة ، وهو الأسلوب الذي اعتنت به طائفة الكُتّاب . على ان رواياته الواقعيّة للأحداث ، رغم كلّ اهتمامه في إظهار براعته اللفظيّة ، تأتي وافية على الدوام وحافلة بالدقّة والصراحة . فلا تلوح عليه أية دلائل بأنّه يحرّف الوقائع ، سواء كان التحريف لتغطية ضعفه أو لستر ضعف الآخرين أو من أجل التقيّد بمستلزمات السجع ، ولا بأنّه يغرق في المديح ، لكنّه في كتاباته ينتقد أفعال الرجل وأحكامه أحياناً ، ويبدو حقّاً انه قد انتقد صلاح الدين بحضوره الشخصيّ . كان على أطيب ما تكون الصلات مع رئيسه الرسمي في الديوان الصلاحي ، القاضي الفاضل ، ومن الواضح انه شديد الإحساس بمؤهّلاته وبالأمانة الملقاة على عاتقه ، فابتعد عن الزلفى ولم يلجأ إلى كتمان الحقيقة . ويجوز لنا القول إن كتابه «البرق الشامي» هو تقريباً سيرة ذاتيّة للمؤلِّف بقدر ما هو تاريخ لصلاح الدين . وتتجلّى أهميّة هذا الكتاب في أنه يقدّم لنا صلاح الدين من زاوية رجل إداري مدرّب ، وعلى صلة وثيقة ويوميّة بالرجل ، وإن كانت تقلّ حميميّة عن علاقة بهاء الدين به.

أما المصدر الخامس بين مصادرنا ، فإنه من بعض الوجوه اكبرها قيمة .وهو يتضمّن المكاتبات والرسائل التي أنشأها كاتب الديوان الصلاحي ومشير صلاح الدين الذي تبوّأ المنزلة العليا من موضع ثقته ، القاضي الفاضل الفلسطيني . ولقد وصلتنا بعض آثار القاضي الفاضل كاملةً أو بصورة مقتبسات في مؤلفات عماد الدين وابي شامة ، وفي مجموعات مختلفة من الوثائق . ويمكن للمرء ان يحسّ بالمودّة الحميمة التي سادت علاقات الرجلين من خلال الرسائل المخلصة والوديّة التي وجهها القاضي الفاضل إلى صلاح الدين ، ولا سيّما في أثناء الحرب الصليبيّة الثالثة ، على سبيل شدّ أزره في الملمّات أو لتقديم النصح والملامة في بعض المناسبات . وإذا كان على المؤرّخ التزام كل ما يقتضيه الأمر من الحذر في معالجة الرسائل الديوانيّة العامّة التي أرسلها القاضي الفاضل بالأصالة

عن صلاح الدين إلى الخلفاء وغيرهم من الرؤساء ، فإن المتانة التي يعبّر بها القاضي الفاضل عن بعض الأفكار والموضوعات في تلك الرسائل يجب اعتبارها بأنها تعكس شيئاً ، على الأقل ، من أهداف صلاح الدين ومثله الحقيقيّة .

تقوم شهرة صلاح الدين ، كما أسلفنا القول ، على إنجازه العسكري الذي تبدّى في معركة حطين سنة ١١٨٧ وفي استيلائه على القدس مجدّداً بعد ذلك . وعليه ، فإن كتّاب التاريخ ، المسلمين منهم والمسيحيين ، يعتبرونه في المقام الأول قائداً ، وفي المقام الثاني مؤسساً لأسرة حاكمة . إنه لمن الطبيعي ان تكون النظرة الأولى هي نظرة المصادر الغربيّة عن الحملة الصليبيّة الثالثة ، وممّا يشجعها في هذا الموقف تصوير ابن الاثير لصلاح الدين بمثابة رجل استخدم مواهبه العسكريّة لإشباع مطامح أسرته الحاكمة وبناء امبراطوريّة شاسعة الأطراف .

ومن هذه الزاوية ذاتها تجري مقارنته أو مقابلته مع سلفه نور الدين . غير اننا ، لسوء الحظ ، لا نملك عن شخصيّة نور الدين شيئاً من المواد يضاهي ما نملكه منها لدراسة صلاح الدين ، حتى نتمكّن من تقدير شخصيّة السلف . وذلك لأن جميع المدونات الإسلاميّة المعاصرة (باستثناء النوادر العابرة) هي مصنّفات تاريخيّة تعكس في نغمتها الإطرائيّة السائدة موقف الأوساط السنيّة من خدمات نور الدين ، ليس في تنظيم الدفاع عن بلاد الشام ضد الصليبيين فحسب ، بل وفي (وربّما فاقت الخدمات الأولى) نشر مذهب السنّة أيضاً بما أسسه الرجل من معاهد دينيّة (كالجوامع والمدارس ومحاريب الصلاةوالرباطات الصوفيّة) (٣) وما حبسه عليها من أوقاف ، وبما فعله لقمع الشيعة والتشيّع . حتى أن مصنّفات التاريخ المتأخرة ، باستثناء المقتطفات التي وصلتنا منمؤلّفات

٣ – انظر N. Elisséeff, « Le Monuments de Nur ad-Din » in **Bulletin d'Etudes Orientales**, t. xiii (Damascus, 1951), pp. 5 – 43

الكاتب الشيعي الحلبي ابن ابي طيء ، تفوقها في الثناء على نور الدين . لكن عندما تتفق أحكام مؤلّف مسيحي مثل غليوم الصوري مع موقف أهل السنّة ، يمكننا ان نكون على يقين بان تلك المؤلّفات تعكس صورة أمينة لحياة نور الدين العامّة. وهو افتراض لامسوّغ له ، إزاء ما يطالعنا من شواهد ، ان نعتبر هذه الإجراءات بقدر ما تحقّقت عن طريقها مصالح نور الدين السياسيّة ، لم يكن الباعث عليها تعلّق نور الدين الذاتي المخلص بما فيها من أهداف ومثل عليا .

الاّ أنه توجد هناك بعض الفروق الأساسيّة بين الظروف التي قام فيها كلٌّ من نور الدين وصلاح الدين بتنفيذ مهمّته . فقد عمل نور الدين «من داخل» بنية السياسة في عصره . ومنذ تفكك السلطنة السلجوقية عند نهاية القرن الحادي عشر ، تمّ اقتسام آسيا الغربيّة بين عدد من الأسر الحاكمة المحليّة ، وهي أسر أسسها جميعاً (باستثناء بضع إمارات نائية) قادة من الأتراك أو زعماء من التركمان، وتميّزت كلها بمظهرين مشتركين . كان المظهر الأول هو روح المنفعة الشخصيّة والتوسّع الفردي،وهي الروح التي حدّدت افعال تلك الأسر وعلاقاتها السياسيّة . ويكاد يكون من المتعذّر علينا — كما يبدو — ان نكتشف في العلاقات بين الأمراء الأتراك أو بين زعماء التركمان الواحد منهم مع الآخر — حتى عندما كان المتنازعان من ابناء الأسرة الواحدة — أي احساس بالولاء أو أي ضبط للنفس في استغلال الواحد منهم لضعف الآخر ، ناهيك بذلك التضامن الذي تجلّى ، مثلاً ، لدى الإخوة البويهيين في بلاد فارس خلال القرن العاشر . فلا توجد نهاية لقصص المؤامرات والثورات والمحالفات السريعة الزوال وضروب الخيانة والغدر المتعمد والخلع عن العروش . وفي هذا المناخ العام من الانهيار الخلقي السياسي تعذّر حتى على أشد الأمراء صلابة واكثرهم تجرّداً من المبادىء الخلقيّة — سواء كانوا ينتمون إلى آل زنكي أو تكش — ان يبقى ثابت القدمين .

أما المظهر الثاني فهو التركيب الذي تألّفت منه قواتهم العسكرية . لقد كان

الأساس الذي استندت إليه قوّة كل أمير من الأمراء هو فرقة دائمة من الحرس أو عسكر من المماليك الأتراك ، وتألّفت الفرقة أو العسكر من عبيد أتراك تمّ شراؤهم في سنوات صباهم وجرى تدريبهم كفرسان محترفين ، ثم أعتقوا في حينه وأعيلوا بمنحهم إقطاعات عسكريّة ، فاستقوا من هذه الاقطاعات عائداتهم النقديّة والعينيّة . وألقي عبء القيام بالحروب المتواصلة بين الأمارات والدويلات على عاتق هؤلاء الجنود المحترفين الذين منحوا ولاءهم الشخصيّ الشديد لقائدهم المباشر ، ولذا كانوا يسيرون في ركاب تمرّده أو يبدّلون ولاءهم كلّما بدّل القائد ولاءه غير عابئين كثيراً بمصالح أميرهم . ولما كانوا من الجيوش المحترفة ، فقد جاءت نفقاتهم باهظة ، وكانت أعدادهم بالتالي صغيرة . ومن أحد الأسباب القابعة وراء جهود الأمراء المتواصلة للاستيلاء على أراضي جيرانهم ، كان تطلّعهم على وجه الضبط للحصول على وسيلة يزيدون بها حجم قواتهم . علاوة على ذلك ، فإن تلك القوات لم تكن تستطيع المضيّ في حملاتها الحربيّة أطول من فترة معيّنة في كل مرّة ، وهي إذا استطاعت ذلك لم تكن راغبة فيه . فمن جهة ، لم يكن الأمير قادراً على تحمّل نسبة عالية من التبديد في النفقات ، ومن جهة أخرى ، كان الشغل الشاغل للعساكر انفسهم هو العودة إلى اقطاعاتهم للتمتّع بعوائدها فور انتهاء مدّتهم في خدمة الحملة (وتسمّي هذه المدّة «البيكار» في المصادر العربيّة) (٤) . أما عساكر التركمان ، فانهم اختلفوا قليلاً عن الآخرين رغم كونهم من العساكر البدويّة غير النظاميّة . لقد كانوا هم ايضاً يخرجون في الحملة لفترة محدودة من الزمن فحسب ، لكن هذه الفترة

---

٤ – إن هذا الاجراء لم تمله الاعتبارات الشخصية وحدها ، بل أملته أسباب اقتصادية سليمة . فقد كان على عساكر القوات النظامية « ان يمولوا انفسهم وتابعيهم خلال الحرب بالميرة والعلوفة من مالهم فاذا طالت الحرب كلفتهم مصروفاً كبيراً بل وتحملوا الدين (راجع عماد الدين في تلخيص ابي شامة ج ١ : ٢٧١ والفتح : ٣٩٢–٣ ، وبهاء الدين (طبعة شولتنز) : ٢٠٠، ٢٢١ .

امتدّت بهم طالما انهم كانوا قادرين على العيش من السلب أو ما داموا يتلقّون المال والمؤن مقابل خدماتهم (٥).

كان نور الدين ابن عسكري تركي محترف ، ولذا فإنه لم يتفهّم هذاالنظام فحسب ، بل كان هو نفسه يؤلّف جزءاً منه ، ولو افترضنا انه كان يهدف إلى خلق سلطة عسكريّة مركزيّة لها من القوّة ما يكفي لمعالجة أمر الصليبيين ،وليس بالأحرى إلى تعظيم شأنه هو شخصيّاً ، فإننا نجد مع هذا أن أعماله العسكريّة والسياسيّة جاءت منسجمة كل الانسجام تقريباً مع النهج المُتَبَّع في ذلك العصر (حتّى وإن كانت أعماله قد جاءت على مستوى أخلاقي أرفع) . ثم نجد من جهة أخرى بأن منافسيه وتابعيه قبلوا به كممثّل طبيعي للنظام السائد حينذاك ، بفضل صلاته العائليّة ، واحترموه بسبب النجاح الذي أحرزه في تشغيل ذلك النظام ، بصفة كونه رجلاً ديبلوماسيّاً وقائداً للجيوش على السواء . حتّى ان حملته في سبيل ما تجوز لنا تسميته «إعادة التسلّح الخلقي» ، وذلك بمنح الزعماء والإحيائيين الدينيين كل تأييد من جانبه ، لم تكن الحملة الأولى من نوعها ابداً . والحق يقال إن نور الدين أقام سياسته الخاصّة على أساس ما كان قد تمّ تحقيقه بهــذه الطريقة في امبراطورية السلاجقة ونسج على منواله. وجلّ ما يمكن ان يُعزى له هو انه كان اكثر نزاهة وأعمق إخلاصاً من بعض أسلافه في تبنّيه لتلك السياسة ذاتهـــا .

وقصارى القول ، فقد أظهر نور الدين ، بصفة كونه قائداً وإدارياً على السواء ، بصيرة ومقدرة ارتفعتا عن المستوى المألوف في زمانه ، إنما دون ان يتعارض ذلك مع النظام القائم . وليس هناك من أدنى ريب في انه لو طالت حياته أكثر ، وجرى رأب الصدع المؤقت بينه وبين صلاح الدين ، لكان الهجوم

---

٥ – انظر ابن الأثير (طبعة تورنبرغ) ، ج ١٠ : ٤٠٠ وعماد الدين ، البرق ، ٣ ، الورقة ١٣٩ ب .

المضاد على الصليبيين قد جاء على نحوٍ أسرع وأشدّ عنفاً في اندفاعه مما جاء عليه في واقع الأمر . إن حقيقة هذا الجفاء بينه وبين صلاح الدين لا يمكن إنكارها، لكن اسباب ذلك تتضح بصورة كافية لكل من يقوم بدراسة المصادر دون الوقوع تحت تأثير التحامل الذي تحدثه تفسيرات ابن الأثير الخبيثة . ولم يكن فتح مصر يعني لدى نور الدين سوى زيادة مباشرة وجوهريّة في الموارد العسكريّة والماليّة من أجل مواصلة الحرب في بلاد الشام . أما صلاح الدين فقد شعر ، إزاء مواجهته لوضع خطير في مصر ، بأن مسؤوليته الأولى هي تعزيز القوات المحليّة لكي تقوم بحماية مصر ضد خطر التواطؤ بين العناصر المؤيدة للفاطميين في الداخل وهجمات الفرنجة من الخارج . وكان محتملاً ، عقب فشل الحملة الصقليّة على الاسكندرية سنة ١١٧٤ م ، ان يستقرّ الوضع العام في مصر إلى درجة تكفي لإعادة التفاهم التام بين نور الدين وصلاح الدين ، لكن نور الدين كان قد توفي حتى قبل وصول الحملة .

كانت النتيجة الفورية لوفاة نور الدين أن السلطة العسكريّة المركزيّة التي رفع صرحها تهاوت إلى أجزاء مبعثرة ، بمقتضى السير العادي للنظام العسكري السياسي . فاستولى أقاربه في الموصل على ولايات الجزيرة ، وانشقّت قواته الشاميّة تحت وطأة المنافسات بين القوّاد المحيطين بابنه القاصر ، الملك الصالح . وكان لا بدّ من الشروع في تنفيذ المهمة كلها من جديد، وعلى أساس مختلف كل الاختلاف . وبما انه لم يكن ثمة أمل هناك في العثور على خلف شرعي لنور الدين بين أبناء البيت الزنكي ، فإن كل محاولة لأحياء البنيان الذي أوجده نور الدين ، من أية ناحية جاءت ، لا بدّ لها من البدء في التصدي للإمارات الزنكيّة القائمة . واذا كان لزعيم تلك المحاولة ، شرط كونه من الطراز المطلوب ، ان يأمل في نهاية الأمر بكسب تأييد حركة «إعادة التسلّح الخلقي» ، فمن المؤكّد انه كان سيواجه معارضة من ممثلي تلك الحركة في المرحلة الابتدائيّة ، بدافع شعورهم بالإخلاص لذكرى نور الدين .

وعليه ، ما دامت هذه الظروف والملابسات قد جعلت المهمّة في إعـادة إنشاء سلطة عسكريّة مركزيّة ببلاد الشام مهمّة مختلفة عن المهمّة التي واجهت نور الدين وأصعب منها في بعض الوجوه ، فلا بدّ ان تختلف أساليب وصفات الرجل الذي يقوم بأعباء تلك المهمّة عن أساليب نور الدين وصفاته . كان جائزاً ألاّ تتحقّق المهمّة على الإطلاق . ولكن إذا لم يكن بدٌّ من إنجازها ، فلم يوجد هناك ، بقدر ما نستطيع ان نحكم على ذلك ، إلاّ اعتماد واحد من اسلوبين : الأسلوب الأول كان يشير إلى استيعاب البنيان الزنكي كلّه في امبراطوريّـة عسكريّة قويّة من الخارج (كأن نقول مثلاً ، : سلطنة سلجوقيّة موسّعة في بلاد الأناضول ، أو امبراطورية جديدة في الشرق . فكلاهما كان أمراً ممكناً في ذلك الحين) . والأسلوب الثاني كان في البناء على أسس الوحدة الأخلاقيّة التي أرساها نور الدين ، وتقوية تلك الأسس إلى درجة بالغة بحيث تؤدّي إلى إرغام البنيان الزنكي على العمل في خدمة أهداف تلك الوحدة . كانت طريق صلاح الدين ، من زاوية المظاهر الخارجيّة المحضة ، هو اعتماد الأسلوب الأول . ويعود سرّ نجاحه في الواقع إلى انه كان قد تبنّى الاسلوب الثاني وقام على تنفيذه . وتطلّب هذا الأمر ، على وجه اليقين ، بناء امبراطوريّة شاسعة الأطراف تمتد من كردستان وديار بكر إلى بلاد النوبة واليمن . لأن من أراد بلوغ مثل هذه الغاية كان عليه ان يوجد الوسائل لها ، ولم تكن الظروف التي اكتنفت مهمّته وزمانه لتتطلّب شيئاً أقلّ من هذا . لكن مكانة صلاح الدين ومناقبه الشخصيّة ، والروح التي تصدّى بها لمهمّته ، والأساليب التي استخدمها كانت تختلف كل الاختلاف عمّا امتلكه مؤسّسو الامبراطوريات العسكريّة العظمى ، وعما أظهروه من مكانة ومناقب وأساليب .

ولنبدأ في القول أولاً ، بان صلاح الدين لم يكن تركياً بل كردياً . فإذا كان الاتراك قد احتقروا جميع الأجناس الإسلاميّة الأخرى ، بسبب ذلك الشعور بالاستعلاء الذي غرسته في نفوسهم تقاليدهم العسكريّة وبسبب احتكار امرائهم

احتكاراً يكاد يكون كاملاً للسلطة السياسيّة في المشرق الإسلامي ، فإن اتراك الموصل وشمالي بلاد الشام نظروا نظرة احتقار شديد إلى جيرانهم الأكراد(٦) . ولما زحفت عساكر الموصل ضد صلاح الدين للمرّة الأولى سنة ١١٧٥ م ، فإنهم أهانوه وهزأوا به ودعوه بـ «كلب يعوي على سيّده»(٧) . ثم بعد سبعة عشر عاماً ، يروى عن أحد العرفاء في جيش الموصل انه لمّا رأى صلاح الدين يلقى مساعدة في ركوب حصانه اثناء الدفاع عن القدس ، قال ما يلي : «ما تبالي يا يا ابن أيوب أي موتة تموت يُركبك ملك سلجوقي وابن اتابك زنكي !»(٨) فالفارق في اللّهجة بين المذمّتين قد يمثّل على نحو كاف تماماً مدى وحدود التغيّر في الموقف منه بين صفوف الذين كانوا أشد وعياً لعنصرهم والذين أظهروا مقاومة أشد للمثل العليا التي كافح من أجلها .

ثانياً ، مع ان صلاح الدين ووالده وعمّه وإخوته كانوا جميعاً منخرطين في سلك قوات نور الدين الإقطاعيّة ، فهو لم يكن من المبرّزين كقائد عسكري أو بمثابة مخطّط استراتيجي على الاطلاق . وقد يبدو هذا الأمر على تناقض ظاهري في حال الرجل الذي خرج منتصراً من حطّين . لكن صلاح الدين كان تكتيكياً جيّداً . وبواسطة الحركات التكتيكيّة البارعة أحرز انتصاره في حطّين ، مثلما انتصر مرّتين في السابق على جيوش الموصل ، فكانت هذه الانتصارات الثلاثة هي معاركه الوحيدة في ميدان المعركة . وأروع عملياته العسكريّة كان استيلاؤه على قلعة آمد (ديار بكر) التي اشتهرت بمناعة حصونها ، في سنة ١١٨٣ م ، وبعد حصار استغرق ثلاثة أسابيع فقط ، وهو حدثٌ أغفلته كتب

---

٦ — يتجلى هذا بصورة حية وإسهاب نموذجي حتى عند عماد الدين الذي يخصص اكثر من صفحة الحط من قدر المناقب غير العسكرية التي كان يتحلى بها الأكراد في الجيوش الارتقية ، مقابل فضائل عسكر صلاح الدين واتزانهم : البرق ، ج ٥ ، الورقة ٥٧ ب وما بعدها .

٧ — هذا إذا صدقنا ما يقوله مخايل الشامي ، تحرير وترجمة شابو ، ٣ : ٣٦٥ .

٨ — ابن الأثير ، ج ١٢ : ٥٠ .

التاريخ الغربيّة بوجه عام . ومما يسترعي الانتباه تكرّر المناسبات التي أعرب فيها أمراء جيوشه عن عدم ثقتهم في قيادته ، ايس بدون مبرّر دائماً ، حتى وإن كانت معارضتهم لتكتيكه وخططه الحربيّة قد أضاعت عليهم فرصاً سانحة للغاية أحياناً خلال الحرب الصليبيّة الثالثة .

ولا كان صلاح الدين إدارياً بارعاً . فالبادي عليه انه لم يول اهتمامه الشخصي للتفاصيل الإداريّة إلاّ قليلاً ودون أن يتعدّى ذلك محاولة القضاء على المفاسد . وقد استند في إدارة الأماكن التابعة له أيّما استناد إلى أخيه العادل سيف الدين ورئيس ديوانه القاضي الفاضل . أما إدارة الولايات فقد عهد بها كلياً إلى الولاة واشترط عليهم أمرين : ان يتّبعوا قدوته في القضاء على المفاسد ، وان يمدّوه بالعساكر (وبالمال إذا دعت الحاجة) من أجل الجهاد ، عندما يطلب إليهم ذلك .

إن الشهادات المستقلّة والمتفقة التي تمدّنا بها وثائق ثلاث وصلتنا من أقرب المقربين إليه ، وهم القاضي الفاضل وعماد الدين وبهاء الدين ، تزوّدنا بتفسير حقيقي للنجاح الذي أحرزه. فهو بالذات لم يكن محارباً ولا حاكماً بفضل التدريب أو الميل ، لكنّه هو نفسه الذي ألهم جميع العناصر والقوى التي استهدفت وحدة الإسلام في وجه الغزاة وقام بجمعها حوله . ولم يحقّق هذا الأمر عن طريق القدوة التي تجلّت في شجاعته وعزمه الذاتيين — وهما من سجاياه التي لا سبيل إلى نكرانها — بقدر ما حقّقه من خلال نكرانه للذات وتواضعه وكرمه ،ودفاعه المعنوي عن الإسلام ضد أعدائه وضدّ من ينتمون إليه في الظاهر فحسب ، على حد سواء . ولم يكن صلاح الدين رجلاً ساذجاً ، لكنّه ، مع ذلك ، كان غاية في البساطة ورجلاً نزيهاً للدرجة الشفافيّة . لقد أوقع أعداءه ، الداخليين والخارجيين ، في حيرة من أمره ، لأنهم توقّعوا ان يجدوا الحوافز التي تحرّكه على غرار حوافزهم ، وتوسّموا فيه ان يمارس اللعبة السياسيّة على طريقتهم

هم . كان بريئاً كل البراءة ، فلم يكن يتوقّع ابداً ان يفهم المكر عند الآخرين. وقلّما فهمه ــ وهذا ضعف استغلّه في بعض الأحيان أفراد أسرته وغيرهم ، لا لشيء (كقاعدة عامّة) إلاّ لكي يصطدموا في نهاية الأمر بصخرة إخلاصه الموطّد العزم على خدمة مثله العليا ، وهو إخلاص لم يتهيأ لأحد من الناس أو لشيء من الأشياء أن يزعزعه من مكانه .

وفي رأيي ، إن الطبيعة الحقيقيّة لتلك المثل العايا لم تحظَ حتى اليوم بتفهّم وتقدير من جانب الدارسين . فالمهمّة العاجلة التي وجد نفسه مدعواً لحمل عبئها كانت في طرد الفرنجة من فلسطين وبلاد الشام . هذا هو الجانب الذي أدركه معاصروه ، وافترضت الأجيال اللاّحقة بأنّه كان كل غرضه . ومن الطبيعي، حين يقوم أحد الناس بانجاز عمل عظيم ، ان نحسب ذلك بمثابة الهدف الـــذي وضعه نصب عينيه . فالواقع ان ما ينجزه الإنسان من أعمال ليس في غالب الأحيان سوى جزء ممّا عقد العزم على إنجازه في البداية . ولعله لم ينجح في تحقيق ما يحقّقه إلاّ لأنه وضع نصب عينيه هدفاً أبعد منالاً مما انجزه بكثير .

يصدق هذا ، في رأيي ، على صلاح الدين بصورة بارزة . فـــإن مخطّطه الأوسع لم يكن إلاّ مخطّط رجل يتّصف بطموح لا يعرف حدوداً أو ببساطة غير محدودة . ولقد اتصف صلاح الدين ، من أحد الوجوه ، بهذين الأمرين، لكن طموحه نشأ عن بساطة خلقه وسداد نظره . فقد رأى بوضوح ان ضعف الجسم السياسي الإسلامي ، وهو الضعف الذي أفسح المجال لقيام الدويلات الصليبيّة واستمرّ في إفساحه أمام بقائها ، كان نتيجة للانحطاط في الخلق السياسي. وعلى هذا الانحطاط ثار صلاح الدين . فلم تكن هناك سوى طريقة واحدة لوضع حدّ له : وهي إعادة الكيان السياسي الإسلامي إلى سابق عهده وإحياء هـــذا الكيان في ظلّ امبراطوريّة واحدة موحّدة ، ليس تحت حكمه هو ، وإنما بعودة الحكم إلى كنف الشريعة تحت إشراف الخلافة العبّاسية . فالنظرية القائلة بأن الخليفة يولي الولاة على الأقاليم بمنشور صادر عنه ، رأى فيها الأمراء الآخرون

حينذاك زيفاً ملائماً لغرضهم ، أما صلاح الدين فقد اعتبرها حقيقة إيجابيّة وضرورية . واعتبر نفسه مجرّد قائد لجيوش العباسيين ومساعد للقائد ، مثلما انه أصبح لفترة وجيزة في السابق وزيراً للخلفاء الفاطميين وقائداً لجيوشهم . أما انه دُعي «سلطاناً» فهذا كان مجرّد لقب ورثه حين عمل وزيراً للفاطميين ، ولا علاقة لهذا اللقب بنظرية السلطنة السلجوقيّة أو بادعاءاتها ، مثلما انه لم يظهر أبداً في عهدته أو على مسكوكاته النقديّة . ويروي عماد الدين حادثة وقعت خلال حصار عكا ، ولهذه الحادثة دلالة خاصّة لأنها إحدى المناسبات التي يوجّه فيها العماد الكاتب لوماً إلى صلاح الدين على بساطته (٩) . فقد وافق صلاح الدين ، بناء على طلب رسول من دار الخلافة ، ان يحوّل منطقة شهرزور في كردستان إلى ملكيّة الخليفة . وعندما رأى علائم الغضب والحنق على وجوه امرائه بسبب قرار موافقته هذا ، أجاب قائلاً : «السلطان الخليفة ملك الخليقة ، وهو مالك الحق والحقيقة ، فإن وصل إلينا أعطيناه هذه البلاد فكيف شهرزور؟»

بيد ان الحجّة لا تستند إلى حادثة عابرة من هذا النوع ، مهما يكن مبلغها من الصدق . فالهدف الذي نتحدّث عنه يؤلّف الموضوع الصريح لكثير من رسائله إلى بغداد . وقد قال في إحدى الرسائل : «وهذه المقاصد الثلاثة : الجهاد في سبيل الله ، والكفّ عن مظالم عباد الله ، والطاعة لخليفة الله ، هي مراد الخادم من البلاد إذا فتحها ومغنمه من الدنيا إذا منها والله العالم ... (انه) لا يريد الاّ هذه الأمور التي قد توسم انها تلزم ولا ينوي الاّ هذه النيّة» (١٠) . كما يتبدّى هذا مرّة أخرى في انذهاله لعجز الخليفة ورجاله ببغداد عن فهم دوافعه وعن مدّه بالدعم المعنوي على الأقلّ . فجاء في رسالة ثانية : «وإلا فلينظر هل يشقّ على الكفار مزيد أحد سواه من ولاة الإسلام ؟» (١١). ويبدو هذا الهدف

---

٩ – الفتح القسي (طبعة لا ندبرغ) : ٢١٨ – ٢١٩ .
١٠ – عن ابي شامة ، ج ٢ : ٤٨ ، عقب احتلال آمد .
١١ – عن ابي شامة ، ج ٢ : ٤١ ، بعد فتح آمد .

في التدقيق الذي يتوسّل به الخليفة لكي يمنحه « منشور الولاية » على البلدان الجديدة قبل أن يمارس أعماله فيها ، كما يبدو في احتجاجاته على ادعاءات آل زنكي بأن الجزيرة لهم «إرثاً» لعدم وجود تقليد بالولاية ، وفي استنكاره لاستيلاء الزنكيين على حلب(١٢) . وأخيراً ، يبدو هذا الهدف في عزوه الاستيلاء على آمد بسرعة إلى نفوذ الخليفة وسلطته (١٣) ، مثلما يبدو في رسالته الصريحة إلى كلج ارسلان سلطان الاناضول عام ١١٧٨ م ، إذ يقول فيها : «وهيهات ان نترك المسلمين يقصد بعضهم بعضاً أو نرى أحداً منهم إلاّ في سبيل الله ودّاً أو بغضاً . . . وقد توفر اجتهادنا على ان نستميل كلا إلى الجهاد ونجمع شملهم على الاتفاق والاتحاد» (١٤) .

وخضعت مثاليته ، في الوقت ذاته ، لنير حسٍّ عمليّ قوي . فالوضوح الذي كان يقدّر به كل خطوة من خطواته صوب غايته وكلّ حالة لدى نشوئها ، هذا الوضوح يمدّنا بمفتاح السرّ لتوسّع سلطانه المستمرّ . ولما كان يعرف ان المشكلة التي واجهها لم تكن سياسية فحسب ، بل هي أيضاً ، وإلى حدّ اكبر ، مشكلة أخلاقيّة ونفسيّة ، وان التصدّي لها على مجرّد المستوى السياسي والعسكري من شأنه ان يؤدّي إلى الإخفاق في حلّها ، فقد ادرك صلاح الدين انه إذا شاء الحصول على نتائج فعّالة ، فمن الجوهري ان يعزّز الولاء السياسي بحوافز وروادع اخلاقيّة ونفسيّة . إن الصعوبة التي اكتنفت هذه المهمّة — وحتّى

---

١٢ — انظر ابا شامة ، ج ٢ : ٢٤ ، ٣١ . ويمكن الادعاء بحق ان مثل هذه الفقرات تقابلها فقرات مماثلة في المكاتبات المتكلفة التي تداولها الأمراء الآخرون مع دار الخلافة . لكن اعتبارها نفاقاً على غرار رسائل الأمراء لا يتفق إطلاقاً مع كل ما نعرفه عن خلق صلاح الدين . وإذا كان جل ما عنته لديه لا يعدو كونه مجرد تلاعب بالألفاظ ، فما الذي حدا به إلى متابعة ارسال هذا السيل من التوسلات والاعتراضات إلى بغداد ؟

١٣ — أبو شامة ، ج ٢ : ٤٠ — ٤١ .

١٤ — البرق ، ج ٣ ، الورقة ١٢٣ أ .

اليأس الظاهر منها – في الظروف السائدة يومذاك هي أمر واضح ، لكن صلاح الدين وجد طرقاً لمجابهتها ، مما أثار غالباً الحيرة أو الدهشة في نفوس أصدقائه ومستشاريه .

كان المبدأ الاول الذي سار عليه في التعامل مع الامراء ، سواء كانوا من الاصدقاء أم الأعداء ، هو الصدق في قوله والوفاء المطلق به . حتى مع الصليبيين كانت الهدنة تعني له هدنة . ولا يحوي سجلّه حالةً نَقَض فيها العهد معهم ، أما الذين نقضوا العهود معه فلم يصفح عنهم ، وهذا ما تعلّمه أرناط (رجينالد أوف شاتيّون) والداوية بمثابة درس لاحق . أما تجاه منافسيه المسلمين ، فإنه قرن الاخلاص بالكرم . ففي أعقاب اتفاقه مع الملك الصالح سنة ١١٧٦ م (وحادثة استرداد أعزاز المشهورة) ترك حلب وحدها إلى أن توفي الصالح ، مع انه كان يحمل منشوراً من الخليفة بتقليده ولايتها (١٥) . وقام بضرب الحصار حول آمد لأنه كان قد وعد بها الأمير الارتقي صاحب حصن كيفا ثمناً لمحالفته ، وبعد ان استولى عليها ترك لحليفه كل كنوزها الهائلة على حالها – وذلك تصرّف انطوى على الوفاء بوعد قطعه على نفسه ، فلم يسبق له مثيل حتى انه كان مثاراً للدهشة (١٦) .

إلاّ أنه كان على صلاح الدين من أجل تحقيق هدفه ، ان يعزّز قوة أفعاله وقدرته بخلق تيار خلقي ونفسيّ يعمل لصالحه ويكون قوياً إلى درجة تتعذّر معها مقاومته . ولهذا الغرض احتاج إلى حلفاء ، ولا سيما بين الطبقة النافذة من «فقهاء المدارس» الذين كانوا قادة الرأي العام . كان هذا الأمر من أشد

---

١٥ – ابو شامة ، ج ٢ : ٣٤ .

١٦ – كان تصرفه من هذه الناحية متماسكاً ، ومخيفاً لأعدائه إلى درجة كان من الضروري عندها أن يصار إلى افتعال حادثة تعادلها ، وقد سجل هذا في حينه ابن الأثير (فأظهر قدراً كبيراً من عدم التحيز) : الكامل ، ج ١١ : ٣٤١ .
راجع الفصل الثالث من كتابنا هذا .

الصعوبات التي واجهها خطورة ، لأن هؤلاء الفقهاء — كما سبق ذكره — كانوا يمثلون على وجه الضبط تلك القطاعات التي عبأها نور الدين لتأييده . وبما ان صلاح الدين ظهر في أول الأمر كمغتصب جاء يتحدى ورثاء نور الدين ، فإن اولئك الفقهاء ومعهم أهالي بلاد الشام بوجه عام عارضوه في البداية ، أو على الأقل اتخذوا منه موقفاً متحفظاً . ولا تقدم لنا المصادر العربية سوى إشارة ضئيلة إلى التحول التدريجي الذي طرأ على موقفهم ، لكن التواريخ وروايات المعاصرين (١٧) تحفل بالشواهد الواضحة في دلالتها على انه استطاع بصدقه واخلاصه ان يفوز في نهاية الأمر باحترامهم واعجابهم . إن رعايته للمتصوفة ، وهي رعاية نسج فيها ايضاً على منوال نور الدين ، كانت على الأرجح ذات أهمية خاصة من أجل نشاطه «التبشيري» — لو جاز لنا هذا التعبير — بين أهالي بلاد الشام . إلا ان أشد الأمور فعالية في اجتذاب الأهالي بوجه عام ، كان من المرجح صادراً عن إصراره على إزالة الرسوم والاعباء الجائرة في كافة البلاد الخاضعة لحكمه وسيادته ، حتى وإن لم يكن من المؤكد أبداً بأن مرؤوسيه كانوا دوماً يبادرون على الفور إلى تنفيذ تعليماته في هذا الصدد . ومما يسترعي الانتباه ، أخيراً ، ان الشيعة المشاغبين في حلب وشمالي الشام ، والذين ظلوا على معاداتهم لنور الدين ، لم يمتنعوا عن إقلاق راحة صلاح الدين فحسب (بعد محاولات الحشاشين الباكرة لاغتياله) بل ساعدوه بشكل إيجابي خلال فتحه البلاد لاسترجاعها(١٨) .

ويقدم لنا عماد الدين الكاتب مثالاً لافتاً للنظر على هذه الناحية من ديبلوماسية

---

١٧ — انظر ابن جبير ، الرحلة ، ص ٢٩٧ — ٢٩٨ ، عبد اللطيف البغدادي في ابن ابي اصيبعة ، عيون الانباء ، ج ٢ : ٢٠٦ (كلاهما قد ترجم في R.H.C.or., iii: 435 sqq.

١٨ — **C. Cahen, La Syrie du Nord à l'époque des Croisades** (Paris, 1940). pp. 428 – 429

صلاح الدين)(١٩) ، وذلك عندما حاول اتابك الموصل الزنكي ومستشاروه ان يستغلّوا ولاء صلاح الدين لدار الخلافة بان طلبوا إلى ديوان الخليفة إرسال شيخ شيوخ بغداد للتوسط مع صلاح الدين سنة ١١٨٤ : «لعلمهم انّا لا نرى إلاّ الاعتماد بالطاعة للأمر المطاع» . ومع ان سلوك رسول الموصل جعل أمر التسوية أشبه بالمستحيل ، فان صلاح الدين أسلم أمره في النهاية دون تحفّظ لمشيئة شيخ الشيوخ . فما كان من رسول الموصل حتّى صدّه مرّة أخرى عندما راح يهدّد علناً بإقامة تحالف بين الموصل وبين عدو الخليفة طغرل الثاني ، سلطان فارس السلجوقي . ويضيف عماد الدين بان هذا هو ما جعل صلاح الدين يوطّد العزم على معالجة النزاع مع الموصل بحزم ، بعد ان كان متلكئاً قبل ذلك في متابعته . وممّا يؤكّد على خلو رواية عماد الدين من المبالغة هو ان تصرّف صلاح الدين في تلك المناسبة كان بداية صداقته للقاضي بهاء الدين ، الذي جاء ايضاً في حاشية رسول الموصل . وبهاء الدين يؤيد في روايته للحادثة النقاط الرئيسية فيما ورد على لسان عماد الدين(٢٠) .

كان اتساع امبراطورية صلاح الدين في آسيا بين عامي ١١٨٢ و ١١٨٦ عائداً في الواقع إلى تأثير هذه العوامل اكثر منه إلى العمل العسكري (فيما عدا الاستيلاء على آمد (وربما حتّى بالنسبة إلى آمد كذلك) . وكانت حملاته على أبواب الموصل وحلب أقرب إلى التظاهرات منها إلى الحصار . فقد عمد صغار أمراء الجزيرة من تلقاء انفسهم إلى وضع انفسهم تحت حمايته ، لثقتهم من خلق الرجل . وبعد أن قام قادة عسكر نور الدين في حلب بحركات لا تكاد تتجاوز التظاهر بالمعركة(٢١) ، توافدوا عليه بمجموعهم لتقديم أصدق الخدمات

١٩ — البرق ، ج ٥ ، الورقة ١٢٩ وما بعدها .
٢٠ — طبعة شولتنز ، ص ٥٧ .
٢١ — عماد الدين ، البرق ، ج ٥ ، الورقة ٨٩ ب وما بعدها (ابوشامة ، ج ٢ : ٤٣ — ٤٤) .

وأشدّهـا إخلاصاً . وحتى في الموصل ، كما يقول ابن الأثـير في روايتـه للأحداث(٢٢) ، فإن صلاح الدين وجد المؤيدين هناك بين امراء الجيش ، وهؤلاء الأمراء هم الذين أرغموا الاتابك الزنكي في نهاية الأمر على الخضوع والتسليم عام ١١٨٦ م . وربما كان علينا ألاّ نبالغ في تقدير مدى التأثير الذي مارسه الفقهاء على العساكر ، لكن مصادرنا تحوي أمثلة عدّة من تدخّلهم الحاسم ، وعلى وجه التأكيد ، فإنهم شكّلوا عاملاً مساعداً . وأبرز الأمثلة كلها هي قضيّة شاه أرمن خلاط القوي ، فقد كان هذا من أشد خصوم صلاح الدين عناداً ، ولكنّه قبل انتهاء الحرب الصليبيّة الثالثة مباشرة قدّم لصلاح الدين ولاءه وعساكره طائعاً مختارا (٢٣) .

ومن المعلوم جيداً ، إلى أي حدّ أسهمت شهرة صلاح الدين ، بالإخلاص المطلق لكلمته وبالكرم ، في استرجاع فلسطين وبلاد الشام الداخليّة خـلال السنة ونصف السنة التي أعقبت معركة حطّين . فـلو ان الضرورة دعت إلى الاستيلاء على كل قلعة وبلدة محصّنة بواسطة حصار منتظم، لما كان اكثر من عُشرها قد سقط قبل استهلال الحرب الصليبيّة الثالثة ، ولكان بالتالي تاريخ تلك الحرب مختلفاً كل الاختلاف لو أن الصليبيين قد حصلوا على الدعم مـن حاميات عسكريّة تعمل وراء جيوش صلاح الدين ، في المؤخرة .

إن متانة البنيان الذي شيّده صلاح الدين كان مقدّراً لها ان تتعرّض لامتحان قاس إلى أقصى حدّ على يد الحملة الصليبيّة الثالثة . فقد تكشفّت هذه الحملة عن نوع من النزاع لم يسبق له أبداً توقّعه ولا أعدّ له العدّة قبل وقوعه . وبدلاً من متابعة المضيّ في تحقيق حلمه النبيل ، وإن كان حلماً مثاليّاً ، في

---

٢٢ – طبعة تورنبرغ ، ج ١١ : ٣٣٨ ، ٣٤٠ . راجع ايضاً الحادث الهام الذي جرى مع حامية حارم (اقتبسه غروسيه ، ٢ : ٧٢٠) .

٢٣ – بهاء الدين ، ٢٦٠ .

إعادة حكم الشريعة داخل العالم الإسلامي ، انهمك في صراع من أشدالصراعات مرارة وإيلاماً في واقعه . ولكن بما انه قد سعى لتحقيق حلمه بواسطة إنكار الذات والعدل والإخلاص ، فإنّه استطاع الاضطلاع بأعباء المملكة الملقاة على عاتقه والّتي لم يسبق لها مثيل بسبب هذه الأسس الأخلاقيّة وحدها دون سواها. فخلال قرون طويلة لم يسبق لأمير من أمراء المسلمين أن جابه مشكلة الإبقاء على جيش في الميدان بصورة متواصلة لمدّة ثلاث سنوات وضدّ عدو نشيط ومغامر . والنظام الإقطاعي العسكري كان غير ملائم تماماً لمثل هذه الحملات والحرب ، حتى ولو أمكن إنشاء نظام محدود لتبادل الخدمة العسكريّة(البَدَل) بين الفرق المصريّة وفرق ما بين النهرين .

لقد كشف النزاع عن مواطن الضعف الماديّة وحتى الأخلاقيّة منهـا في امبراطورية صلاح الدين واحدة تلو الأخرى ، وهي الّتي ظلّت مخفيّة خلال حقبة النصر . ولم يسبق لصلاح الدين ان اكترث بالمال أو اهتمّ بإدارة ايراداته إدارة حكيمة . «فقد انفق المولى مال مصر في فتح الشام ، وأنفق مـال الشام في فتـح الجزيرة وأنفق مال الجميع في فتـح الساحل» (٢٤) ، ثم وجد نفسه الآن بلا موارد كافية لسد تكاليف الأسلحة والمؤن والعلف والمعدّات وعطاء الجند الإضافي . وعليه ، لم يستطع الإتيان بشيء يذكر لتخفيف الضائقة عـن العساكر الاقطاعيين ، الذين أرغمتهم الظروف إمّا على الوقوع تحت طائلـة الديون أو على إكراه فلاحيهم ومزارعيهم لاستخراج ما بأيديهم (٢٥) . ربما كان هذا الأمر يفسّر ، حتى اكثر مما يفسره بقاء الأحقاد القديمة ، ممانعة بعض العساكر الشرقيّة وتردّدها في الإسهام بدورها في الحرب . أضف إلى ذلك ،

---

٢٤ – القاضي الفاضل في ابي شامة ، ج ٢ : ١٧٧ .

٢٥ – ابو شامة ، ج ٢ : ١٧٧ ، ١٧٨ و ٢٠٣ . الفتح : ٢٠٧ ، ٣٩٢ – ٣٩٣ ، ٤٤٣ . بهاء الدين : ٢٠٠ – ٢٢١ الخ .

أن جميع المعدّات العسكريّة من مصر وبلاد الشام كانت محتجزة في عكا (٢٦) الّتي أعاد صلاح الدين تحصينها لتكون بمثابة قاعـدته الرئيسيّة في عمليّات المستقبل . ولذا فإن حصار عكا وفقدانها أحدث شللاً خطيراً في القدرة الهجوميّة للجيش الإسلامي .

وعلاوة على ما تقدّم ، فإن الخنادق المحصّنة الّتي حفرهـا المحاصرون الصليبيون أوقعت الحيرة في تكتيك العساكر النظاميّة وتقاليدها القتاليّـة . فقد صمد العساكر الاتراك صموداً حسناً في اثناء القتال المكشوف ضدالفرسان الغربيين في السهول ، مع ان حرس صلاح الدين من الأكراد اظهروا ثباتـاً أقلّ (في أرسوف مثلاً) . ولكن عندما تبين ان النجاح المتكرر في الميدان المكشوف لم يكن ذا أثر على الاطلاق في تخفيف وطأة الضغط عن عكا ، كان ردّ الفعل الطبيعي هو التواني في بذل المجهود وإبداء التذمر من صلاح الدين . فلم يلبث التذمر ، ما أن بدأ ، حتّى صار عادة وتطوّر إلى نقد ومعارضة ، لا سيما في المرحلة المتأخرة من الحرب ، عندما بدا سقوط عكا كدليل يبرهن على الضعف في قيادة صلاح الدين العسكريّة .

على ان هذا لم يكن ، في نهاية الأمر ، إلاّ شأناً ثانويّاً بالمقارنة إلى الأذى الذي أنزله بصلاح الدين أقاربه وأصيبت به القضيّة كلّها الّتي كان يدافع عنها. هنا قبع موطن ضعفه البالغ ، وليس في أي مكان آخر . فقد تسبّبت لـه شهوات عدد من إخوته وسـائر اقربائه (٢٧) — وهي شهوات قلّما لاذت بالتستّر — بمتاعب كثيرة في الماضي ، لكنّه استطاع ان يكبح جماحها تقريباً. غير ان ابن اخيه ، تقي الدين ، تعمّد عصيان اوامره في ديار بكر وهو في ذروة صراعه مع الصليبيين ، وأتاح بعصيانه المجال أمام سلسلة من المنازعات وأعمال

---

٢٦ — بهاء الدين : ١٧٤ .

٢٧ — لقد سم القاضي الفاضل صورة حية لهذا في رسالة استشهد بها ابوشامة ، ج ٢ : ١٧٨ .

التمرّد التي أدّت بدورها إلى أضعاف صلاح الدين على نحو شديد الخطورة خلال الحملة في فلسطين بعد سقوط عكا . ولم يؤدّ هذا الأمر إلى غياب عساكر تقي الدين الخاصّة وعساكر ديار بكر عن ساحة المعركة خلال المدّة الباقية من القتال الفعلي فحسب ، بل أدّى كذلك إلى مزيد من الانقسامات داخل أسرته ، وإلى نزاعات بين عساكره المجهدة أيّما إجهاد ، خلال الشهور الأخيرة الحرجة .

هذه هي العوامل التي سلبت صلاح الدين فرصة إحراز الانتصار التام في صراعه مع ريكاردوس . بيد انها عوامل تُبرز بجلاء اكثر خاصيّة من خصائص الحملة كلّها هي أشدها مثاراً للدهشة وأبعدها مغزى — وذلك ان عساكر الموصل كانت تعود إلى الخدمة الفعليّة سنة بعد سنة حتى وإن تلكأت أحياناً في الطريق. وفي مثل تلك الظروف السائدة لم تكن مسألة الإكراه المادّي واردة في الحسبان، مثلما أن صلاح الدين لم يكن قادراً على كبحهم (كما يبرهن ذلك حادث تقي الدين) عن إعادة إحتلال الجزيرة ، وهو الشيء الذي حاولوا القيام به في الواقع عقب وفاته فوراً . فلا يوجد تفسير لهذا التصرّف الذي صدر عنهم سوى ان الشعور بالولاء الشخصي لصلاح الدين ، حتى في الموصل، كان قوياً إلى حدّ يكفي للتغلّب على ممانعة الأفراد أو مقاومتهم . وتوجز لنا عبارة صلاح الدين المتواضعة التي خاطب فيها بهاء الدين بقوله : «فإنني لو حدث بي حادث الموت ما تكاد تجتمع هذه العساكر» (٢٨) ، الطبيعة الحقيقيّة لما أنجزه . فقد استطاع ان ينتشل الإسلام طيلة فترة وجيزة ولكنّها حاسمة ، من وهدة الانحطاط الاخلاقي السياسي ، وذلك بما أوتي صلاح الدين من طيبة محضة وثبات في الخلق . وحين دافع بعناد عن مثل أخلاقي أعلى ، وجسّد هذا المثل في حياته الخاصّة وأعماله ، أوجد حوله حافزاً للاتحاد كان كافياً ، رغم انه لم يكتمل تماماً أبداً ، لمجابهة التحدّي غير المرتقب والذي ألقته الأقدار في طريقه .

---

٢٨ — بهاء الدين ، ٢١٨ .

الفصل الثامن

الايوبيّون *

كان صلاح الدين خلال فترة حياته قد وزّع الولايات التي جرى إدماجها في امبراطوريته على أفراد عائلته الخاصّة ، مانحاً إيّاهم سلطات فعليّة لممارسة السيّادة . فتولّى ثلاثة من أبنائه الحكومات الرئيسيّة في مصر وبلاد الشام :

---

* Gibb, H.A.R. : « The Aiyûbids » chapt. XX of **A History of the Crusades** Vol. II, ed. K.M. Setton, Philadelphia 1962 c by the Regents of the University of Wisconsin, pp. 693 – 714

ملاحظة: لم يقم الباحثون حتّى الآن بدراسة مفصلة للعصر الأيوبي ، ولا يزال العديد من المصادر الرئيسية المعاصرة مخطوطاً ، لا سيما تاريخ ابن واصل الحموي (الذي اقتبست أجزاء منه في تاريخ ابي الفداء) ، وتاريخ سبط ابن الجوزي (طبعة مصورة عن الأصل ، شيكاغو ١٩٠٧) ، وتاريخ كمال الدين ابن العديم الحلبي (ترجمة إ . بلوشيه ، باريس ، ١٩٠٠) . وتقل عنها من حيث الأهمية المصادر التالية : الكامل لابن الأثير (المجلد ١٢ ، ليدن ١٨٥٣ . وهناك أقسام منه حررت ونشرت مترجمة في R H C, or., II.I ، وهو ينتهي في سنة ١٢٣١ م)، وتتمة كتاب الروضتين لأبي شامة (القاهرة ، ١٩٤٧ . وهناك أقسام منه حررت مترجمة في (RHC, or., V ، وغيرهما من المصنفات التاريخية الثانوية التي ما تزال باقية . ثمة مواد من مصادر لم تعد موجودة ويمكن العثور عليها في كتب التاريخ العام المتأخرة ، ولا سيما في مؤلفات الذهبي والمقريزي . أما بخصوص المؤلفات الأوروبية العامة التي تتناول العصر الايوبي ، فانظر قائمة المراجع المثبتة في ختام الفصل الخامس عشر .

الأفضل علي ، وهو أكبرهم ، في دمشق ، والظاهر الغازي في حلب ،والعزيز عثمان في مصر(١) . أما الحكومة الرئيسيّة الرابعة في الجزيرة وأعالي ما بين النهرين وديار بكر (التي كانت عاصمتها في ميافارقين) فقد تولاّها أخوه العادل سيف الدين ، بينما تولّى المعظّم عيسى (وهو ابن العادل) حكم ولاية ابيه الثانية في الكرك وشرقي الاردن كنائب له . وتولّت طائفة أخرى من أقاربه ثلاث ولايات أصغر شأناً في بلاد الشام : ولاية حماه التي تولاّها المنصور محمد (وهو ابن تقي الدين ، ابن اخي صلاح الدين) ، وولاية حمص التي أقطعها صلاح الدين لابن عمّه المجاهد شيركوه الثاني ، ثم ولاية بعلبك التي أقطعت للأمجد بهرام شاه (وهو ابن فروخ شاه ، ابن اخي صلاح الدين)(٢) .

لمّا توفي صلاح الدين (في ٤ آذار سنة ١١٩٣ م) تعطّلت الوحدة التي فرضها بشخصيّته وسلطته ، وأصبحت كل الولايات (ما عدا ولاية الكرك) في الواقع إمارات مستقلّة ومنفصلة . فترتّب على ذلك منح بلاد الشام نوعاً جديداً من الكيان السياسي . وجاء هذا الكيان في المظهر الخارجي مشابهاً في تجزئته لفترة ما قبل السلاجقة . ومما يضفي على تاريخ هذا العصر الايوبي مظهر الفوضى المضطربة هو تلك الاضطرابات السطحيّة التي سبّبتها المنافسات داخل الأسرة الايوبيّة والمطامح لدى بعض أبنائها ، والصراعات التي خاضها أمراء دمشق

---

١ – نعت جميع الامراء الايوبيين بصفة أعقبت لقب « الملك » ، و(بعامل اسمي) للتبجيل مركب مع كلمة «الدين» ، ثم جاء اسم العلم بعد ذلك . ولقد ارتأينا على سبيل الإيجاز والتساوق أن نورد أسماءهم على الشكل المذكور أعلاه (فنقول ، مثلا ، الأفضل علي بدلا من الملك الأفضل نور الدين علي بن يوسف) ، فيما عدا حالات قليلة حيث يكون اللقب المركب هو الاستعمال الأكثر شيوعاً ، ومنها حالة صلاح الدين نفسه (واسمه الكامل : الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب) واخوه العادل سيف الدين (واسمه ابو بكر بن أيوب) .

٢ – لم تدم الولاية الأيوبية التاسعة في جنوبي شبه الجزيرة العربية (اليمن) إلا حتّى سنة ١٢٢٩ ، وكان استمرارها بوجه عام في ظل السيادة المصرية ، لكن ولاية اخرى انشئت في حصن كيفا من بلاد ما بين النهرين ، ودامت هذه الولاية حتّى الفتح العثماني للعراق على عهد سليمان القانوني .

وحلب في سبيل الحفاظ على استقلالهم ضد اقربائهم الذين كانوا أشدّ منهمقوّة في مصر وما بين النهرين . بيد ان الكيان المذكور كان في الواقع محكم الترابط في أجزائه بفعل تضامن عائلي اساسي عزّزته التزاوجات مثلما عزّزه التأثير الملطّف الذي مارسته بيروقراطية دينيّة قويّة في قيامها بمتابعة التقاليد التي سار عليها نور الدين وصلاح الدين . فقد لعب صغار الامراء ، ولا سيما أمراء حماه وحمص منهم ، دوراً هاماً في الحفاظ على التوازن بين القوى المتنافسة (في المقام الأول، من أجل حفظ إماراتهم من الابتلاع) . وحتّى عندما أزيل الايوبيون انفسهم من الوجود لدى وقوعهم بين حجري الرحى من المماليك والمغول ، فإن الكيان الذي أوجدوه بقي مستمرّاً في مؤسسات دولة المماليك .

ويتبدّى استقرار الحكم الايوبي كذلك من خلال النمو السريع الذي شهده الازدهار المادّي في بلاد الشام ومصر ، والاتّساع البارز في مجالات الثقافة ، من أدبيّة وفنيّة وفكريّة . فالأول جاء إلى حدّ كبير بفضل السياسة المستنيرة التي انتهجها الأمراء في تشجيع التطور الزراعي والاقتصادي وفي رعايتهم للعلاقات التجاريّة مع دول المدن الإيطاليّة . وكانت النتيجة الطبيعيّة لهذهالسياسة هي الحفاظ على علاقات سلميّة ، بقدر الإمكان ، مع دويلات الفرنجة في بلاد الشام ، حتّى انه لا توجد هناك سوى مناسبات قليلة ، هذا إن وُجدت ، خلال الفترة كلّها حيث قام الامراء الأيوبيّون بأخذ المبادرة في الهجوم ضد الفرنجة .

وكان ثمة عامل آخر من عوامل الاستقرار ، في المدى البعيد على الأقلّ ، هو ظهور عضو رئيسي من أعضاء الأسرة في كل جيل ، بحيث استطاع هذا العضو أن ينجح في الوقت المناسب فيفرض سلطته علىالآخرين جميعاً أوعلىمعظمهم ، وإن يكن هذا النجاح قد تمّ على حساب تزايد أعمال العنف والمعارضة في الأجيال المتلاحقة . وفي الجيل الأول كان حجر العقد في البنيان الايوبي كلّه هو أخو صلاح الدين ، العادل سيف الدين ، الذي احتلّ منصب المستشار الرئيسي لصلاح الدين خلال حكمه ومثّل الشخصية الأقوى والأقدر بعد صلاح الدين

داخل الأسرة . فلم يتمتّع العادل سيف الدين بنفوذ كبير فحسب – مقابل صغر سنّ أبناء صلاح الدين وقلّة تمرّسهم – بل سبق له في أوقات مختلفة ان تولّى حكم مصر وحلب والكرك فأصبح ملمّاً بالأوضاع الداخليّة لكل الإمارات . وبصفة كونه أميراً على الجزيرة فقد انطوت مهمّته المباشرة عقب وفاة صلاح الدين على إحباط المحاولة التي قام بها اثنان من آل زنكي ، هما عزّ الدين صاحب الموصل وعماد الدين صاحب سنجار ، لاستغلال الفرصة من أجل استرجاع ممتلكاتهما السابقة في بلاد ما بين النهرين . فأرسى الوضع داخل الولايات الشرقيّة على الاستقرار بمساعدة أبناء أخيه في حلب ودمشق ، رغم ان الزنكيين استعادوا لفترة ما استقلالهم داخل أراضيهم .

وخلال السنوات الستّ التالية قام العادل بتوسيع رقعة سلطانه وتوطيد دعائم سلطته في بلاد الشام ومصر . كان ينفر من التحارب ، ولذا كانت الديبلوماسيّة والمكيدة هما سلاحه الرئيسي ، فأتاحت له المنافسات بين ابناء صلاح الدين مجالاً واسعاً لاستخدام هذا السلاح . وجرى اعتبار الأفضل علي في دمشق بمثابة رأس البيت الأيوبي بصفة كونه الابن الأكبر ، لكن سوء حكمه وضعفه أدّيا إلى تأليب عساكر صلاح الدين ضدّه وبالتالي إلى قيام العزيز من مصر بتسيير حملة ضد دمشق في أيار ١١٩٤ . فانضمّ العادل إلى تحالف الأمراء الشاميين ضد العزيز ، ولدى انسحاب هذا الأخير بقي العادل مع الأفضل في دمشق . ثم قام العزيز بمحاولة ثانية سنة ١١٩٥ ، وهذه المرّة بالاتفاق مع الظاهر صاحب حلب. وبعد ان حطّم العادل بكيده تحالف العزيز والظاهر ، لحق بالعزيز إلى مصر وبقي معه هناك حتى السنة التالية ، عندما تضافرت جهود عساكرهما لطرد الأفضل من دمشق (حزيران ١١٩٦) . فظلّ العادل في دمشق كنائب للعزيز . ولذا ، فلمّا تجدّدت الحرب مع الصليبيين سنة ١١٩٧ استطاع ان يخرج إلى ميدان المعركة على الفور ، وان يستولي على يافا (٥ ايلول) ويرسل العساكر لتعزيز دفاع مصر ضدّ غزو مرتقب . وعقب ان استسلمت بيروت على يد

قائدها للصليبيين الألمان الذين قاموا بمحاصرة « تورون » في نهاية تشرين الثاني ، استحصل العادل على تعزيزات (مدَدَ) من مصر ومن جميع الأمراء الشاميين. فأرغم الصليبيين على رفع حصارهم (٢ شباط ، ١١٩٨) ، وفاوضهم على عقد صلح جديد في حزيران لمدّة خمس سنوات ونصف السنة(٣) . ثم استناب عنه ابنه المُعَظّم عيسى في دمشق ، وعاد إلى الجزيرة لإكمال استعادة السيطرة الأيوبيّة في الشرق .

ولمّا توفي العزيز (٢٩ تشرين الثاني ، ١١٩٨) تاركاً وراءه ابناً قاصراً فقط هو المنصور محمد ، حدث انشقاق في القوات الأيوبيّة . فاستدعت الفرقة الأسديّة الأفضل (ليكون وصيّاً) ، وقام أمراء الفرقة الصلاحيّة في تلك الأثناء باستدعاء عمّه العادل من بلاد ما بين النهرين ، بينما زحف الأفضل على دمشق بتحريض من أخيه الظاهر وبتأييد منه . فلم يكد العادل ان يجد الوقت الكافي للانضمام إلى المدينة بنفسه حتى كان الأفضل قد ضرب حصاراً حولها ،واستمرّت محاصرتها طيلة ستة أشهر إلى حين وصول ابنه الكامل محمّد على رأس عساكر ما بين النهرين ، فقام العادل حينئذ بتعقّب الأفضل إلى مصر وهزمه في وقعة بلبيس ، ثم دخل القاهرة (٥ شباط ، ١٢٠٠).

ونوديّ رسمياً في ٤ آب بالعادل سلطاناً على مصر وبلاد الشام . فاعترف به جميع أمراء البلاد ما عدا الظاهر أمير حلب ، الذي انضمّ الآن إلى الأفضل في محاولة أخيرة لإثبات دعوى بيت صلاح الدين . وبعد ان قامت عساكرهما في ربيع سنة ١٢٠١ بالاستيلاء على منبج وقلعة نجم ، ارتكب الإثنان غلطة بهجومهما على حماه ، لكنّهما إذ أخفقا في الاستيلاء عليها زحفا على دمشق في شهر آب ،

---

٣ — تقول رواية المقريزي إن تحصينات عسقلان أزيلت في السنة ذاتها بناء على اتفاق بين العادل والعزيز . راجع بخصوص هذا الصلح ما يلي :

A History of the Crusades, Vol. II, Chapt. XV, pp. 530 – 531.

بدعم من عساكر الفرقة الصلاحيّة في فلسطين ، حيث انضمّ هؤلاء إلى الأفضل بدافع استيائهم لخلع المنصور محمّد الصغير على يد العادل . فنجح العادل مرّة أخرى في تفكيك عرى التحالف بالمكيدة عند نهاية شهر أيلول ، ولمّا استعاد ولاء قطاع من الفرقة الصلاحيّة ، عقد العزم على المضيّ في انتهاز فرصته السانحة . وقام في تعقب الظاهر بدعوة من المنصور أمير حماه، ثم هدّده بمحاصرة حلب إلى ان يوافق على الاعتراف بالعادل سلطاناً (آخر كانون الثاني، ١٢٠٢). فأبقي الظاهر لقاء اعترافه مالكاً على حلب بلامنازع ، وأُعطي الافضل إقطاعة سميساط الثانويّة ، حيث توفي سنة ١٢٢٥ . وبقيت كل من حماه وحمص تحت ولاية أميرها ، بينما جرى توزيع الولايات الأخرى على ابناء العادل : فأعطيت دمشق للمُعظّم عيسى ، ومصر للكامل محمد ، والجزيرة للأشرف موسى ، وديار بكر للأوحد أيوب ، وقلعة جعبر للحافظ ارسلان .

ومع انه تمّ بذلك تفادي وقوع القطيعة النهائيّة بين ابناء صلاح الدين وبين العادل ، فقد استمر الارتياب بأمر الظاهر الذي عزّز الشكوك بأعمال التحصينات التي قام بها ، وأبرزها إعادة بناء أسوار حلب وقلعتها المنيعة ، وتعمير الحصون الحدوديّة في قلعة نجم على الفرات وأفاميا على نهر العاصي . أما المسرح الرئيسي لنشاطات العادل فكان بلاد ما بين النهرين ، حيث لم يدخل ابناؤه في نزاع مع الزنكيين فحسب، بل مع أهالي (الكرج) جورجيا كذلك (عقب احتلال الأوحد لأخلاط سنة ١٢٠٧) . وفي سنة ١٢٠٩ قاد العادل جيوش الأيوبيين مجتمعةً في هجوم على سنجار ، إلاّ أن حدوث تحالف بين الأمراء الشرقيّين ووصول أوامر مباشرة من الخليفة تأمره بالانسحاب حملاه على عقد الصلح . ومما زاد في استعداده لعقد الصلح هو ان الظاهر كان عرضة للإغراء في ضمّ جهده إلى آل زنكي والانضمام إليهم من أجل استبدال سيادة العادل بسيادة سلطان الروم السلجوقي . لكن الجيورجيين (الكرج) مُنيوا بهزيمة ساحقة (١٢١٠) على يد الأوحد ، قبل عودة العادل إلى بلاد الشام ، وأُجبروا على توقيع تعهّد بالحفاظ

على السلام لمدّة ثلاثين عاماً . وبهذا النجاح تأكّدت سيادة الايوبيين في بلاد ما بين النهرين على نحو واضح محدّد ، وعقب وفاة الأوحد بفترة وجيزة تـمّ وضع الإقليم كلّه تحت ولاية الأشرف .

ولعبت هذه الإنهماكات كلّها دوراً كبيراً في تقرير سياسة الايوبيين نحو الفرنجة . فأدّى تخفيض ممتلكات الفرنجة النائية ، وخاصّة في الجنوب ، إلى إزالة أي خطر حقيقي يمكن لقواتهم المحليّة أن تهدّد به . وكان الخطر الوحيد الذي يُخشى منه (وقد بقي هذا الخطر ماثلاً للعادل بصورة حيّة ، ومقترناً بذكرياته عن الحملة الصليبيّة الثالثة) هو احتمال قدوم حملات صليبيّة جديدة من ما وراء البحار . فانصبّ اهتمام العادل الرئيسي ، على غرار صلاح الدين من قبله ، على مصر (ومما لا ريب فيه ان هذا القلق عزّزته الغارات البحريّة على رشيد سنة ١٢٠٤ ودمياط سنة ١٢١١) وكانت عساكره المصريّة معظم الوقت محتجزة في خدمة الحاميات بمصر . حتى ان خوفه من تحريك هجمات جديدة ، إلى جانب نفوره المعتاد لئلاّ يصبح متورطاً في تحارب جدّي ، حمله على تقديم التنازلات من أجل السلام ، مثل تخلّيه عن يافا والناصرة سنة ١٢٠٤. وعلى غرار ما فعله صلاح الدين ، فقد عطف العادل على المصالح التجاريّة للدويلات الإيطاليّة ، مستهدفاً من وراء ذلك تحقيق غرض مزدوج : زيادة ايراداته الخاصّة وإمكانياته الحربيّة من جهة ، وثني تلك الدويلات عن محاولة تقديم الدعم لحملات صليبيّة مستحدثة . هناك دلائل تشهد على إبرام معاهدات تجاريّة مع البندقيّة وبيزا بين عامي ١٢٠٧ — ١٢٠٨ ، وعندما جرى اعتقال التجار الفرنجة في الاسكندريّة سنة ١٢١٢ كتدبير احترازي ، فإن عددهم كان يبلغ ٣,٠٠٠ تاجر . واشتمل القسم الأكبر من حكمه على سلسلة من اتفاقيات الهدنة مع مملكة الفرنجة (١١٩٨ — ١٢٠٤ و ١٢٠٤ — ١٢١٠ و ١٢١٢ — ١٢١٧ ١٢١٧) ، فأعيد خلال هذه الفترات تنظيم دفاعات القدس ودمشق ، وكان أبرزها تشييد قلعة جديدة على جبل الطور ، وهي التي بوشر العمل فيها سنة

١٢١١ . وانحصر معظم القتال الفعلي في اثناء هذه الفترة بين اسبتاريّة قلعة الحصن (أو حصن الأكراد) أو بوهموند صاحب انطاكية وطرابلس وبين أمراء حماه وحمص ، الذين كان في استطاعتهم ان يعتمدوا . فيما لو دعت الحاجة ، على تأييد الظاهر . ولم ينجرّ العادل نفسه إلى التدخّل الفعلي إلاّ مرة واحدة في سنة ١٢٠٧ . وذلك عندما استولى على القليعة وحاصر حصن الأكراد وتقدّم حتى أسوار طرابلس قبل أن يعقد صلحاً مع بوهموند لقاء دفع جزية .

وكانت في تلك الاثناء للظاهر صاحب حلب دواعيه الخاصّة للحفاظ على السلام مع انطاكية . فقد تنبّه إلى خطر تزايد قوة الأرمن في كيلكيا . وتطلّع دوماً للبحث عن حلفاء محتملين ضد عمّه . كما سبق له ان استجاب دون تردّد لنداء بوهموند صاحب طرابلس بتقديم التعزيزات له في حربه ضد الأرمن سنة ١٢٠١ . وكان له اثره الكبير كذلك في الدفاع عن انطاكية ضد ليون الثاني في سنة ١٢٠٣ وبين عامي ١٢٠٥ – ١٢٠٦ (٤) . فالهجوم على كيليكيا الذي اشترك فيه القوات السلجوقيّة والحلبيّة سنة ١٢٠٩ كان قد أرغم ليون على التماس شروط الصلح ، لكن الصراع استمرّ في انطاكية ومن أجلها ، وقام البابا اينوشنسيوس الثالث نفسه بمناشدة الظاهر في سنة ١٢١١ أن يدعم فرسان الداوية . وكان الظاهر أيضاً على علاقات بمستوى المعاهدة مع البنادقة في اللاّذقيّة ، فسمح لهم بإقامة «فندق» في حلب . (fondaco) والفنادق أو القياسر كانت مخصّصة للتجار الغرباء ينزلون فيها ويستعملون الجناح الأسفل منها سوقاً لخزن بضائعهم وتصريفها. المترجم) .

إلاّ أن العادل كان قد استنكر منذ أمد طويل تحالفَ ابن أخيه مع بوهموند وحاول إحباطه بالوسائل الديبلوماسيّة . وقام بوهموند بشنّ هجوم مشترك على

---

٤ – فيما يتعلق بهذا التحالف انظر
A History of the Crusades Vol. II, Chapt. XV, pp. 533 – 537.

حصن الخوابي الاسماعيلي في سنة ١٢١٤ . بعد مقتل ابنه الأكبر ريموند على يد الحشاشين في طرطوس . فاستنجد الحشاشون بالظاهر ، الذي أرسل لهم التعزيزات (النجدات) وجنّد تأييد العادل للقيام بهجوم مضلّل في الجنوب . وأدّى هذا الأمر إلى إنهاء التحالف ، وعندما دخل ليون إلى اللاّذقية في شباط سنة ١٢١٦ ، فإن الظاهر اضطُرّ إلى رفض دعوة السلطان كيكاؤس الأول للتعاون في هجوم على كيليكيا ، لأنّه كان تواقاً لضمان الولاية لابنه القاصر الذي انجبه سفاحاً من ابنة العادل ضَيفة . ثم توفي الظاهر بعد أشهر قليلة . في ١١ تشرين الثاني سنة ١٢١٦ . تاركاً وراءه شهرته كحاكم نشيط وكفؤ إنما قاسي المعاملة .

وجاء النزوح الجماعي لتجار الاسكندريّة إلى عكا في سنة ١٢١٦ ليعطي أمراء المسلمين تحذيراً كافياً من الحملة الصليبيّة المقتربة . فبقي العادل متيقّظاً في مصر إلى أن أتمّ الصليبيون احتشادهم في عكا (١٢١٧) وبدأوا في عمليّاتهم الحربيّة متّجهين صوب الشرق . وحتّى في ذلك الحين ، فإنه ترك السواد الأعظم من قواته مع الكامل وتحرّك على رأس كتيبة صغيرة لدعم المُعَظّم(٥). فالعساكر التي تحت تصرّفه كانت قليلة للغاية حتّى تستطيع الوقوف بوجه الصليبيين . وبينما كان هؤلاء يحاصرون بانياس ويغيرون عبر الأردن قام هو بحراسة المجازات المؤديّة إلى دمشق وأوفد المعظّم إلى نابلس لكي يدرأ الخطر عن القدس ، وطلب النجدات من الأمراء الشماليين .

وطرأ تحوّل مفاجيء على الموقف بعد فترة وجيزة من الراحة خلال الشتاء (بين عامي ١٢١٧ — ١٢١٨) وبينما كان الأشرّف يتحرّك في طريقه لتدعيم الدفاع ، فقد وجد الايوبيون انفسهم يخوضون المعركة على ثلاث جبهات في

---

٥ — انظر حول العمليات في فلسطين سنة ١٢١٨ وسنة ١٢١٩ :

A History of the Crusades, Vol. II, Chapt. XI, pp. 389 – 396.

آن واحد . ولمّا سمع العادل بنزول الفرنجة على دمياط قام بإرجاع العساكر المصريّة الذين كانوا تحت أمرته . وأصدر تعليماته إلى المعظّم بتهديم قلعة جبل الطور لأنها احتجزت ذلك العدد الكبير من الرجال والمخازن العسكريّة .وطلب إلى الأشرف أن يصرف أنظار العدو عن العمليّة الرئيسيّة بشنّ هجوم على مناطق الفرنجة الشماليّة . فقام هذا بالإغارة على خان الأبيض وحصن الأكراد. غير انه في تلك الأثناء بادر حزبٌ في حلب ، من الذين عارضوا الأمير الطفل العزيز محمد واتابكه شهاب الدين طغرل ، إلى إغتنام فرصة المصاعب التي يواجهها العادل لكي يتفاوضوا مع الأفضل والسلطان السلجوقي . وفي مستهل شهر حزيران استولى كيكاؤس على حصن رعبان وتل باشر ، ثم زحف على حلب ، فأسرع الأشرف للدفاع عنها وألحق الهزيمة بالسلطان وحلفائه عند بُزاعة (مطلع تموز) ثم استردّ المناطق المستولى عليها ، وذلك بمساعدة كتائب عسكريّة من العرب . فجرى اعتباره منذ هذا الحين فصاعداً بمثابة سيّد حلب الأعلى ، لكنّه أبقى زمام حكمها بيد طغرل الذي اشتهر بإخلاصه له ومقدرته. ثم أرسل الأمراء المتمرّدين لكي يلتحقوا بجيش الكامل في مصر .

بقي المعظم أول الأمر متيّقظاً في فلسطين ، وأحرز نصراً ثانويّاً في اواخر شهر آب عند قيمون بالقرب من الرملة . وبعد ذلك مباشرة استدعته إلى دمشق أنباء وفاة العادل هناك (في ٣١ آب ، ١٢١٨) . فتولّى حكم المدينة ، لكنّه اعترف مخلصاً بأخيه الكامل خلفاً للعادل على السلطنة . فما ان استقرّت الأوضاع في بلاد الشام من جديد حتى كان الكامل يواجه وضعاً متدهوراً في دمياط ، فأرسل نداءات جديدة بطلب المساعدة وتلقى النجدات من حماه وحمص . إلاّ ان الكامل نفسه انسحب من دمياط قبل ان يتمكن المعظّم من الوصول إليها ، وجاء انسحابه هذا بسبب مؤامرة لخلعه عن العرش تزعّمها المشطوب ،

وهو ابن الأمير الكردي في جيش صلاح الدين (٦) . وأعقب وصول المعظّم في شهر شباط سنة ١٢١٩ إبعاد ابن المشطوب ونفيه واستئناف العمليّات الحربيّة على أبواب دمياط . لكن الأشرف كـــان منهمكاً في بلاد مـــا بين النهرين بالنزاعات التي نشبت في الموصل . وتلتها اضطرابات في شمالي بلاد الشام بسبب المكائد التي دبّرها ابن المشطوب مع الأفضل . فكانت النتيجة انه لم يبقَ في بلاد الشام الآن سوى عساكر قليلة ، ممّا أدّى إلى اتخاذ قرار بتجريد القدس من الوسائل الدفاعيّة وبنقل جميع المخازن الحربيّة منها (شهر آذار ١٢١٩) ، في حال تعرّضها للهجوم من جانب الفرنجة .

ويبدو ان الاستيلاء على دمياط في تشرين الثاني سنة ١٢١٩ قد أسفر ، وهذا وجه الغرابة في الأمر ،عن تخفيف في حدّة التوتر لدى الجانب الإسلامي . فمن الصحيح ان الكامل مُني بخيبة أمل للرفض الذي قوبلت به عروضه من أجل الصلح ، و لذا دعا الكامل إلى حملة عامّة لتجنيد المقاتلين « من القاهرة إلى أسوان» . لكن دعوةً مماثلة كان المعظّم قد وجّهها في دمشق لم تلقَ أي تجاوب ، فما كان من المعظم نفسه حتى رجع إلى بلاد الشام ، حيث راح يضايق الصليبيين باستمرار خلال السنة التالية (١٢٢٠) ، فاستولى على قيصريّة وهدّمها وهاجم حصن عثليت (قلعة الحجاج) مرّتين . أما الأشرف فقد كانت لا تزال تؤخّره في ما بين النهرين العمليّات الحربيّة ضد الارتقيين في ماردين واميدا وضد ابن المشطوب الذي كافأ رأفة السلطان به في العام السابق بتحالفه مع امراءماردين وسنجار . فزحف الأشرف على الموصل ، بعد ان كان قد استولى على سنجار (في شهر تموز ، ١٢٢٠) ، بجيش حلب وبقي في جوارها طيلة عدّة شهور

---

٦ – بشأن المراحل الأولى من الحملة الصليبية على دمياط ، وموت العادل والمؤامرة ضد الكامل ، انظر **A History of the Crusades** Vol. II, Chapt. XI, pp. 397 – 408.
ومما يدل على عدالة الأيوبيين اللينة ان عقاب ابن المشطوب كان النفي والإبعاد وليس الموت بالأحرى .

منهمكاً خلالها بالمفاوضات مع أمراء آل زنكي ومع كبوكبوري في اربيل . وما ان حلّ مطلع سنة ١٢٢١ حتى شعر بقدر كبير من الأمان والاطمئنان في ولايته إلى حدّ جعله يسلّم ، وان يكن تسليمه قد جاء مكرهاً ، بحجج المعظّم . فترك أخلاط وديار بكر تحت حكم أخيه المظفر شهاب الدين غازي ؛ لكي يرافق المعظّم وغيره من الأمراء الشاميين إلى مصر . حيث انضمّ إلى الكامل عند المنصورة في نهاية شهر تموز .

وفي أثناء الفترة الفاصلة كان الكامل قد استمرّ في التفاوض مع الصليبيين من أجل السلم ، بعد أن أعوزه الدعم الفعّال من جانب إخوته وبعد أن ألفى نفسه على رأس جيش يزداد سخطاً وتمرّداً وقد انهكته الحرب (٧) . حتى انه لم يكن بعد وصول المعظّم والأشرف ، في حالة نفسيّة تجعله يتورّط في قتال شديد ، وبالرغم من اعتراضاتهما والوضع اليائس الذي كان عليه الجيش المهاجِم ، فإنه قبل عن طيب خاطر بالتسليم الذي عرضه عليه الصليبيون ، بدلاً من مواجهة الاحتمال في قيام حصار طويل الأمد لاستعادة دمياط . فتمّ التوقيع عند نهاية شهر آب على شروط الصلح كما ينبغي ولفترة ثماني سنوات ، ونصّ أحد الشروط على إطلاق سراح عام للأسرى ، بينما أُعيد احتلال دمياط من جديد في ٨ أيلول سنة ١٢٢١ (٨) .

فما أن أُزيل خطر الصليبيين حتى عادت الأسباب الثانويّة للخلاف بين الأيوبيين إلى البروز مجدّداً . وكان الأشرف قد ظلّ في مصر مع الكامل ، بينما شعر المعظّم انه عرضة لخطر الوقوع بين طرفي الرحى وهما أخواه الأقوى

---

٧ – يذكر المقريزي ان القتال مع الصليبيين في المنصورة قام باكثره « العامة » ، أي الإضافيون والمتطوعة ، اكثر مما قامت به العساكر النظامية . (السلوك ، ج ١ : ٢٠٦) . وبشأن هذه المرحلة من الحملة الصليبية ، انظر أعلاه ، المصدر نفسه ، الفصل ١١ : ٤٠٨ – ٤٢٣ .

٨ – **A History of the Crusades**, Vol. II, Chapt. X, pp. 423 – 428

منه في مصر وما بين النهرين . فقام بشن حملة ناجحة في حزيران سنة ١٢٢٢ لإرغام غي صاحب جبيل على التقيّد بالصلح ، ثم خطا خطوة خاطئة في محاولته ان يستولي على حماه (كانون الثاني، ١٢٢٣) وفي احتلاله معرّة النعمان والسلميّة. ولمّا أمره الكامل بالكفّ عن محاصره حماه والتنازل عمّا استولى عليه بالفتح، انتقم لنفسه بتشكيل تحالف مع كوكبوري صاحب اربيل ضد الأشرف (ومن المرجح ان يكون هذا التحالف قد تمّ بتشجيع سري من الخليفة الناصر) ، وبتحريض غازي على الثورة في أخلاط . الاّ ان الأشرف أخمد الثورة على جناح السرعة بمساعدة عساكر حلب ، وبعد عرض للقوّة في حمص جاءت تهديدات الكامل لكبح جماح المعظّم عن القيام بعمليّات أخرى (١٢٢٤) . فدخل المعظّم ، هرباً من ربقة هذه السيطرة غير المرحّب بها ، في اتصالات مع العناصر الساخطة داخل الجيش المصري وأوقع الكامل في شلل حين راح يتبجّح علناً بالنجاح الذي أحرزته مكائده ويتحدّى الكامل للزحف على بلاد الشام ان هو تجاسر على ذلك . أمّا ضد الأشرف فقد تبنّى المعظّم تلك السياسة الخطرة بدعوة شاه خوارزم جلال الدين (الذي تُروى قصّة مغامراته الوحشيّة بصحبة مجموعته الخوارزميّة من القتَلة المأجورين في فصل آخر) (٩) لكي يستولي على ديار بكر . فهاجم حمص مرّة أخرى سنة ١٢٢٦ ، بينما تحرّك كوكبوري على الموصل والارتقيون على الجزيرة . وتفادى الأشرف الهجمات على حمص بعساكر حلب ثم توسّل إلى السلطان السلجوقي كيقباذ الأول ان يساعده ضد الارتقيين ، لكنّه ما لبث هو نفسه ان دخل معه في نزاع لاحقاً . فأعلن استسلامه للمعظّم بعد ان تملّكه اليأس ، غير ان الأوان كان قد فات كثيراً للحيلولة دون محاصرة جلال الدين لأخلاط ، وهي التي استطاعت حاميتها لا أن تصدّ المهاجمين وتحتفظ بالمدينة فحسب ، بل في أن تنتقم باحتلالها خوي وغيرها من الأماكن في اذربيجان عقب انسحاب شاه خوارزم .

---

٩ – المصدر نفسه ، ج ٢ ، الفصل ١٩ ، ص ٦٧٢ – ٦٧٤ .

وجاء الآن دور الكامل لكي يتوجّس خيفة من الائتلاف بين الأمراء الشاميين (لكن حلب بقيت بمعزل عنه) ، خاصّة وان المعظّم كان قد اعترف بسيادة جلال الدين ، وفي الوقت ذاته كان الكامل يدرك استعدادات الامبراطور فردريك الثاني للقيام بحملة صليبيّة . فالسبيل الوحيدة التي تراءت مفتوحة أمامه في الشهور الأولى من سنة ١٢٢٧ كانت تشير عليه بأن يجدد لفردريك العرض الذي سبق له أن تقدّم به إلى الصليبيين في دمياط : وذلك بالتخلّي لهم عن القدس وجزء من فلسطين . إلاّ أن الموقف تبدّل بكامله في غضون بضعة أشهر . فاستطاع الأشرف أن يهرب بنجاح ، في شهر أيار ، من منفاه المموّه بدمشق ، لقاء الإخلال بتعهدّاته المهيبة . وما أن تألّب أمراء حمص وحماه أيضاً على المعظّم حتى وجد هذا نفسه يقف معزولاً بوجه الجيوش الصليبيّة التي أخذت تحتشد الآن في عكا ، فأقدم على تخريب التحصينات في القدس وغيرها من القلاع . لكنّه توفي يوم ١٢ تشرين الثاني سنة ١٢٢٧ ، قبل وصول فردريك واعترى عساكر دمشق وأهاليها حزن عميق لوفاته ، ثم خلفه ابنه الناصر داوود بموافقة من الكامل (١٠) .

ولم تدم إعادة الوئام بين الأمراء طويلاً . فقد بدأ داوود بداية سيئة برفضه للطلب الذي تقدّم به الكامل في التخلّي عن حصن الشوبك ، لكن حالة الحرب توفرت بفضل نزاع حول بعلبك ، حيث هوجم الأمجد على يد العزيز عثمان صاحب بانياس . وعندما أصدر داوود اوامره للعزيز بالكفّ عن هجومه ، توسّل هذا الأخير إلى الكامل ، الذي قام بالزحف على فلسطين في شهر تموز سنة ١٢٢٨ واحتلّ نابلس والقدس . فنزل الأشرف ، بناء لدعوة داوود ، على دمشق من بلاد ما بين النهرين ، وانكفأ الكامل إلى تل العجول ، حيث انضمّ إليه الأشرف هناك . وكانت النتيجة التي أسفر عنها تشاورهما هي في ان

---

١٠ – بشأن الظروف المتغيرة التي أحاطت بمفاوضات الكامل مع فردريك ، انظر :
A History of the Crusades, Vol. II, Chapt. XII, pp. 448 – 450

يتولىّ الأشرف حكم دمشق بينما يحتلّ الكامل فلسطين ، على ان تُعطى الجزيرة لابن اخيهما داوود بمثابة مكافأة له . فلمّا رفض داوود هذه الشروط ، قام الأشرف بضرب حصار حول دمشق عند اواخر تلك السنة بمساعدة عساكر حلب .

يبدو أن الأمراء الشاميين لم يُعروا الصليبيين اهتماماً يستحق الذكر خلال هذه الفترة كلها . وفيما عدا مناوشة قام بها عساكر العزيز صاحب بانياس عند عكا في شهر شباط ، فإنهم لم يتدخلوا في أعمال التحصينات على امتداد الساحل ، ولا تدخّلوا حتى عندما جرى طرد السكان المسلمين من صيدا . فقد بقي الكامل في فلسطين عقب وصول فردريك لإجراء مفاوضات حول تحقيق العرض المقدّم منه في ظلّ الظروف المتبدّلة . وأسفرت خمسة أشهر من المساومة العنيدة عن معاهدة التسوية بتاريخ ١٨ شباط سنة ١٢٢٩ ، وهي المعاهدة التي تلقّتها معظم الأوساط الإسلاميّة بسخط عنيف وقد أسهمت على وجه التأكيد في تصلّب المقاومة ضد الأشرف بدمشق(١١) . على ان قاضي حماه يعرب عن استحسانه ، في ما يُحتمل انه نسخة طبق الأصل عن رسالة الكامل السيّارة ، لما أبداه السلطان من الحنكة السياسيّة في ضمان نعمة السلام السامية لمسلمي بلاد الشام ولقاء ذلك الثمن الزهيد . ثم يضيف ، وهذا بمثابة تلخيص لشروط المعاهدة ، قائلاً بأن التخلّي عن الأقاليم كان محصوراً بالقدس وحدها ، «فلم يشمل الكثير ولا هو شمل القليل من بلادها وأعمالها» ، واشتُرط فيها على الفرنجة ألاّ يقوموا بإعادة بناء شيء في القدس على الإطلاق، «لا من السور ولا من المساكن» وألاّ يتخطّوا خندقها المائي . كما اشترطت المعاهدة على الفرنجة أن يقوم السكان المسلمون بتأدية صلاة الجمعة في القدس ، وألاّ يُصار إلى إعاقة أي مسلم عن القيام بزيارة القدس في أيّ وقت يشاء ، وألاّ يُجبى المال من أي زائر لها(١٢).

---

١١ — بشأن هذه المعاهدة ، انظر المصدر نفسه أعلاه ، الفصل ١٢ : ٤٥٢ — ٤٥٨ .

١٢ — هو شهاب الدين ابن ابي دم، مخطوطة بودليان Marsh 60، وقد اضيفت إليها السنة ٦٢٥ . أما البنود التي يذكرها جيرلا د من المعاهدة فلا يبدو انها مذكورة في أي مصدر عربي .

وعلى وجه التأكيد ، فقد استطاع الكامل عقب زيارة فردريك للقدس(١٣) وعودته إلى عكا في شهر آذار ، وبناء لطلب من الأشرف ، ان يشارك في حصار دمشق (شهر نيسان) هذا الحصار الذي نفّذه على درجة من القسوة والتدمير بات معها داوود مرغماً على تسليم المدينة في ٢٥ حزيران مقابل منحه شرقي الاردن وفلسطين الشرقيّة ، ومن جملتها نابلس وناحية القدس .

وأعقبتِ احتلال الأشرف لدمشق أعادةُ توزيع رئيسيّة للبلاد . فبقي هو مالكاً لأخلاط وديار بكر واحتفظ بسيادته على حلب ، لكنّه تخلّى للكامل عن الجزيرة ، فقام هذا أيضاً بضمّ فلسطين الغربيّة ومعها طبريا . على انه ليس من الواضح تماماً ماذا كان الغرض من وراء هـــذا التشابك في الممتلكات العائدة للأميرين الأقويين بين الأمراء الأيوبيين . فقد كان على الأرجح وسيلة كي يأمن بها الواحد منهما جانب الآخر من جديد ، لكنها منحت الكامل في الواقع تفوّقاً لا جدال فيه ـــ وهو تفوق تعزّز أكثر بحصاره لحماه في شهر آب سنة ١٢٢٩ وإعادة تولية الوريث الشرعي عليها : المظفر تقي الدين الثاني ، بعد ان كان أخوه الأصغر الناصر كلج ارسلان قد اغتصب المنصب لنفسه في اثناء حملة دمياط وتحت حماية الأشرف . ثم ، بينما كان الاشرف يستهلك قواته في حصار طويل لبعلبك ، قام الكامل باحتلال ممتلكاته الجديدة في الجزيرة . وفي آن واحد معاً هاجم جلال الدين أخلاط مرّة أخرى ، فلم تتلقّ حاميتها أيّ دعم من أميرها الأشرف وسوى مساعدة متأخرة وغير كافية من الكامل ، ممّا حملها على التسليم بعد حصار استغرق سبعة أشهر (نيسان ١٢٣٠) ، لكي يتعرّض السكان بأجمعهم اما للهلاك في المذبحة أو للأسر والنقل بالقوّة . فتقدّم السلطان

---

١٣ ـ يختلف النص الأصلي لسبط ابن الجوزي ، وهو الذي توصف فيه حوادث زيارة فردريك ، إلى حد ما عن التعديلات المستقاة بتصرف من المصادر المتأخرة لدى « ميشو »
Histoire des Croisades, III, 316 – 317, وغروسيه **Bibliothèque**, IV, 431 – 432 ويورد ابن واصل كذلك رواية مباشرة من الزيارة .

السلجوقي كيقباذ عند هذه المرحلة الحاسمة عارضاً على الكامل إقامة تحالف ضدّ جلال الدين ، وأسرع الأشرف نحو الشمال ، فتسلّم قيادة الجيوش الأيوبيّة وانضمّ إلى السلطان بالقرب من أرزنجان . وأُنزلت بالخوارزميين هزيمة كاسحة في معركة ضارية (١٠ آب) ، بينما فرّ جلال الدين إلى تبريز وأعاد الأشرف احتلال خرائب أخلاط(١٤) .

واغتنم الرتباء العسكريون (الذين لم تشملهم بنود المعاهدة) فرصة غياب الكامل في الشمال فقاموا بشن هجمات على بعرين (كانون الأول ١٢٢٩) وحماه (٥ تموز ، ١٢٣٠) ، لكن المظفّر تمكّن من صدّ هذه الهجمات . وأغاروا في السنة التالية على جبلة ، مثلما قامت غارات مضادة من حلب على قلعة المرقب وفلانيا (شباط ١٢٣١) إلى أن تمّ التوقيع على هدنة في حزيران . ومن الجانب الآخر ، قام رجال القبائل العربيّة(البدو) بعد أن حرّكهم الدعاة الغوغائيون ، بمهاجمة الحجاج في القدس ، وعلى الطرقات إلى أن تسنّى كبح جماحهم . لكن حبل الأمن العام استتّب من جديد استتباباً كلياً في وجه العموم ، واستطاع الكامل والأشرف في سنة ١٢٣٢ ان يستأنفا حملتهما لتقوية السيطرة الأيوبيّة في بلاد ما بين النهرين وديار بكر ، اللّتين كانت تتهدّدهما الجيوش المغولية في بلاد فارس وما وراء القوقاز . وتمّ أخيراً تجريد الارتقيين من معاقلهم القويّة في آميدا وحصن كيفا ، فمُنحت هذه الأخيرة للصالح أيوب وهو الأبن الأكبر للكامل .

لقد أصبح الكامل الآن في ذروة سلطانه ، يتودّد إليه أمراء فارس ويزوره السفراء حتى من الهند واسبانيا . وليس مما يدعو إلى الدهشة والتعجّب أن يكون هذا النجاح ، كما يُلمح في بعض الأحيان ، قد دوّخ رأسه واستثار مطامحه .

---

١٤ — فيما يتعلق بالخوارزميين والسلاجقة سنة ١٢٣٠ انظر :
A History of the Crusades Vol. II, Chapt. XIX, pp. 673, 683.

ولم يطل انتظار مجيء الأزمة . فالسلطنة السلجوقية كانت قد وصلت هي ايضاً إلى أوج من القوّة في ظلّ السلطان كيقباذ ، وصارت الآن تتقاسم حدوداً مشتركة مع الأيوبيين . واستولى كيقباذ على أخلاط (سنة ١٢٣٣) لكي يجدمجال استخدام للعصابات الخوارزمية الّتي طردها المغول إلى بلاد الاناضول في أعقاب وفاة جلال الدين . فلبّى جميع الأمراء الأيوبيّين نداءات الكامل في صيف سنة ١٢٣٤ ، لكن جيوشهم عجزت عن شقّ طريق لها في ممرّات جبال طوروس بوجه الدفاعات السلجوقيّة . وأرسل الكامل في أثناء انسحابه كتيبة من العساكر للدفاع عن خربوط ، فانهزمت الكتيبة وتمّ استيلاء القوات السلجوقيّة على خربوط نفسها في شهر آب . وجاءت هذه الانتكاسات لتصبّ زيتاً في محرقة الاستياء الخالص الذي غلت به صدور الامراء الشاميين ضد الكامل ، فقام المظفر صاحب حماه (وهو الذي كان الضحيّة الرئيسيّة للفشل في خربوط) وأخذ زمام المبادرة في فتح باب المفاوضات مع كيقباذ . واكتشف الكامل هذه المكيدة ، فعاد إلى مصر غاضباً ، وتفرّقت الجيوش . ثم اجتاح كيقباذ ولاية الكامل في الجزيرة كلّها دون ان يواجه مقاومة ، ونقل سكانها بالقوّة . غير ان الكامل عقد صلحه في السنة التالية مع الشاميين ، وقام في تنسيق مع الأشرف باسترداد الجزيرة في شهري كانون الثاني وشباط سنة ١٢٣٦ ، ثم أرسل ٣,٠٠٠ أسير من السلاجقة إلى مصر ، وعمد إلى تولية الصالح أيوب حكم جميع ممتلكاته الشرقيّة . وفي أعقاب انسحابه عاد السلاجقة إلى مهاجمة اميدا وخرّبوا دارا (شهر آب) ، ويُرجّح انهم فعلوا ذلك انتقاماً منهم لتخريب الأيوبيّين عدّة قلاع محصّنة تابعة لماردين ، وهي الإمارة الارتقيّة الوحيدة الّتي تبقّت في ديار بكر .

وتوفي العزيز محمد أمير حلب في ٢٦ تشرين الثاني ، تاركاً ابنه البالغ سبع سنوات من العمر حيث حمل هذا الابن اسم جدّه الأكبر صلاح الدين والقابه التضخيميّة ، فدُعي الناصر صلاح الدين يوسف، وكان تحت وصاية جدّته

ضيفة ، وهي أخت الكامل . ولما ساورتها الشكوك ، عن حقّ أم عن خطأ ، بأن الكامل كان يخطط المكائد لحلب ، بادرت ضيفة إلى تشكيل تحالف مع الأشرف الذي كان بدوره غير راضٍ عن تقسيم البلدان الارتقيّة . فلجأ الكامل إلى تدبير إنتقامي سريع بدعوة الناصر داوود من الكرك إلى مصر وتوليته حكم دمشق . وعلى غرار ما حدث في المناسبة السابقة ، فإن المتحالفين الشاميين سعوا للحصول على تأييد السلطان السلجوقي كيقباذ ضد تدخّل الكامل ، ولما توفي كيقباذ (٣١ أيار ، سنة ١٢٣٧) التفتوا صوب خلفه كيخسرو الثاني ، وقاموا بتوجيه إنذار للكامل يحذّرونه من الزحف على بلاد الشام . إلاّ ان الأشرف توفي بعد أشهر ثلاثة فقط (٢٨ آب) مخلّفاً حكم دمشق لأخيه الصالح اسماعيل. ومما أضعف التحالف الشامي خروج المظفر أمير حماه وإنحيازه إلى جانب الكامل ، فقام هذا الأخير بمحاصرة دمشق في شهر تشرين الثاني ومضى في هجومه حتّى استسلم اسماعيل في ٢٩ كانون الاول وتمّ نقله إلى بعلبك . أما عساكر حلفائه الشاميين فقد سُمح لهم بالانسحاب دون أي تحرّش بهم ، لكن المظفر أُرسل إلى حمص لاستيفاء الجزاء منها . بينما راح الكامل يعد العدّة للزحف على حلب . وكان ولاة حلب وحكامها قد أعدّوا العدّة كلها للحصار المتوقّع وجنّدوا العساكر التركمانيّة والسلجوقيّة للدفاع عن المدينة ، فما كان من الكامل نفسه حتّى توفي بدمشق في ٩ آذار سنة ١٢٣٨ .

وتؤلف شخصيّة الكامل مشكلة من أشد المشكلات تعقيداً في التاريخ الأيوبي. حتّى ان سبط ابن الجوزي ، وهو الذي ألقى تلك العظة ضدّه في دمشق عندما وصلت أخبار معاهدته مع فردريك ، يتحدّث عنه بعبارات الإعجاب فيصفه بالشجاع والحصيف ومحبّ العلم ، مثلما يصفه بالعدل والكرم إلى الدرجة القصوى . فقد فرض الكامل احتراماً وخشيةً لم يفرضهما أي واحد من الأيوبيين قبله ، ونشر لواء الانضباط بين صفوف عساكره حتّى قيل إن أحدهم لم يتجرّأ في أثناء الحملات على مد يده لأخذ عود قشّ من مزارع . وكان صادقاً في

كلمته وفياً بها ، فانتزع من اقربائه الولاء المتوجب له كسلطان . أمـــا في التحارب ، فقد كان هو المنتصر دائماً في النهاية ، لكنّه كره الحرب والكيد كرهاً شديداً ، وفَضّل الوصول إلى مبتغاه عن طريق التفاوض . لقد جاء على نحو لافت للنظر نداً لفردريك في بعض الوجوه . وربما تجلّى ذلك بنوع خاص في ترفّعه عن أهواء عصره وفي تفوّقه اللاّمبالي إزاء معاصريه . على ان رعاياه لم ينظروا إليه نظرة محبّة وهو لم يكن واثقاً أبداً من إخلاص عساكره ، وليس مردّ ذلك إلى إغضابه الرأي العام عندما تخلّى عن القدس فحسب ، بل جاء بالأحرى عن طريق التقابل بينه وبين شخصيّة أخيه المعظّم وما عرف عن هذه الشخصيّة من انفتاح ودفء إنساني . حتّى انه أضطُر قبل أربع سنوات من وفاته إلى إبعاد ابنه الأكبر ووريثه ، الصالح أيوب ، من مصر في تهمة الاشتباه به انه يقوم بتجنيد عساكر المماليك للثورة ضد أبيه ، لكنّه ما لبث ان استماله على نحو مميّز بمنحه ميداناً جديداً ومفتوحاً لممارسة مواهبه في بلاد ما بـــين النهرين .

أدّى ابتعاد الكامل بشخصيّته المهيمنة عن المسرح إلى زجّ الأمراء الأيوبيين على الفور في خضمّ منافسات عنيفة ومضطربة . فاعترف أمراء الجيش المصريون بابنه العادل ابو بكر الثاني سلطاناً ، وكان الكامل قد عيّنه خلفاً له محلّ الصالح أيوب ، ثم قام اولئك الأمراء أيضاً بتسمية الجوّاد يونس (وهو حفيد للعادل الأول وزوج ابنة الأشرف الوحيدة) اميراً على دمشق ، واجبروا الناصر داوود على الرجوع إلى الكرك . فانتقل جيش حلب من الدفاع إلى الهجوم ،واستولى على معرّة النعمان ، وحاصر حماه بينما عمد ولاتّها إلى تجديد التحالف مع السلطان كيخسرو الثاني ورفضوا العروض التي تقدم بها على التوالي كل من الصالح أيوب والعادل الثاني والجوّاد . وكان الصالح أيوب يواجه متاعب مع الخوارزميين الذين تخلّوا عن خدمة كيخسرو وانضمّوا إلى ارتق ارسلان صاحب ماردين . ففرّ إلى سنجار ، لكنه عندما حاصره هناك بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل

أرسل قاضي سنجار متخفياً إلى الخوارزميين لكي يتوسّل ان يقفوا بجانبه . فزحف هؤلاء على سنجار وهزموا قوات الموصل ، ثم قاموا بطرد جيش سلجوقي كان قد ضرب حصاراً حول اميدا ، واستولى على حصن نصيبين وإقليم الخابور من أجل الصالح أيوب ، فأعطاهم هذا بالمقابل ولاية ديار مُضر (في غربي الجزيرة) .

وكان الجوّاد عند اواخر سنة ١٢٣٨ قد أخذ يتخوّف من هجوم مصري بالاتفاق مع الناصر داوود ، فدعا أيوب إلى امتلاك دمشق مقابل اعطائه بعض النواحي في بلاد ما بين النهرين . لكنه سبق لأيوب ان اكتسب شهرة قرعت ناقوس الخطر لدى جيران دمشق . وعليه ، فلمّا فرغ من توطيد نفسه بدمشق وتقدّم على فلسطين لتنظيم غزو مصر من هناك ، برز له من جديد عمه الصالح اسماعيل الذي خرج من بعلبك برفقة المجاهد صاحب حمص ، واستولى على دمشق من ابن أيوب المغيث عمر (في ٣٠ أيلول سنة ١٢٣٩) . ووقع أيوب في الأسر على يد الناصر داوود في نابلس ، بعد ان هجره جميع عساكره فيما عدا ٨٠ مملوكاً ، ثم سجنه الناصر في الكرك .

وانتهت عند هذه المرحلة الحاسمة مدّةُ المعاهدة التي تمّ التفاوض حولها مع فردريك على ان تدوم عشر سنوات وخمسة أشهر وأربعين يوماً ابتداءً من ١٨ شباط سنة ١٢٢٨ ، فأستأنف الصليبيون نشاطاتهم تحت امرة ثيوبالد الكمباني (Theobald of champagne) (١٥) وأرسل العادل الثاني قوّة إلى فلسطين في شهر تشرين الأول ، حيث انزلت بالصليبيين خسائر فادحة بالقرب من عسقلان (١٣ تشرين الأول) مما حملهم على التخلّي عن مشروعهم في إعادة تحصين عسقلان . ثم قام الناصر داوود في الشهر نفسه بمحاصرة القدس ، بعد ان كان الفرنجة قد بدأوا في إعادة بناء تحصيناتها الدفاعيّة ، ونجح في منتصف

---

١٥ – انظر تاريخ الحملات الصليبية ، المصدر السابق ، ج ٢ . الفصل ١٣ .

شهر كانون الأول في اقتحام برج الملك داوود واحتلال المدينة من جديد . بيد أنه على الرغم من هذه الانتصارات المحليّة لم يكن الامراء الايوبيون ولا كانت الإمارات الأيوبيّة في وضع يسمح لهم ولها بالدخول في أية عمليّات جدّية . فقد كانت الأمور في مصر بنوع خاص وتحت حكم السلطان الصغير العادل الثاني ، تسير من سيء إلى أسوأ . وكان هذا قد أنفق بتبذيره المتهوّر تلك الأموال الاحتياطيّة البالغة (والتي قُدّرت بستة ملايين دينار وعشرين مليون درهم) التي خلّفها الكامل ، كما انه نشب عداء مكشوف بين الأكراد والأتراك في الجيش المصري . فالمماليك كانوا يعانون الظلم ويميلون إلى التمرّد ، ولقد بلغ بالعساكر احتقارهم للعادل مبلغاً جعل الامير ركن الدين الحجاوي (وهو القائد الذي هزم الصليبيين في عسقلان) يبادر إلى صفع العبد الأسود الذي كان يحمل إبريق العادل السلطاني وإلى انتزاع الرنك من بين يديه ، عندما راح حامل الأبريق في إحدى المناسبات يطلع الأمير مزهواً على «الرنك» (الشارة أو الرمز) الذي تلقّاه السلطان لتوّه تقديراً لإحدى بطولاته العسكريّة . [٩]

وأخذ المظفر تقي الدين الثاني ، أمير حماه ، زمام المبادرة في حقن النظام الأيوبي بشيء من العزم المنشّط والتصميم الجديد . وكان هذا مخلصاً لسياسة التحالف مع مصر ضد الحلف الذي أصبح بمثابة تقليد الآن وتألّف من دمشق وحمص وحلب ، فاعتبر ان تولية سلطان قوي في مصر هي شأن على الدرجة الأولى من الأهميّة ، وتركزّت آماله المعقودة كلها على الصالح أيوب . لقد تكلّلت بالنجاح توسلاته إلى الناصر داوود ، فأقدم هذا الأخير على إطلاق سراح أيوب في ١١ نيسان سنة ١٢٤٠ بناء على اتفاق محلّف أقسم فيه المظفّر بتحويل دمشق وبلاد ما بين النهرين إلى ولاية داوود لقاء مساعدة الأخير له على توطيد نفسه في مصر . وجرى في الوقت نفسه تبليغ رسائل إلى الخوارزميين تستحثّهم على مهاجمة حلب وحمص . فابتسم الحظّ لأيوب هذه المرّة فجأة ، بعد ان جافاه تلك المجافاة في المرّات السابقة . وفيما كان العادل يستعدّ للزحف

على فلسطين لمواجهة داوود وأيوب ، قامت عساكره التركيّة باعتقاله في بلبيس يوم الرابع من أيار . وأرسلت إلى أيوب دعوة عاجلة . فدخل القاهرة في ٨ أيار لكي يُستقبل سلطاناً .

وتسبّب نجاح الصالح أيوب في مصر في إيقاظ حذر شديد لدى عمّه الصالح إسماعيل بدمشق الذي خشي ، ولم تكن خشيته دون مبرّر (مع ان أيوب كان قد تنازع مع داوود) ان يكون الصالح مصمّماً على الإحاطة به أيضاً . وبما ان الخوارزميين كانوا يقومون بعمليّاتهم على حدود حلب ، فلم يكن بوسعه الأمل في الحصول على تأييد يستحقّ الذكر من تلك الناحية . فالتفت تبعاً لذلك صوب الصليبيين ، وحاز على موافقة ثيوبالد والداوية في إنشاء تحالف دفاعي ضد مصر لقاء تنازله عن صفد وشقيف ارنون وبقية صيدا وطبريا ، ثم احتشدت الجيوش المشتركة في يافا . حتى ان اسماعيل سمح للصليبيين في ان يدخلوا دمشق لابتياع الأسلحة ، فأدّى عمله هذا إلى إغضاب سكان دمشق المسلمين وإثارة إستيائهم الشديد .

غير ان الصالح أيوب كان منهمكاً أشد الانهماك في إعادة تنظيم مملكتــه وجيشه . فقد أقنعته تجربته مع الأكراد الذين هجروه في فلسطين خلال السنة السابقة ، مثلما أقنعه تمرّد العساكر الأيوبيّة على النظام في مصر وعدم إخلاصها لأبيه وأخيه ، بان الاعتماد على هؤلاء واولئك هو امر متعذّر . وبعد أن أخمد مشاغبات العربان في صعيد مصر بعنف شديد ، وأعاد الاستقرار المالي ، وطّد نفسه على خلق فرقة جديدة من المماليك الاتراك المنتقين وتكوينها بشكل منتظم ، ثم عمد إلى إقطاع هؤلاء المماليك الإقطاعات والمناصب التي كان يحتلّها أمراء العساكر «الكامليّة» و «الأشرفيّة» ، وإلى تشييد قلعة وثكنات جديدة لهم في جزيرة الروضة بقرب القاهرة . واتجه القسم الأكبر من الاهتمام الذي أولاه الصالح أيوب للشؤون الخارجيّة ، بدلاً من ان يولي اهتمامه للأحداث الجارية

في بلاد الشام(١٦) ، إلى إرسال قوّة من عساكر المماليك لطرد اليمنيين من مكّة وإلى إعداد اسطول عند السويس لشن حملة على اليمن . فقد أزالت المفاوضات التي بدأها ريتشارد أوف كورنول في شهر كانون الأول سنة ١٢٤٠ دون ريب أية مخاوف ربما تكون قد ساورت الصالح . ولعلّ تأخيره في الموافقة على الاعتراف باحتلال الصليبيين لعسقلان وعلى إطلاق سراح الأسرى المحتجزين في مصر كان مردّه إلى استخدامه للأسرى في أعمال منشآته العسكريّة .

وقام الخوارزميون . حلفاء الصالح أيوب الشماليون . في أثناء هذه المفاوضات بمهاجمة بلدان حلب ، فالحقوا بجيش حلب هزيمة نكراء (وهو الجيش الذي قاده ابن صلاح الدين : المعظم توران شاه) عند قلعة بزاعة في ١١ تشرين الثاني سنة ١٢٤٠ ، ونهبوا الأرياف التابعة لحلب كما استولوا على منبج . فتحرّك أمير حمص الجديد المنصور إبراهيم . وكان أبوه المجاهد قد توفي لتوّه ، لنجدة أقربائه ، وأرسلت عساكر إضافية من دمشق(١٧) ولمّا شن الخوارزميون غارتهم الثانية للنهب في شهر كانون الثاني . وخرّبوا أثناء سيرها مناطق سرمين وشيزر ، قامت القوات المتحالفة بتعقبّهم عبر الفرات وهزمتهم بالقرب من الرها في ٦ آذار سنة ١٢٤١ ، فتمّ اقتسام مدن الجزيرة بين المنتصرين وبدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، ثم اجتمع جيش حلب مع قوّة سلجوقيّة وسار الاثنان ضد توران شاه ابن الصالح أيوب ونائبه ، فأرغموه على التنازل عن أميدا للسلطان السلجوقي كيخسرو الثاني. ولم تمض بضعة أشهر حتى كان الخوارزميون. بعد ان تجهزّوا ثانية في عانة ، قد تحالفوا مع المظفر غازي صاحب ميافارقين

---

١٦ — بشأن المعركة المزعومة بين المصريين وبين الصليبيين وقوات دمشق في صيف سنة ١٢٤٠ ، انظر حاشية ستيفنسون في الصفحة ٣٢١ من كتابه **The Crusaders in the East**

١٧ — يربط مؤرخ حلب ، كمال الدين ، الاتفاقية مع دمشق باطلاق سراح أسرى الداوية المسجونين في حلب ، وإن يكن هذا الربط غير مباشر : بغية الطلب في تاريخ حلب (ترجمة بلوشيه) ، ص ٢١٣ .

وهاجموا عميدة (في شهر آب سنة ١٢٤١) . فهبّ المنصور صاحب حمص للنجدة ثانية في ربيع العام التالي ، بعد ان كانت عساكر حلب والسلاجقة قد شنّت حملة غير حاسمة في الخريف،وألحق بهم هزيمة أشدّ فداحة من الهزيمة السابقة بالقرب من المجدل على نهر الخابور في ٢٢ آب سنة ١٢٤٢ . لكن أعمالهم في السلب والنهب استمرّت في الجزيرة حتى مجيء ربيع سنة ١٢٤٣ ، وذلك عندما وجد السلطان السلجوقيّ أنه مهدّد بخطر اجتياح مغولي لبلاد الاناضول ، فأسرع إلى عقد إتفاق أعطي الخوارزميون بموجبه خربوط وتعيّنت أخلاط للمظفر غازي . إلاّ ان الموقف في الشمال تبدّل تبدلاً كلياً عندما ألحق المغول بكيخسرو هزيمة ساحقة في الثاني من تموز (١٨) ، فاحتلّ المغول عميدة وأخلاط وأخذوا يتهدّدون بلاد ما بين النهرين كلها بخطر جدّي .

وكانت للصراع في الشمال مضاعفاته في الجنوب أيضاً . فقد بقي اسماعيل صاحب دمشق خاملاً بعد ان تمّ حرمانه من تأييد حمص ، وانخفضت العمليّات إلى مجرّد تناوش ، وتصدّى داوود صاحب الكرك ، ومعه الداوية لحملةمصريّة انطلقت من غزّة فهزمها قرب القدس في شهر أيار سنة ١٢٤٢ ، لكنّه انضمّ بعد أشهر قليلة ، وعقب غارة شنّها الصليبيون على نابلس (٣١ تشرين الأول)، إلى عساكر غزّة في غارات انتقاميّة على بلاد الصليبيين . وتبدّى لوهلة ان انتصار المغول قد صدم الايوبيين وأوقع الذعر في نفوسهم ممّا حملهم على القيام بمحاولة لتسوية منازعاتهم ، لكن المفاوضات أخفقت بفعل الشكوك التي ساورت الصالح إسماعيل حول أيوب . فعمد اسماعيل إلى تجديد التحالف مع الفرنجة، بدلاً من استئناف المفاوضات الأيوبيّة ، وقام في ربيع سنة ١٢٤٤ بتمليكهم

---

١٨ – المصدر نفسه ، ص ٢٢٦ . ويذكر ابن بيبي ٢٦ حزيران كتاريخ . وانظر بشأن معركة كوزداغ ونتائجها

A History of the Crusades Vol. II, Chapt. XIX, pp. 691 – 692, and Chapt. XXI, pp. 725 – 732.

على القدس تمليكاً كاملاً بالاتفاق مع داوود صاحب الكرك والمنصور صاحب حمص . وما كان قد بدا انه خيانة فظيعة وغدر شنيع من جانب الكامل قبل خمس عشرة سنة ، أصبح الآن من الأمور المُسلَّم بها ، وحتّى إلى حدّ التخلّي عن مسجد قبّة الصخرة .

كانت شكوك الصالح اسماعيل لها ما يبرّرها . فقد أرسل المظفّر صاحب حماه سفارة إلى الأمراء الشرقيّين وإلى بغداد في شهر حزيران سنة ١٢٤٣ . ومن المؤكد تقريباً انه تصرّف هذا التصرّف بالتفاهم مع الصالح أيوب ،وأصدر تعليماته إلى قائد السفارة ان يجري اتصالاً مع الخوارزميين في طريقه ، وان يدعو زعيمهم بركة خان إلى تأييد أيوب ضد أعدائه الشاميين . واكتسح مايزيد على العشرة آلاف من الخوارزميين سهل البقاع في صيف سنة ١٢٤٤ . ثم استولوا على القدس بعد حصار قصير (٢٣ آب) واحتلّوا فلسطين ، وانضمّوا إلى العساكر المصريّة في غزّة . فأخذ المنصور صاحب حمص زمام المبادرة مرّة ثانية في تكوين تحالف يضمّ المسلمين الشاميين والفرنجة للوقوف بوجههم. وتقدّمت الجيوش المجتمعة لكل من حمص ودمشق والكرك وعكا في اتجاه غزّة . واستطاع الخوارزميون والمصريون بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس (١٩) ان يخترقوا صفوف عساكر المسلمين في الميسرة والقلب ، فقام الخوارزميون عندئذ بتطويق الفرنجة ولم يتمكن من النجاة والهرب سوى قرابة خمسين رجلاً من فرسان الداوية والاسبتاريّة (١٧ تشرين الاول) (٢٠) .

---

١٩ – يجب ألا نخلط بين بيبرس هذا والسلطان المماوكي الذي يحمل الاسم نفسه واللقب ، وقد قبض على بيبرس المذكور أعلاه بعد أشهر قليلة من تحالفه الغادر مع الخوارزميين ، وتوفي في السجن. أما بيبرس الثاني ، سلطان المستقبل ، فلم يدخل خدمة الصالح أيوب إلا في سنة ١١٤٧ ، وذلك عندما نفي سيده البندقدار ، وانخرط مماليك هذا السيد في حرس الأيوب (الذهبي ، أضف سنة ٦٤٥هـ ومن هنا جاء لقبه البندقداري .

٢٠ – انظر بشأن وقعة الحربية
A History of the Crusades, Vol II, Chapt. XVI, pp. 562 – 564

فما كان من بيبرس حتى سار فوراً على رأس فرقته لمحاصرة عسقلان ، بينما استولى ولاة الصالح أيوب على فلسطين . وحدث بعد ذلك بزمن قصير ان توفي المغيث بن أيوب في سجنه بدمشق الذي كان محتجزاً فيــه منذ سنة ١٢٣٩ ، فاستبدّ الغضب بأبيه وقام أيوب بتعزيز عساكره ثم سيّرهم إلى جانب الخوارزميين للزحف على دمشق . واستسلم إسماعيل والمنصور بشروط .بعد حصار مرير دام طيلة الصيف التالي كلّه (٢ تشرين الأول ، سنة ١٢٤٥) ؛ فأعطي الأول بعلبك وبصرى . مما قوبل باستياء شديد من جانب أيوب . وكان قد احتلّ دمشق القائد المصري مُعين الدين الشيخ ، فجاء أول عمل له بحظر الخوارزميين من دخول المدينة لإنقاذها من مغبّة عنفهم ، ثم عيّن لهم فلسطين الغربيّة . فتمرّد الخوارزميون . بعد ان حُرموا من الوصول إلى غنائمهــم المرتقبة ، وكسبوا إلى جانبهم القائد المصري في غزّة ركن الدين بيبرس ، بعد ان قاموا بنهب قسم من الغوطة ، ثم تحالفوا مع داوود صاحب الكرك (فاستردّ هذا القدس ونابلس والخليل نتيجة ذلك التحالف) ، وعملوا في خدمة الصالح إسماعيل لكي يحاصروا بالأصالة عنه شركاءهم السابقين في دمشق .

وكان الاحتمال في ان يقوم الخوارزميون بنهب دمشق أمراً له وقع مؤثر في نفس المنصور صاحب حمص . فتخاصم مع إسماعيل وانحاز إلى جانب حلب فتحالف معها ، واخذ يعدّ العدة للتعاون مع المصريين في رفع الحصار عــن دمشق . غير ان الخوارزميين الذين كانوا قد حاصروا المدينة طيلة اشهر ثلاثة انسحبوا قبل ان يتسنّى للمنصور تحقيق وحدته واستداروا لمعالجة أمره ، ناهبين ومخرّبين كل ما وقع في طريقهم . فتصدّت لهم خارج حمص عساكر حمص وحلب ، تعزّزها سرايا من الخيالة العرب والتركمان ، وهزمتهم هزيمة كاملة (في ١٩ أو ٢١ أيار ، سنة ١٢٤٦) وكانت هذه نهاية الخوارزميين كقوّة مقاتلة ، فتشتّتت بقاياهم لكي تبحث عن خدمة يمكنها القيام بها . أماالصالح إسماعيل فقد فرّ إلى حلب ، تاركاً بعلبك ليحتلّها حاكم دمشق ، ونُقــل

ابناؤه أسرى إلى المنفى في مصر ، لكن الناصر يوسف رفض الاستجابة لطلب أيوب في أن يسلّمه إسماعيل . وتصدّت قوة مصريّة لداوود صاحب الكرك فهزمته عند السلط في ١١ ايلول ، ثم حاصرته في الكرك وسمحت له أخيراً أن يحتفظ بالكرك مقابل تخلّيه عن جميع أراضيه الأخرى وعن الخوارزميين الذين التحقوا في خدمته . ثم بدأ الصالح أيوب في آذار سنة ١٢٤٧ جولةً رسميّة لتفقّد ممتلكاته الشاميّة ، فقدّم الهبات للمدارس والأوقاف الدينيّة والأعيان ؛ بينما كانت عساكره بقيادة فخر الدين ابن الشيخ تستولي على طبريا في شهر حزيران بعد أن واجهت مقاومة جريئة . ثم مضت هذه العساكر إلى محاصرة عسقلان والاستيلاء عليها وتجريد قلعتها التي أعيد بناؤها حديثاً من وسائلها الدفاعيّة وتحصيناتها (٢٤ تشرين الأول) .

وكان المنصور صاحب حمص قد توفي بالسلّ عقب اشهر من انتصاره على الخوارزميين ، فخضع ابنه الصغير الأشرف موسى الثاني لسيطرة أيوب كلياً. فأدّى تخفيض حمص إلى منزلة الامارة التابعة والتخلّص الفعلي من إمارة الكرك إلى إحداث تبدّل خطير في ميزان القوى ببلاد الشام ، وجاء هذا التبدل في غير مصلحة الناصر يوسف ، صاحب حلب الشاب والطموح . وتَمّ اجتذاب أمير حماه ، المنصور محمّد ، البالغ من العمر أربعة عشر عاماً (وكان هذا الفتى قد خلف المظفر بعد موته في تشرين الأول سنة ١٢٤٣) إلى فلك حلب بتزويجه من ابنة عمه عائشة ، أخت الناصر يوسف . ولما كان الصالح أيوب ، الذي سبق له أن عانى من دائه المميت ، قد التفت نحو مصر في العام التالي ، فإن الناصر يوسف قام بتشكيل حلف مع بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وبضرب حصار على حمص . ممّا أرغم الأشرف موسى ، بعد أن تأخّر وصول النجدات المصريّة الموعودة ، على تسليم حمص والقبول بتل باشر بدلاً عنها كتابع ليوسف . غير أن أيوب زحف على دمشق ، بالرغم من مرضه الخطير ، وحاصر حمص في منتصف الشتاء ، لكن حالته الصحية المتدهورة والأخبار الواردة عن احتشاد

الصليبيين في جزيرة قبرص أقنعته في أن يقبل شفاعة رســول أوفده الخليفة المستعصم وان يتوصل إلى تفاهم مع يوسف . وجرى نقل أيوب إلى مصر في ١٩ نيسان سنة ١٢٤٩ ، فأصدر أوامره على الفور بأن يتمّ تزويد دمياط بمخازن أسلحة ومؤن وأن يتمّ في القاهرة تجهيز أسطول نهري(٢١) .

ولم يترك تراجع القائد المصري فخر الدين ابن الشيخ عن دمياط في اليوم التالي لوصول اسطول الصليبيين ، وهو تراجع غير متوقّع ولا تفسير له ، وقد نجم عنه إخلاء للمدينة — لم يترك للصالح أيوب سوى خيار واحد : ألا وهو تركيز قواته على معسكر المنصورة المحصّن . فقد قامت عساكره الدمشقيّة ، خلال الفاصل الزمني الطويل الذي تلى ذلك ، بمحاصرة صيدا والاستيلاء عليها (بين شهري تموز — آب) وذهب داوود للانضمام إلى الناصر يوسف في حلب ، تاركاً ابناءه يتقاتلون على الكرك ، لكي يحتلّها حاكم مصري في نهاية الأمر . إلاّ أن وفاة أيوب في ٢٢ تشرين الثاني لم تؤثر في الموقف المباشر ، وذلك بفضل الآلة القتاليّة الناجحة التي كان قد أوجدها وبفضل الشخصيّة القويّة لمحظيّته شجر الدر . وهي التي كتمت نبأ وفاته وقامت بالسيطرة على الإدارة باسمه . وقد استدعت شجر الدر ، بالاتفاق مع المماليك البحريّة ، ابنه توران شاه من حصن كيفا ، لكن هذا الأخير لم يصل إلاّ عند نهاية شهر شباط .

وفي تلك الأثناء كانت الحملة الشاقّة عند المنصورة قد أسفرت عن إعادة رصف بارزة للقوات في الجيش المصري ، علماً بأن العساكر النظاميّة تلقّت في تلك الحملة دعمَ عصابات مصريّة من المتطوعين ، وهم الذين استثـار حماسهم الوعظ الذي ألقاه فيهم الشيخ المراكشي أحمد البدوي . وخلال المعركة التي تلت في ٨ شباط سنة ١٢٥٠ ، وعندما قام الصليبيون بعبور إحدى المخاضات

٢١ — فيما يتعلق بالحملة الصليبية التي قادها لويس التاسع ، انظر
A History of the Crusades, Vol. II, Chapt. XIV, pp. 494 – 504.

وهاجموا المعسكر المصري ، فإن وفاة فخر الدين الشيخ قد تلاها انتشار الذعر بين صفوف عساكره ؛ لكن استعادة المركز تمّت بفضل هجوم مضاد عنيف شنّه المماليك البحريّة بقيادة ركن الدين بيبرس البندقداري . فأصبح المماليك البحريّة منذ هذه اللحظة في مركز السلطة والسيطرة ؛ وهم الذين جنوا الفضل الأكبر من عمليّة القضاء على جيش الصليبيين عند فارسكور في السادس من شهر نيسان . وعليه ، فإنهم لم يكونوا على مزاج يسمح لهم بالإذعان لمحــاولات توران الشاه إلى استبدالهم في مناصب الدولة بجماعته من العراقيين . فازدادت حدّة الانفعال لدى الجانبين ، وعندما قام توران شاه بارسال كتاب تهديد إلى شجر الدر ، كان كتابه بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير . وعمد ضباط المماليك تحت قيادة بيبرس إلى مهاجمة توران شاه وقتله يوم الاثنين في ٢ أيار ، لاعتقادهم بأن توران شاه قد قرّر التخلّص منهم ، ثم بادروا إلى إعلان شجر الدر سلطانة على مصر ومليكة للمسلمين . أما المفاوضات مع لويس التاسع فقد أوصلها إلى خاتمة نائب أيّوب السابق ، الهَذباني ، وأعيد احتلال دمياط في السادس من أيار (٢٢) .

وتنزع الطريقة المسرحيّة التي تمّ فيها إنهاء وجود السلالة الأيوبيّة بمصر نحو إخفاء التطورات التي وصلت إلى ذروتها بمقتل توران شـــاه . وكان قد سبق للصالح أيوب في الواقع أن قطع الصلة بمبادىء الحكم الأيوبي كانت تعوزه المزايا الشخصيّة التي استندت إليها سلطة أسلافه ، والتي حافظت على تضامن البيت الأيوبي ، فحاول أن يسدّ هذا النقص ببناء آلة عسكريّة (سيطر عليهـــا بقساوة لا تعرف الرحمة والرأفة) من أجل فرض مشيئته . فهو لم يعامل الأمراء الآخرين من بني أيوب بمثابة أقرباء بل عاملهم كاعداء (ربما شذّ عن ذلك

---

٢٢ – بشأن هذه التسوية انظر
A History of the Crusades, Vol. II, Chapt. XIV, pp. 503 – 504
وراجع الفصل الثاني والعشرين من المصدر نفسه حول سلاطين المماليك .

المظفر صاحب حماه) . ولذلك فقد دشّن حكماً فردياً لا يختلف عن حكم سلاطين المماليك الذين جاؤوا من بعده. ولم يكن لدى المقدّمين والعساكر في الفرقة المملوكيّة الجديدة أي شعور بالولاء نحو البيت الأيوبي والإخلاص له ، بل انحصر ولاؤهم بزعمائهم وقادتهم . فما ان قوبل مركزهم بالتحدّي حتى بادروا إلى إثبات وجودهم وتخلّصوا من السلطة الملكيّة من أجل مصالحهم .

على انه لم يكن متوقّعاً للأيوبيين في بلاد الشام أو لمؤيّديهم الأكراد ان يتقبّلوا انقراض فرعهم المصري بناء على أوامر أملاها المماليك الأتراك فلا تثور ثائرتهم . فقد عمد حاكم الكرك إلى تنصيب المغيث عمر ، وهو أحد أبناء العادل الثاني ، سلطاناً في شرقي الأردن ، بينما قامت عساكر الأكراد في دمشق بدعوة الناصر يوسف صاحب حلب لتسلّم زمام المدينة ، فأدخلته إليها في ١١ تموز . واقترنت شجر الدر في الثلاثين من تموز إلى القائد التركماني العام أيبك ، ثم تنازلت عن المُلك لصالحه . فاعترفت به العساكر سلطاناً على الفور ، وحمل لقب المُعزّ ، لكن الأمراء قرّروا ، نظراً لما قد ينجم عن ذلك من ردود فعل في بلاد الشام ، أن يشركوا أميراً أيوبياً معه فأختاروا لهذا الغرض حفيداً من أحفاد الكامل ، وهو الأشرف موسى الثالث وله من العمر حينذاك ست سنوات. ولم تمض فترة وجيزة حتى أسقطوا الأشرف بهدوء واختفى عن المسرح .

وتصدّت المماليك البحريّة في تشرين الأول للتحرّك الأول الذي قامت به قوات الناصر يوسف من دمشق إلى غزّة . فعمد الناصر يوسف حينئذ إلى تشكيل ائتلاف يضمّ جميع الأيوبيّين الشاميين ، ثم خرج على مصر من جديد في شهر كانون الأول . ومن المُسلّم به أن عواطف السكان ومعظم عساكر الجيش كانت تقف إلى جانبه ، لكن المماليك أرغموه على الفرار في الثاني من شباط ١٢٥١ عقب قتال مشوش عند الحدود المصريّة . فتمّ أسر العديد من الأمراء الأيوبيين في أثناء هزيمة الجيش الشامي ، ومن بينهم الصالح إسماعيل الذي أعدم

بأمر من أيبك . وا لمحارب القديم توران شاه ، ابن صلاح الدين . الذي أطلق سراحه بطريقة مشرّفة إلى جانب غيره من الأيوبيين . ثم تحرّكت القوات المصريّة إلى فلسطين ، لكنّها إنسحبت من جديد عندما زحف الناصر يوسف على غزّة للمرّة الثالثة فاحتلّ داروم ، ويبدو ان ذلك قد تمّ قبل نهاية السنة ذاتها . كما يبدو من المصادر الغربيّة ان هذه الحملة الثالثة لم تكن تستهدف اجتياح مصر ؛ بل كانت تهدف إلى الحيلولة دون اتصال الجيش المصري مع الملك لويس التاسع ، وكان هذا الأخير قد رفض العرض الذي تقدّم به الناصر في ان يتخلّى له عن القدس مقابل إنشاء تحالف بينهما ؛ وذلك بعد ان استجاب أيبك لطلبه في إطلاق سراح جميع الأسرى الصليبيين . وقلّما تذكر المصادر العربيّة نشاطات لويس التاسع في فلسطين خلال هذه السنوات (٢٣) . فقد كانت الجيوش المصريّة والشاميّة تقف في مواجهة بعضها بعضاً طيلة ما يزيد على السنة ، بينما كانت المفاوضات مستمرّة . وأخيراً . تنازل الناصر عن القدس لأيبك(٢٤) عند أواخر شهر آذار من سنة ١٢٥٣ ، وعقد الصلح . وفيما عدا أعمال المضايقة التي قامت بها القوات الشاميّة وهي في طريق عودتها إلى دمشق، فقد تُرك لويس وشأنه لكي يتابع أعماله في التحصينات دون ان يعكر صفوها شيء ، وقام قبل عودته إلى فرنسا بالتوقيع على معاهدة صلح مع دمشق مدّتها عشر سنوات وستة أشهر وأربعين يوماً .

وأدّى العنف من جانب المماليك البحريّة في مصر وعدم تقيّدهم بالأوامر والنظام إلى قطيعة علنيّة مع ايبك في سنة ١٢٥٥ . فقد فرّت اكثرية المماليك البحريّة إلى دمشق بعد أن أعدم أيبك قائدهم ، ورحّب بهم الناصر يوسف

---

٢٣ – انظر **A History of the Crusades** Vol.II, Chapt. XIV, pp. 504 - 508

٢٤ – يقول الذهبي (أضف إلى هذا سنة ٦٥٠ هـ) على نحو محدد واضح ان نابلس ونواحيها كانت ستبقى تحت حكم الناصر ، ولكن قارن ذلك بما جاء في :
A History of the Crusades Vol. II, Chapt. XXII, pp. 742 – 743

في دمشق كحلفاء له ضد مصر . وقام جون أوف ايبلين خلال فترة التوتر المتجدّد بزجّ المصريين عند غزّة في مناوشات وغارات عبر الحدود ، لكن لمّا أعاد أيبك الصلح مع الناصر في سنة ١٢٥٦ بالتخلّي له عن فلسطين ، تَمّ تجديد معاهدة السنوات العشر مع الفرنجة وتوسيع مداها ونطاقها ، بحيث صارت تشمل مصر أيضاً .

وبقي بيت صلاح الدين الأيوبي صاحب السيادة العليا في بلاد الشام طيلة ما يقارب أربع سنوات أخرى ، وذلك في شخص حفيده الأكبر الناصر يوسف ، رغم ان هذا كان قد تورّط من حين إلى آخر في نزاع مع المغيث صاحب الكرك حيث كانت أسباب الخلاف تعود في المقام الأول إلى ما أقدم عليه مماليك البحريّة في تحويل خدماتهم وفقاً للنزوات من أمير إلى آخر . فلمّا استدعاه هولاكو المغولي بعد الاستيلاء على بغداد لتقديم ولائه في سنة ١٢٥٨ ، قام الناصر يوسف بإيفاد ابنه العزيز محمّد لينوب مكانه ، ولكن عندما باشر هولاكو في حملته الغربيّة سنة ١٢٥٨ ، عمد الناصر إلى ترك الدفاع عن حلب بيد توران شاه واتخذ هو موقعاً خارج دمشق يسانده المنصور الثاني صاحب حماه . وبعث في الوقت نفسه برسول إلى السلطان المملوكي الجديد قُطُز لكي يتوسّل العون منه . غير ان المنصور انسحب ، عقب نهب المغول لحلب في كانون الثاني سنة ١٢٦٠ ، مع عساكره الشاميّة والمماليك البحريّة لكي ينضمّ إلى جيش قُطُز . فتمّ احتلال دمشق يوم أول آذار ، وسقطت بدورها كل من بانياس وعجلون ونابلس وغيرها من القلاع والحصون . أما الناصر الذي فرّ إلى شرقي الاردن ، فقد قبض عليه مرافقوه الأكراد بالذّات وقاموا بتسليمه إلى القائد المغولي كيتبوغا (٢٥) . وزحف قُطُز على بلاد الشام في شهر آب يرافقه المنصور ، الذي أبلى بلاءً حسناً في معركة عين جالوت الحاسمة (٣ أيلول) وأُعيد إلى تولّي

---

٢٥ — قام هولاكو باعدامه حين وصلته أخبار هزيمة الجيش المغولي في معركة عين جالوت .

إمارته في حماه . وكذلك أعيد الأشرف موسى الثاني صاحب حمص إلى ولاية إمارته ، مع انه كان قد انضمّ إلى هولاكو في بداية الأمر ، أما حلب فقد جرى وضعها تحت حكم غير أيوبي .

وتمّ إرسال جيش مغولي ثان من العراق إلى بلاد الشام بعد مضي سنة واحدة ، فاستولى هذا الجيش على حلب من جديد (في شهر تشرين الثاني سنة ١٢٦١) . وانكفأ المنصور إلى حمص حيث تضافرت قواته هناك مع قوّات الأشرف . فأنزل الأميران الايوبيان هزيمة بالقوات المغوليّة في معركة وقعت خارج حمص (١٠ كانون الأول)وقامت عساكرهما بطرد المغول وإرجاعهم. ويصل تاريخ الأيوبيين النشط في بلاد الشام إلى نهايته بهذه المأثرة غير المغمورة. فقد أقدم السلطان المملوكي بيبرس في سنة ١٢٦٣ على قتل المغيث غدراً ثم استولى على الكرك ، وأخمد امارة حمص في السنة التالية لدى وفاة الأشرف موسى . فلم يُسمح إلاّ للمنصور وحده ، باعتبار إخلاصه والخدمات التي أسداها ، ان يحتفظ بإمارته في حماه ، حيث بقي بيت تقي الدين مستمرّاً حتى سنة ١٣٤١ ولم ينقطع استمراره سوى لفترة وجيزة خلال تلك المدّة .

* * *

صلاح الدين الأيوبي

ببليوغرافيا

١ ـ الكتب

ـ ابن شداد، محمد بن علي. الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة. حقق سامي الدهان الجزء الخاص بدمشق. مطبوعات المعهد الفرنسي بدمشق، ١٩٥٦.

ـ ابن شداد، أبو المحاسن يوسف بن رافع. في سيرة صلاح الدين الأيوبي، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية. صححه وحققه وشرح غريبه محمد محمود صبح. القاهرة، دار الكتاب العربي، لا.ت. ٤٢٣ ص. (من التراث القديم).

ـ ابن شداد، أبو المحاسن يوسف بن رافع. النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية. القاهرة. مطعبة الآداب، ١٨٩٩. ومطبعة محمد علي سبح، ١٩٢٧.

ـ ابن منقذ، أسامة أبو المظفر مجد الدين. كتاب الاعتبار، حرره فيليب حتي، مطبعة جامعة برنستون، ١٩٣٠ م ١٣٤٩ هـ ونقله إلى الانكليزية بعنوان:

An Arab-Syrian gentleman and Warrior in the period of the Crusades. Memoirs of Usamah ibn Mnnqidh (Kitab al-Itibar).

مطبعة جامعة كولومبيا، نيويورك، ١٩٢٩ م ١٣٤٨ هـ.

ـ ابن واصل، محمد بن سالم. مفرج الكروب في أخبار بني أيوب. تحقيق جمال الدين الشيال، منشورات الإدارة العامة للثقافة بوزارة المعارف، مطبعة جامعة القاهرة، الجزء الأول، ١٩٥٣ م ١٣٧٢ هـ الجزء الثاني ١٩٥٧ م، ١٣٧٦ هـ.

ـ أبو حديد، محمد فريد. صلاح الدين الأيوبي وعصره. القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩١٤ ثم ١٩٢٧. ٢٠٣ ص. خرائط. صور.

ـ أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل. كتاب الروضتين في أخبار الدولتين. القاهرة: مطبعة وادي النيل، ١٨٧٠.

ـ أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل. كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية. تأليف شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي المعروف بأبي شامة. نشر وتحقيق محمد حلمي محمد أحمد. القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٦.

ـ أرملة، إسحق. الحروب الصليبية في الآثار السريانية. بيروت: المطبعة السريانية، ١٩٢٩.

ـ بدوي، أحمد أحمد. الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام. القاهرة: مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٣.

ـ بدوي، أحمد أحمد. الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام. القاهرة: مكتبة مصر، ١٩٥٢.

ـ البنا، عبد الرحمن. صلاح الدين الأيوبي ـ منقذ فلسطين. القاهرة: مطبعة دار الكتاب العربي ١٩٥٢، ١٢٨ ص.

ـ بيلي، أحمد. صلاح الدين يوسف بن أيوب. القاهرة: ١٩٢٠.
٢٠٩ ص. صور، خرائط. المراجع: ص ٢٠١ ـ ٢٠٢.
ط ٢. القاهرة: المطبعة الرحمانية، ١٩٦٦، ٢٣٤ ص.

ـ بيومي، علي. قيام الدولة الأيوبية في مصر. القاهرة: دار الفكر الحديث، ١٩٥٢.

ـ التميمي، رفيق. الحروب الصليبية. يافا: ١٩٤٧.

ـ جمعة، خالد حسن. الوحدة العسكرية سبيل التحرير: دراسة الأبعاد الحقيقية لقيادة صلاح الدين الأيوبي. بغداد: مطبعة الحوادث، ١٩٧٩، ٥٥ ص.

ـ جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت: المعهد العالي للدراسات الإسلامية. مؤتمر صلاح الدين الأيوبي

بمناسبة مرور ثمانماية عام على وفاته، ٢٢-٢٦ آذار ١٩٩٤ . دراسات اسلامية ٥-٣٠٨ ص.
ـ حبشي، حسن. الحروب الصليبية. مذيلة بالترجمة العربية الكاملة للحوليات الفرنجية Gesta Francorum. القاهرة: مطبعة الاعتماد، ١٩٤٧.
الطبعة الثانية: القاهرة: مطبعة الاعتماد، ١٩٥٨.
ـ حبشي، حسن. الشرق العربي بين شقي الرحى: حملة القديس لويس على مصر والشام. القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٤٩.
ـ الحريري، سيد علي. كتاب الأخبار السنية في الحروب الصليبية. القاهرة. المطبعة العمومية، ١٣١٧ هـ ـ ١٨٩٩ م الطبعة الثانية، القاهرة: ١٣٢٩ هـ ـ ١٩١١ م.
ـ حسين، فوزي بخيت. صلاح الدين وتوحيد الجبهة الإسلامية زمن الصليبيين. رسالة ماجستير، جامعة القاهرة. كلية الآداب (١٩٥١) ١٩٤٥، ٢٦٠ ص.
ـ حسين، محمد أحمد. أسامة بن منقذ: صفحة في تاريخ الحروب الصليبية. القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٤٦.
ـ حسين، محسن محمد. الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين: تركيبه، تنظيمه، أسلحته، بحريته، وابرز المعارك التي خاضها. ط ١. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٦، ٥٣٦ ص.
ـ حلواني، أحمد عبد الكريم. ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين في عهد الدولتين النورية والأيوبية. دمشق: دار الفداء، ١٩٩١، ١٦٧ ص. ببليوغرافيا. ص ١٥٧ ـ ١٦٤.
ـ حمزة، عبد اللطيف. أدب الحروب الصليبية. القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٤٩.
ـ حمزة، عبد اللطيف. الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي. القاهرة: دار الفكر، ١٩٤٧.
ـ حمزة، عبد اللطيف. صلاح الدين بطل حطين. القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٣٧. ٢٦٤ ص. ثم سنة ١٩٥٨، ثم سنة ١٩٧٢.
ـ حوى، سعيد. بطلا الحروب الصليبية في المشرق والمغرب يوسف بن تاشفين وصلاح الدين الأيوبي. حماة: دار الأندلس، ١٩٧٢. ٧٨٠ ص.
ـ درويش، إبراهيم محمد. قيام الدولة الأيوبية في مصر. القاهرة: دار الفكر الحديث، ١٩٥٢.
ـ الدهان، سامي. الناصر صلاح الدين الأيوبي. القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٠، ١٥١ ص. (سلسلة اقرا، ٢٠٧).
ـ الرويهي، أحمد عبد الجواد. صلاح الدين الأيوبي. القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٥٦، ١٩٢ ص.
ـ ربيع، أحمد. حياة صلاح الدين الأيوبي. القاهرة: لا.ت.
ـ زكار، سهيل. حطين مسيرة التحرير من دمشق إلى القدس. ط١. دمشق: دار حسان، ١٩٨٤، ٢٩٥ ص: خرائط.
ـ سعداوي، نظير حسان. التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الأيوبي. القاهرة: مكتبة النهضة، ١٩٥٧، ٢٣٢ ص.
ـ سعداوي، نظير حسان. ثلاثة من مؤرخي الحروب الصليبية. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٧.
ـ سعداوي، نظير حسان. جيش مصر في أيام صلاح الدين. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٦.
ـ سعداوي، نظير حسان. خمسة من معاصري صلاح الدين الأيوبي. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٧.
ـ شوفيل، جنفياف. صلاح الدين بطل الإسلام. ج. شوفيل، ترجمة جورج أبي صالح. بيروت: دار الأميرة، ١٩٩٢، ٤٤٢.
ترجمة: Saldain: rassembleur de l'Islam.
ـ عاشور، سعيد عبد الفتاح. الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب. القاهرة. المؤسسة المصرية العامة، ١٩٦٥. ٢٩٩ ص. (أعلام العرب، ٤١). مراجع: ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨.
ـ عاصي، حسين. المؤرخ أبو شامة وكتابه الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية. ط ١. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩١، ٢٨٧ ص. (أعلام مؤرخي العرب والإسلام) ببليوغرافيا: ٢٧٧ ـ ٢٨٥.
ـ عماد الدين الكاتب، محمد بن محمد. الفتح القسي في الفتح القدسي. القاهرة: مطبعة الموسوعات، ١٩٠٣. والقاهرة: المطبعة الخيرية، ١٩٠٤.

- الغامدي، عبد الله سعيد محمد. صلاح الدين والصليبيون: «استرداد بيت المقدس»: دراسة جديدة تتناول جيش صلاح الدين وتنظيماته الحربية ودوره في جهاد الصليبيين. مكة المكرمة: المكتبة الفيصلية، بيروت: توزيع دار الندوة الجديدة، ١٩٨٥. ٣٣٤ ص: خرائط. ببليوغرافيا: ص ٣١٩ ـ ٣٣١.
- قاسم، أنيس. تأملات في الاحتلالين، الصليبي والصهيوني. تأليف أنيس قاسم. ليبيا: الدار العربية للكتاب، ١٩٧٥. ٢٨٨ ص. ٢١ سم. يحوي مراجع.
- قلعجي، قدري. صلاح الدين الأيوبي. بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٤٧، ١١٢ ص. (أعلام الحرية، ٧).
- كاشف، سيدة اسماعيل. صلاح الدين الأيوبي: بطل وحدة الصف العربي الإسلامي وبطل الجهاد في سبيل الله. ط ١. بيروت: عالم الكتب، ١٩٨٧، ٩٥ ص.
- كمال، نامق. أوراق بريشان. (استانبول: ١٢٨٨: ١٨٨٧ م. ٢٦٨، ١٠١ ص).
- كيلاني، محمد سيد. الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام. القاهرة: مكتبة مصر، ١٩٤٧.
- ليونز، ملكوم كامرون. صلاح الدين. ملكوم كامرون ليونزود. أ.ب. جاكسون، نقله إلى العربية علي ماضي، راجعه وحققه نقولا زيادة، فهمي سعد. بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٨٨، ٤٨٩، (٩) ص: مصورات.
- ماجد، عبد المنعم. صلاح الدين الأيوبي. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧، ١٥٢ ص. (تاريخ المصريين، ٧).
- ماجد، عبد المنعم. الناصر صلاح الدين يوسف الأيوبي. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٨. ٢١٧ ص. مراجع: ص. ١٩٢ ـ ٢٠٩.
- النشاشيبي، محمد اسعاف. البطل الخالد صلاح الدين الأيوبي والشاعر الخالد أحمد شوقي. القدس: مطبعة بيت المقدس، ١٩٣٢. ١١٠ ص. صورة في الصدر.
- نصوص تاريخية «عصر الأيوبيين والمماليك». جمعها سعيد عبد الفتاح عاشور. بيروت: دار النهضة العربية ١٩٧٢.
- النقاش، زكي. العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج خلال الحروب الصليبية. بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٠٨.
- نوري، دريد عبد القادر. سياسة صلاح الدين الأيوبي في بلاد مصر والشام والجزيرة ٥٧٠ ـ ٥٨٩ هـ ١١٧٤ ـ ١١٩٣ م. دريد عبد القادر نوري. ـ بغداد: مطبعة الإرشاد، ١٩٧٦. ٥٠٤ ص. أطروحة (ماجستير) ـ جامعة بغداد. وتلخيص بالانكليزية. المراجع: ص. ٤٧٠ ـ ٤٩٥.
- نيوباي. ب.هـ. صلاح الدين وعصره. ترجمة ممدوح عدوان. تقديم سامي الجندي. ١٩٩٣. ٢٥٧ ص.
- الوكيل، مصطفى. صلاح الدين الأيوبي. القاهرة: مكتبة المعاهد العلمية، ١٩٣٨، ١٦٠ ص. (كتاب الشهر).
- ابن الأثير، أبو الحسن محمد. الكامل في التاريخ. بيروت: دار صادر، ج ١٠ ص ٥٩٢.
ج ١١ ص ١٥، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٤٢ ـ ٣٤٧، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٦٥ ـ ٣٧٣، ٣٨٦، ٣٩٢ ـ ٣٩٦، ٣٩٨ ـ ٤٠٢، ٤٠٥، ٤٠٨، ٤١٣ ـ ٤٢٢، ٤٢٧، ٤٣١، ٤٣٤، ٤٤٠ ـ ٤٤٦، ٤٤٨، ٤٥٣ ـ ٤٦١، ٤٦٣ ـ ٥١٨، ٥٢٣ ـ ٥٥٩.
ج ١٢ ص ٥ ـ ٥٦، ٦٠ ـ ٨٩، ٩٥ ـ ٩٧، ١٠٠، ١٠٢، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٩، ١٥٥، ١٥٩، ١٧١، ٢٥٥، ٣٢٩، ٣٥٠، ٣٥١، ٤٨٠، ٤٩٢.
ج ١٣ ص ١٧٩.
- ابن خلكان. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. تحقيق إحسان عباس. بيروت: دار الثقافة/ ١٩. ج ٨ ص ١٣٧. صلاح الدين الأيوبي للملك الناصر أبو المظفر (يوسف بن أيوب بن شاذي).
ج ١ ص ١٨١، ١٨٢، ١٨٩، ١٩٦، ٢١١، ٢٥٥ ـ ٢٥٨، ٢٦٠، ٢٧٢، ٢٩٠، ٢٩٢، ٢٩٧، ٣٠٦ ـ ٣٠٩:
ج ٢ ص ١١٣، ٢٥٨، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٤٠، ٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٧، ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٧٩، ٥٢٣:
ج ٣ ص ٥٤، ٥٨، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٩، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠، ١٦٢، ٢٣٧، ٢٤٢، ٢٤٤، ٣١١، ٤٣٥، ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٩٧:
ج ٤ ص ٥، ٢٥، ٩١، ٩٢، ١٤٤، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣٥، ٣٩٠، ٤٧٢:

ج ٥ ص ٧، ١٠، ١٢، ١٤، ١٥، ١٦، ٤٤، ٧٤، ٧٥ ٧٩، ٨٨، ١٤١، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٢، ١٨٥، ١٨٧، ١٨٨، ١٩٦، ٢٠٣ ـ ٢٠٧، ٢١٤، ٣٩٠:
ج ٦ ص ٦٥، ٢٧٢:
ج ٧ ص ١٢، ٨٧، ٨٨، ٨٩ (١٣٩ ـ ٢١٨)، ٢١٩، ٣٤٢.
ـ القلقشندي. كتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشاء.
ـ فهارس كتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشاء. تصنيف واعداد محمد قنديل البلقي. القاهرة: عالم الكتب، ١٩٧٠، ص ١٤٨ وص ٢١٢.
ـ صلاح الدين يوسف بن أيوب («السلطان صلاح الدين الأيوبي»).
ج ١ ص ٤١، ٩٦، ٩٧، ١٢٢.
يوسف بن أيوب. ج ١٣، ص ٤٢.
بنو أيوب: ج ١ ص ٢٨، ٣٦٩، ٤١٧، ٤٤٤.
ج ٢ ص ١٩٨:
ج ٣ ص ٢٧٠، ٢٧٢، ٤٢٨، ٤٢٩، ٤٣٠:
ج ٤ ص ٧٠، ٩١، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠، ١٤٠، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٦، ٢٣٧، ٣١٧، ٣١٨.
ج ٥ ص ١١، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٢٨٧:
ج ٦ ص ٤١:
ج ٧ ص ١٢٠، ١٧٧، ٢٧٠، ٣٤٠، ٣٤٣:
ج ٩ ص ٤٠٣:
ج ١٠ ص ١٨٢، ١٨٣، ١٩٠:
ج ١١ ص ٣٢:
ج ١٢ ص ٣٢٣:
ج ١٣ ص ١٤٤:
ج ١٤ ص ٣٧٠.
ـ ياقوت الرومي الحموي. معجم البلدان. تحقيق فردينالد وستنفيلد. ليبزيك، ١٨٧٠.
ج ٦ ص ٤٨٠ «صلاح الدين يوسف بن أيوب».
ج ١ ص ٥٦٥، ٥٨٩، ٦٩٤، ٧٧٥، ٧٧٦، ٧٨٢، ٧٨٥، ٧٨٧، ٨٦٧، ٨٦٩:
ج ٢ ص ٢٦، ٢٨، ٣٣، ١٠٥، ٢٩١، ٥٢٥، ٥٩٧، ٨١٩، ٩١٣، ٩١٨:
ج ٣ ص ٢٢٦، ٣٠٥، ٤٣٨، ٤٤١، ٥٣٤، ٦١٦، ٦٧٤، ٧٠٨، ٧٦٠، ٩٠١:
ج ٤ ص ١٦٢، ٥٩٩، ١٠٠٣.

٢ ـ المقالات

ـ التميمي، رفيق. «الحروب الصليبية: ماهيتها، تطوراتها، نتائجها». الرسالة م ٩، ع ٤٢٢، ١٨ اغسطس ١٩٤١، ص ١٠٣٥ ـ ١٠٣٨: ع ٤٢٥، ٢٥ أغسطس ١٩٤١ ص ١٠٦٦ ـ ١٠٦٩.
ـ جران، فاروق انيس. «أسطول صلاح الدين الأيوبي». الأبحاث ج ١٣ (١٩٦٠) ص ٧٠ ـ ٩٥.
ـ الجميلي: رشيد عبد الله. «صلاح الدين و ٨٠٠ عام على حطين». الباحث العربي. ١٢/٧ ـ ١٩٨٧/٩) ص ٨٤ ـ ٩٠ ببليوغرافية.
ـ جواد، مصطفى. «نظرات في ذيل الروضتين لابي شامة المقدسي». مجلة المجمع العلمي العربي. م ٢٣ ج ٤، ١٩٤٨، ص ٦١٨ ـ ٦٣١: وم ٢٤ ج ١، ١٩٤٩، ص ١٥٣ ـ ١٥٨.
ـ حاتم، أنور. «شهود العيان على فتح الصليبيين انطاكية». المشرق. ج ٢ نيسان ـ حزيران ١٩٣٤، ص ١٧٩ ـ ٢٠١.
ـ حتي، فيليب. «تحفة الشرق لمدينة الغرب في القرون الوسطى في الكتاب الذهبي لعيد المقتطف الخمسيني». مطبعة

المقتطف والمقطم، القاهرة، ١٩٢٦. ص ١٤٠ ـ ١٥١.
- «درس في حياة أسامة بن منقذ وكتاب الاعتبار». مجلة المجتمع العلمي العربي، م ١٠، ١٩٣٠، ص ٥١٣ ـ ٥٢٥، ٥٩٢ ـ ٦٠٣.

الحديث (تحرير). «صلاح الدين الأيوبي». الحديث. السنة ٢ العدد ١ كانون الثاني (يناير) ١٩٢٨ ص ١٢٣ ـ ١٢٤.

- حسين، محمد أحمد. «صلاح الدين والصليبيون» المجلة: سجل الثقافة الرفيعة. السنة ٢، العدد ١٥ آذار (مارس) ١٩٥٨ ص ١٢ ـ ١٧. والعدد ١٦ نيسان (أبريل) ١٩٥٨ ص ١١ ـ ١٤. والعدد ١٧ أيار (مايو) ١٩٥٨ ص ١١ ـ ١٤.

- حسين، محمد كامل. «التشيع في مصر في عصر الأيوبيين والمماليك». مجلة كلية الآداب، (جامعة القاهرة) م ١٥ ج ١، مايو ١٩٥٣، ص ٥٧ ـ ٥٨.

- رباط، الأب أنطون. «العلاقات بين الشرق والغرب». المشرق م ١٤، ١٩١١ ع ٧ (تموز) ص ٥٤٨ ـ ٥٥٢.

- رضا، محمد رشيد. «ذكرى صلاح الدين ومعركة حطين». المنار ج ٣٢ (١٩٣٢) ٥٩٣ ـ ٦٠٦.

- زكار، سهيل. «وقائع معركة حطين». تاريخ العرب والعالم. ٩: ١٠٥ و ١٠٦ (٧ و ١٩٨٧/٨) ص ٧٠ ـ ٨١ رسوم.

- زيادة، نقولا. «سوريا في زمن الصليبيين». المقتطف م ٨٧، يونيو ١٩٣٥، ص ١٦ ـ ٢٣ يوليو ١٩٣٥، ص ١٩٣ ـ ٢٠٣.

- زريق، قسطنطين. «جندي في جيش صلاح الدين». المكشوف (بيروت) م ٢، ٢٤، آذار، ١٩٣٧، ع ٨٨، ص ٢، ١٤ ـ ١٦.

- زريق، قسطنطين. «ما ساهم به المؤرخون العرب في المئة سنة الأخيرة في دراسة التاريخ العربي عن فترة الحروب الصليبية». الأبحاث ج ١٢ (١٩٥٩) ص ٢٣٢ ـ ٢٥٩؛ وص ٢٨٢ ـ ٢٩٢.

- الشتيوي، أحمد. «مواقف ابن جبير السياسية من خلال رحلته». حوليات الجامعة التونسية ٢٩ (ـ ١٩٨٧) ص ١٩١ ـ ٢٢٣ بيليوغرافية (مراجعة كتاب).

- الشيال، جمال الدين. «الجاسوسية في حروب الأيوبين». المقتطف ج ٩٩ (١٩٤١) ص ٤٦٦.

- الطيان، سعيد. «موقعة حطين: دراسة عسكرية». تاريخ العرب والعالم. ٩: ١٠٥ و ١٠٦ (٧ و ١٩٨٧/٨) ص ٨٨ ـ ٩٦ بيبلوغرافية. رسوم.

- عنان، محمد عبد الله. «الشرق والغرب: فكرة الحروب الصليبية». الهلال م ٣٤، ١٩٢٦، ٧٠٩ ـ ٧١٤.

- «فلسطين في التاريخ». العرفان م ١٨، ١٩٢٩، ص ٤٠١ ـ ٤٠٥.

- «أوكار العقبان في أوكار الجبال: قلاع الصليبين والمسلمين في سوريا ولبنان». الهلال م ٤٢، ١٩٣٤، ص ٥٤٩ ـ ٥٥٧.

- «مؤامرة على صلاح الدين». الهلال م ٤٦، ١٩٣٨، ص ٢٩٧ ـ ٣٠٢.

- عيسى، علي محمد، (ترجمة). «الحروب الصليبية»، لارنسف باركر في ـ تراث الإسلام. الجزء الأول، القاهرة ١٩٣٧، ص ٨١ ـ ١٤٧.

- الفيشاوي، خالد. «٨٠٠ عام على حطين، صلاح الدين والعمل العربي الموحد». القاهرة ٢٠ و ٢١ حزيران يونيو ١٩٨٧. الفكر الاستراتيجي العربي. ٥: ٢١ و ٢٢ (٧ ـ ١٠) ١٩٨٧ ص ٢٩٥ ـ ٣٠٤.

- محمود، علي السيد علي. «ملامح الجانب العربي الإسلامي في المواجهة ضد الغزو الصليبي». المستقبل العربي ١٠: ١٠٢ (٨/ ١٩٨٧) ص ٤٠ ـ ٦٣ بيبلوغرافية.

- المقتطف (تحرير). «احضار صلاح الدين الثلج إلى الأردن من جبال لبنان». المقتطف ج ١١ (١٨٨٧) ص ٣١٤.

- المقدسي، أنيس خوري. «الدولة الأيوبية في رسائل ابن الأثير». الأبحاث ج ١٨ (١٩٦٥) ص ٣٠٥ ـ ٣٢٨.

- «ندوة مرور ٨٠٠ عام على حطين صلاح الدين». الدراسات الاعلامية للسكان والتنمية والتعمير: ٤٨ (٧ ـ ١٩٨٧/٩) ص ١٥٧ ـ ١٥٨.

هذا الكتاب

يضم هذا الكتاب مجموعة من الدراسات والمقالات العلمية التي وضعها المستشرق السير هاملتون أ. جب في مناسبات متفرقة، على أن القاسم المشترك بينها هو انتظامها كلها في سلك واحد من حيث تناولها لصلاح الدين الأيوبي كظاهرة فذة في مجرى التاريخ العربي والإسلامي. فهي تتوقف عند الظروف المحيطة بظهور صلاح الدين واشتداد الهجمة الصليبية، وتدرس المصادر التاريخية العربية عن حياة صلاح الدين وصعود نجمه، ثم تنتقل إلى البحث في طبيعة وتركيب الجيوش التي تجندت تحت لوائه وأحرزت انتصاراتها الرائعة في حطين فزحفت لاسترجاع بيت المقدس. ويفرد المؤلف دراسة مفصلة لكل من مآثر صلاح الدين ومآتيه، بالإضافة إلى الأيوبيين ومصير أفراد البيت الأيوبي عقب غياب صلاح الدين عن المسرح.

ومما لا ريب فيه أن الموضوع التاريخي الذي تتناوله مقالات الكتاب يلقي المزيد من الضوء على صفحة العصر الحاضر من مختلف الزوايا. فالمستشرق واضع الكتاب ليس بحاجة إلى التعريف، والقارىء العربي سوف يخرج بفهم أفضل للحاضر من خلال متابعته لأحداث الماضي واطلاعه على الظروف التي رافقت بروز صلاح الدين على مسرح التاريخ العربي والإسلامي.



بيسان